وحيد الطويلة

سنوات النمش

رواية

سنوات النَّمش

وحيد الطويلة

الطبعة الأولـــى: 2024

تصميم الغلاف والإخراج الفني: إسلام أحمد

تدقـيق لغــوي: شركة المحرر

رقـــم الإيـداع: 10837 / 2024

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-8842-03-6

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة نشر أو نسخ أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، ولا إصداره بأي شكل من الأشكال ورقيًا أو إلكترونيًا أو صوتيًا إلا بإذن خطي من الناشر.

المحرر

info@almoharer.com

01013146678

01124549848

daralmoharrer

وحيد الطويلة

سنوات النمش

رواية

المحرر

تمهيد

"وإذا أرادت الروح أن تعرف نفسها.

فلتنظر إلى روحٍ مثلها.

وفي المرآة، رأينا العدو والغريب".

جورج سفيريس

"الجزء المحذوف من كلماتنا،

الأحلام التي لا نخبر عنها أحدًا،

النظرة التي نحتفظ بها حتى نستدير،

هي نحن في الحقيقة".

ويليام شكسبير

مقدمة

على عربة كارو، أنا وأخي الأصغر، ببَغْل نصف مُتعب، وعربجي شاب بعيون خضراء -نادرة عندنا- وشعر أصفر كالح من أجناب رأسه، يتلصّص طول الطريق إلى ماكينة الطحين على مؤخرات النساء وهن منحنيات في الترعة، يضيّق عينيه، يتأوه حينًا وينفخ حينًا ويهرش غالبًا، اسمه المعلم كراملة، من المؤكد لبياضه وشدة احمرار وجهه، يدندن من آن لآخر بنبرة حسية رقيعة: "فاضل ع الحلو دقة".

عمري خمس سنوات وأخي يصغرني بسنتين، في منتصف المسافة تقريبًا وبحركة رشيقة نطّ شاب معنا من منتصف العربة، نظر إلينا، قال للعربجي وهو يتمعن في وجه أخي: «شايف الواد شفايفه حمرا إزاي؟».

تحسّر العربجي وتصعَّب بصوت من فمه ودون أن ينظر إلينا قال:

"أمّال لو شفت شفايف أمه! ".

١

حذارِ أن تخرج..

جملة واحدة من أبي كفيلة بحبس الأنفاس، بأن تحيل ضوء الشمس إلى عتمة، ونظرته التي تتبعها كفيلة أن تَميد الأرض من تحتي.

لا تعرف من أين تأتي، لكنك أينما تلفَّت ستجده في وجهك، لا تحتاج أن ترى وجهه حتى لا ترتعش ركبتاك أكثر، ظله كافٍ لأن يحدث الأثر المطلوب وزيادة.

حذارِ أن تخرج..

جملة لا تتبعها أخرى، محملة بالوعيد أو العقاب، تصب رهبتها في قلبك حتى آخر خيالك، لم يكن يضرب، غضبه غالبًا على مقياس ريختر يحمل الوعيد بالعقوبة وهو بالطبع أقوى منها.

كان النَّمش قد بدأ يزحف على وجهي، لم أتجاوز العاشرة بعد، في السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية في أبعد قرية من شمال مصر المدفون، حيث عدد الذئاب ينافس عدد البشر، نعيش في قلب البراري بل في القطعة التائهة أو المنسية منها، حيث الناس أغلب من الغُلب، يعيشون في نهار قصير، وليل يسرح فيه اللصوص وأبناء الحرام والثعالب، دخلت المدرسة في عمر أربع سنوات كمستمع، من يستطيع أن يمنعني وأنا ابن الكبير، المحبوب المخيف، وفي الحصة الأولى تبيَّن أنني الوحيد الذي يستطيع أن يكتب، كتبت على السبورة: «بسبس».

في الحقيقة كتبت على حرف السبورة من أسفلها، كنت قصيرًا حتى إنني خرجت بالسين الأخيرة على الحائط.

علّمني الحروف والأرقام في البداية لكنه لم يكن متفرغًا لي، مهموم بالناس من جهة ومتحفز للمنفلتين الذي يولدون من الليل ومن الغواية الشمال، تكفل مريدوه بتعليمي وتعويض القمع الذي مُورِس عليهم

من قبل، كما آن بعض المُداهنة لن يضر، وضعهم في كفة القريب ولو بحساب، وكان عليهم أن يردوا بعض الدين أو يحافظوا على مسافتهم منه ولو بقرص أذني، غير أنني لم أسمح لأحد رغم صغري، كنت أملك ذاكرة كذاكرته ولم أقبل يومًا رغم رعبي أن يضعني أحد في خانة المخطئ بلا خطأ، أو: «صلحها في المرة القادمة».

الخطأ البسيط سيكلفني صفعة تكفي فيلًا، كافية لتنطُر النمش من وجهي دفعة واحدة وأرتاح.

النمش يتسع، يكاد يغطي وجهي كله، لكن الرعب من أبي يمنع الألسنة أن تلعب بِنَمَشي، وإن لم يمنع أن تمرُق جملة من خلف ظهري، الأطفال قُسَاة وعندنا كانوا غلابة ومتوحشين فقط، مَدرسة بالجلابيب، كل الأطفال يحضرون بها، لونها في الغالب بنكهة صفراء ميتة، تدل على أنها كانت بيضاء لكن الحضور بها والنوم بها أحال لونها، تمتع معظمها ببرقشات في النصف العلوي، مبرقشة وملونة بدم البراغيث التي تنشط عندنا في فصل الشتاء، وهي بالطبع راغبة ومرغوبة بسبب طقس شديد البرودة في قريتنا، واحد فقط يملك بيجاما وأبوه متفاخرًا وغاضبًا يقول إنه أحضر له البدلة دونًا عنا، غاب أحدهم ليومين وعندما عاد أعطى المدرس سيجارتين، قال إن أباه أرسلهما معه تعويضًا عن الغياب.

نصح أحدهم بطبيب جلدية ولا أطباء جلدية في المنطقة، وأحدهم فقط في المدينة البعيدة، التي تبدو قصية كأسطورة في ذلك الوقت، ومشقة الذهاب والحجز والانتظار للطبيب اليتيم مكلفة في الوقت وغير مضمونة النتائج.

لم يكن هناك نمش في وجه غير وجهي، الصبي الوحيد الذي قاسمني إياه كان يعيش في الكويت، يعود في الصيف فقط ولأن هناك من يتبرع بالفتوى مجانًا قال أحدهم إن السبب عندهم ملوحة الماء الذي يشربونه، تم اعتماد السبب وكان لا بد من البحث عن مخرج.

لا نمش عندنا، جلود الناس كلها خمرية تقريبًا بلفحة الحر، الأولاد والبنات، أمهاتهم غالبًا، أما الرجال فقد لفح وجههم السمار بدرجاته

من مصاحبة الشمس في الحارات والحقول، بعض الناس ببشرة بيضاء، والبعض يتهكم ويقول: «نطة فرنساوي»، مر الفرنسيون قربنا، تسللوا من رشيد، أحدهم تخلف عن العودة مع الحملة، زرع شجرًا كثيرًا وكثيفًا، في آخره بنى بيتًا، قال الناظر: كان اسمه فيلمون جيلينتي ووجهه بالنمش، حوّر الناس اسمه وخففوه وأصبحت عزبة جيلينتي ثم عزبة «جلانطة»، قال الناس إن دماغ الناظر خفيفة بسبب الشظايا التي دخلت رأسه في حرب فلسطين وانتهى الكلام.

دائمًا هناك من يتبرع بالفتوى، حاضر دومًا، واحد يعمل مساعدًا لميكانيكي مواتير رش القطن بالمبيدات، قاهري هارب من زوجته، قال: «اذهبوا به لمصر»، كانت نصيحة الطبيب: «لا يهم الدواء، الأهم ألا يخرج في الشمس وإلا سيزداد النمش».

حذارِ، حذارِ..

في الغالب لا تتكرر مرتين.

قليلون هم الرجال الذين يتحدث ظلهم بدلًا من ألسنتهم وأجسادهم، وأبي من هذا الصنف النادر الذي يخشاه الجميع رغم بشاشة وجهه، من الصعب أن تتباسط معه رغم فرحه الواضح بك، لا يبدو حكيمًا فقط رغم أنه كذلك، بل يبدو كأنه يملك مفتاح كل شخص، هناك من يعرفون الأسرار أو يجرون خلفها لكنها لا تعنيه، تعنيه قراءته هو للشخص من أول قعدة أو موقف، هو الكبير المخيف بلا منصب، عدّته فراسته، ما من مرة أصدر حكمًا جائرًا، ما من مرة أفلتت منه، لعل ذلك منبع قوته لكنها أيضًا كانت مورد همه، أن تقرأ البشر رغم ألاعيب الزمن، أن تدرك النفوس خلف الوجوه، لكنه لم يكتئب يومًا في منطقة مكتظة حتى آخرها باللصوص والمطاريد والصيّع من أفخر الأنواع، يقتتلون في أي لحظة، صحيفة الأوغاد كانت واعدة ولم يعد هناك خبر مفاجأة لأي أحد.

أصبح الخروج ممنوعًا طيلة الصيف، في أيام المدرسة أختلس الوقت لألعب الكرة، كنت لاعبًا ماهرًا ومطلوبًا، ولا أعرف حتى الآن لماذا لم يأمر أبي المدرسين ويمنعني من اللعب في الفسحة، ربما لأن

الشتاء طويل عندنا، وربما لحسن حظي نسي، وفي الأخير ربما لبعض الحكمة، لو أخبر الناظر ما خرجت من الفصل حتى في الفسحة، ولأوقف الناظر مدرسًا محترمًا على باب الفصل وربما مر هو بين الحين والآخر ليتفقده.

توالت السنون بطيئة.

في الصيف، أصبحتُ سجين البيت، سجين النمش، في العصر أحاول الهروب لألعب، المنع فوق رقبتي، وبدلًا من حذار، كان لا بد من إيجاد عمل لي، وقعت عليَّ مهمة شاقة أن أقوم بكيّ الطواقي والجلابيب، كان يومًا أسود حين تبرعت بكيّ جلباب يحتاجه في واجب عزاء، يبدو أن عملي حاز الإعجاب، كنت أتخيل أنني سوف أُكافأ بالخروج، يبدو أنني حسبت حسابًا خاطئًا، وبدل أن تذهب كومة الجلابيب الفاخرة لكَوَّاء في المركز أصبحت أنا الكَوَّاء الرسمي دون أجر ولا خروج، حاولت التنصُّل، قلت إن الطبيب حذّر أن يقترب وجهي من النار أيًّا كان مصدرها، لكن على من تضحك يا غلبان؟

أصبحت حبيسًا، أهرب فقط في اليومين اللذين يسافر فيهما للقاهرة، ألعب كأنه اليوم الأخير من عمري وأخرج قبل منتصف الشوط الثاني كي أعود للبيت أتحمم وأتوارى لأنه سيعود فجأة.

محبوسٌ في النمش، محبوسٌ في أحلامي، لا ألعب مع الصغار، لست مريضًا بمرض يمنع الأحلام.

غير أن حديثًا سرى بصوت خافت غيَّر قليلًا في الأمر، حصل زميلي عطية قمر على درجتين من عشر درجات في مادة الإملاء، كتب له المدرس بجانبها: "الله يرعاك"، وحصل على علقة متينة بعصا غشيمة، كانت كفيلة بأن يهجر المدرسة.

كانت القواعد غير المكتوبة أن من يحصل على ست درجات يحصل في المقابل على أربع عصيان، ومن يحصل على خمس يأكل خمسًا، ومن يحصل على أقل يأخذ علقة كاملة، ومع عطية ودرجتيه تكون العلقة بالفَلَكة معلقًا في الهواء من رجليه.

كان يصرخ وهو معلق: "آنا مش لابس لباس يا آستاذ محمد".

أصابته العلقة بالخفيف، قالوا، جعلته على حافة الجنون، وربما خوفه الشديد مما حدث ومما قد يحدث كان دافعًا قويًّا له على الهرب من المدرسة.

أصحاب الفتوى حاضرون كالعادة دون أن يستدعيهم أحد، مكث أخوه في كُتّاب القرية كثيرًا، فاته سن الدخول للمدرسة بكثير، وفي لقطة نادرة أدخلوه للسنة الأخيرة في المدرسة، نجح في امتحان إتمام الشهادة الابتدائية وهو في سن الشهادة الإعدادية في مشهد لم يتكرر، وبنجاحه طلبوا منه الفتوى بعد أن أظهر علمًا وكرامة، ولأنها كانت الفتوى الأولى له فقد جاءت مخففة: «أن ينام عطية ليلة في المدرسة حتى تستقر محبتها في قلبه».

في الصباح وجدوه نائمًا، الفزع على وجهه، على جسده، ينظر إليهم كأنه ينظر لكائنات فضائية.

أيقظوه، راح يهش بيديه في الهواء، بعينين زائغتين ثم اندفع فجأة وهرب.

لم يهرب فقط، بل جعله الخوف يفقد الخوف، راح ينام في المقابر في الظهر الأحمر، وهو أمر مستحيل الحدوث عندنا، فالناس رغم إيمانهم وتسليمهم الظاهر بالقدر كانوا يهربون من مجرد المرور أمام المقابر بالنهار، وفي الليل لا يجرؤ كائن على المرور إلا جماعة.

فعلها عطية، نام فيها، حين كان يخرج من بينها ويقترب من الشارع أمامها يبحث عن اللاشيء، يبدو كأنه أحد جماعة أهل الكهف، بل بدا لمن فوجئ به كأن ميتًا يخرج ليتسقّط أخبار الدنيا.

لم يعد عطية ضحية بعد أن زاد ضحاياه، زادت حالات الإغماء وارتفع صراخ النساء واحتاج الأمر لنصف حقل بصل لإفاقة الناس.

خافت أمي، مررت يدها على وجهي، دعكته كأنها ستمسحه، ولأول مرة علا صوتها: "ليه هو بنت هنخبيه، ولا هيبور".

صرخت خوفًا على ضناها، زاد الحديث عن الخوف، اختفت كلمة الحبس لفترة، ولم يعد أحد يأتي على سيرة النمش.

٢

حذارِ..

حذارِ ممّن؟ ولمن!

هذه لا تقال لعمي عبد القوي ابن عم أبي، بطل الأبطال ومغوار المغاوير، فشل في حفظ القرآن وإن توقف دائمًا عند آية "وما تلك بيمينك يا موسى"، خرج من الصف السادس الابتدائي بعد أن فشل فشلًا خفيفًا، ولم يعد أمامه غير أن يأخذ الصف خلف إخوته ويساهم في زراعة الأرض، البراري واسعة والأرض لا تجد من يقدر عليها، يستصلحها ويضمها لأملاك العائلة.

في الحقيقة كان والده وهو عم أبي أكثر الناس فرحًا بسقوط ابنه، إذ لم يكن التعليم عنده أكثر من فك الخط، تعلم القراءة والكتابة كي يوقّع أبناؤه بدل أن يبصموا أو يحملوا أختامًا بأسمائهم، وربما كان هذا مبلغ علمه، فمن رآهم من المتعلمين يأتون غالبًا من المدينة، آحاد بشخصيات أسطورية، لكن أسطورتهم تسقط عندما يسيل لعابهم على البط والديوك الرومي والسمن البلدي الذي يملك منه الكثير، غير أن الخبيئة كانت في جانب آخر: إن تعليم ولد معناه أنه سيذهب إلى المدينة ويكلف العائلة إيراد فدان على الأقل سنويًّا يكفي لإعالة عشرين شخصًا، وهو أمر دونه ذبحه أو ذبح ولي ولو له كرامات، يحتاج لأن تتنزّل رسالة سماوية بذلك أو يأتي به أمر من مأمور المركز لينفذه.

كان جدي الاحتياطي هذا حريصًا حرص الإبل إلى الدرجة التي جعلته يتجاوز البخل بفدانين، حتى إنه في لقطة نادرة حتى على أبخلِ البخلاء أو من لا يجد قوت يومه، بدل أن يضع الخبز في اللبن فتَّتَ لأبنائه البرسيم الناشف الذي يوضع للبهائم بعد انتهاء موسم البرسيم الأخضر، رغم أنه غني، بل أغنى الأغنياء، يملك ألف جنيه في وقت لا يملك فيه أحد بريزة فضة واحدة.

الدنيا ماسكة، ومن أعطته الأقدار هدية أو سرق ماشية وباعها في السوق ويملك جنيهًا واحدًا تغسل له زوجته جلبابه، تعطره بالزهرة

الزرقاء ليخرج ويجلس على كوبري البلد وحاله يقول جملة واحدة: "آبو زيد الهلالي خالي".

وعليه، تقدم عمي عبد القوي وخطا خطوته الأولى نحو الأرض، في الحقيقة لم يكن مرتاحًا للأمر، يشعر أنه أكبر من حفاء الفلاحين وأيامهم المكرورة وجفاف أحلامهم، وصبرهم بالشهور على زرعة أرز أو قطن، يكره الصبر ويكره الجبن القديم الذي يتقوتونه كل يوم، يكتب اسمه وأخذه الغرور بما أنه ابن كبير العائلة فأشاع أنه سيرسله للتعليم في أوروبا البعيدة، فشَّار كبير لكن حدسه يخبره أن مستقبله في مكان آخر وربما نوازعه هي ما تقوده، يساعده في ذلك بؤبؤان لعينيه يسكنان زاويتيهما يستطيع أن يرى بهما من خلفه وبالطبع من جانبيه.

ولأن المقادير تأتي للأشرار على مقاس الأحلام أكثر من الأخيار، جاءه قدره إلى ساقه، هناك من تحرش باللفظ بأبيه، واحد من عائلة أخرى، فما كان منه إلا أن سحب النبوت وضربه عصا واحدة أسقطته مغمى عليه ممددًا كأنه في غيبوبة، وبدل أن يأخذ طريقه إلى الأرض أو أوروبا اتخذ مقعدًا على مسافة من ظهر أبيه الذي يفترش دكة أمام منزل العائلة الكبير، وبدل أن يحتل شنب جدي الاحتياطي واجهة المكان، أصبح هناك شنبان، واحد في المقدمة وواحد خلفه ظاهر للعيان يحمي العائلة من الساقطين، شنب تحذير لكل من تسول له نفسه الاقتراب من طرف جلبابها.

في الحقيقة كان عدد اللصوص في العائلة يقارب عدد المزارعين، وهو أمر ليس غريبًا، بل متوفر في كل العائلات وإن كنا قد بَزَزْنا العائلات الأخرى بعدد زائد في الجناحين، يجري ذلك علنًا باعتراف كأنه قانون، بل هو القانون، من يأكلون بالسرقة أكثر عددًا ممن يأكلون من كَدِّ أيديهم.

كان الموقف يحتاج لظهور بطل ولو من تحت الأرض، العائلات بسيطة أمام أرض شاسعة تنادي من يستصلحها، والناس يأكلون القمح مسروقًا في الغالب ثم يعودون للشعير، لكن الحياة بدأت تلعب لعبتها باكرًا بل قدمت المواقيت، فحين يوجد الزرع ويوجد البشر لا بد أن تنبت

السلطة ولو زرعها الناس زرعًا، لا يستقيم الأمر آن يعيش الناس في سواسية أو وئام أو تكاتف رغم أنهم يواجهون قلة أعدادهم وكثرة المطاريد والهجامين.

تنبُت السلطة غالبًا في الليل، ثم حين تتأكد من أذرعها تظهر في وضح النهار، راح يبحث عن غابة السلطة، دله أبناء الليل عليها، لكن الأرض ليست مُمهدة، تطرح من الخوازيق ما لا يتحمْله سوى الأبطال، في الحقيقة لم يكن بقلب بطل ولا بقلب لص ولا بجسارتهما ولا بنبلهما، لكن البطولة ليست دائمًا صفة، دم وطينة، غواية البطولة عند البعض تفوق عدد الأبطال الحقيقيين، وهنا أرض الأبطال العِيرة.

طريق البطولة شاق، يولد الأبطال أبطالًا يصنعون الحدث، وفي الدرجة الثانية هناك أبطال يصنعهم الحدث، وهو من النوع الأخير، سواء كان حدثًا شريفًا أو حدثًا سيئًا، وهو اختار الأخير، لم تكن مؤهلاته تسمح له بأكثر منه.

اتكل على الله أو على الشيطان وقرر أن يكون لصًّا، لصًّا كبيرًا، وإن كان ولا بد فعليه أن يسرق الجمل والقمر، فليحصل على مكانه ومكانته بعرق يديه وكدِّه، ليكن لصًّا تحكى سيرته تحت ستار الليل وتحت نجومه أو على الحنفية العمومية في أنصاف الليالي، والرواية جاهزة ومكان البطل شاغر، على أي حال نذر نفسه وقرر أن يذهب بقدميْه لبيت المِكّاوية العتيد، مكمن اللصوص، أرض المعركة ومصنع الرجال، اللصوصية صنعة الكبار، واللصوص هنا ليسوا فرادى ولا هجامين، هم آحاد صحيح لكن من أفخر النفوس والعائلات.

ذهب رافعًا شاربه ونبوُّته، تسبقه سيرته، للأمانة أصبح فخرًا للعائلة في رمشة عين، ولو باعتداء على واحد آخر، إذ إنه دافع دفاع الأبطال عن أبيه رمز العائلة وعن شرفها كلها، وإذا كنا قد دفعنا حقًّا للعائلة الأخرى نظير ضرب ابنها خمسة جنيهات كاملة حقًّا ميتًا لا يرد، فهذا ثمن بخس مقابل المكانة التي رفعت رأسنا للسماء، كما أن جملته التي قالها في نهاية التحقيق أصبحت شعارًا معتمدًا حين برم شاربه وقال: «خمسة جنيهات أخرى موضوعة في جزمة قديمة في الحمَّام»، وللأمانة كان صادقًا إذ إن نصف العائلة كانوا من الحفاة

والباقون جزم قديمة، ولو آن موضوع الحمَّام هذا كان مشكوكًا فيه.

فليذهب إذًا لقدره.

لحسن حظه ذهب بعد وفاة المكاوي مباشرة، والأخير لم يكن لصًّا كبيرًا فحسب مع أن ماضيه يشهد له، لكنه كان بارعًا يرى المستقبل بعين حرامي عتيد، تخمرت في ذهنه فكرة لم تخطر على بال أجدع زعيم مافيا، أنشأ مدرسة لتخريج اللصوص، بدل أن يسرق أولاده ويتعرضوا للخطر، افتتح مدرسته وتقدمت كل عائلة بلص منها ملأوا المقاعد عن آخرها، كان الدرس الأول والوحيد أن يخرج الطالب مع أقرانه في سرقة كبيرة وحين يعود مظفرًا منها يتم تعميده بنوط اللصوصية العظمى، يصبح لصًّا معتمدًا ومن الممكن أن يحصل على شهادة تخرج بختم المكاوية نفسها، وإلى جانب الشرف الذي يتمتع به سيتمتع بميزة أخرى، لن تتم الإغارة على عائلته ولا على واحد من أفرادها، قانون غير مكتوب لكنه ساري المفعول، وإذا حدثت بالخطأ ترد إليه المسروقات فورًا تكريمًا للطلعات التي قضاها في خدمة النضال، غير أن هناك شرطًا أساسيًّا يتم التوقيع عليه شفاهة، إذ إنه وجميع الدارسين والمتخرجين لا يحصلون على شيء من الغنائم، بل تقع كاملة في يد المكاوي ناظر المدرسة وعائلته.

ذهب للمدرسة في وقت حرج، بعد وفاة مؤسس الأكاديمية العظمى لتخريج الحرامية مباشرة ودمه لم ينشف بعد، وخشي الجميع من انفراط عقد المدرسة، إغلاقها وتسريح لصوصها، إلا أن المكاوية زوجة المكاوي قبضت بيد من حرير على زمام الأمور، لبست عمة زوجها وجلست في مقعده، تقول الحكايات إنها مع الوقت أخذت نبرة صوته بل وحشرجته، قربت عمي إليها رغم أنها عرفت من أول طلعة أنه بنصف قلب، لا يملك جسارة وغُشم اللصوص، ربما ببصيرتها رأت الجانب اللين، بل أعجبها السياسي فيه الذي يستطيع أن يفاوض بلسانه بدل أن ينزل إلى أرض المعركة برجله.

تخرج عمي في مدرسة المتفوقين، وعاد بشارب مرفوع لأعلى من الناحيتين، فتح لنفسه وللعائلة فتحًا كبيرًا، لكن الفتح المبين كان من نصيب جدي الاحتياطي، إذ وقعت كل أسرار سرقات المنطقة في

حجره، إذ إن سفيره لدى دولة اللصوص أصبح يفرد أمامه خريطة القنص وحجم الغنائم، الأمر الذي جعله يساوم العائلات بها وعليها لمزيد من السلطة والنفوذ دون أن يقترب من المال الحرام والعياذ بالله.

احتفظ عمي بخيط حريري مع المكاوية، استغلت الجانب اللين وزوجته سرًّا من ابنتها المكاوية الصغيرة التي أصبحت هجّالة بعد نفوق زوجها في إحدى الطلعات، إلا أن الخيط انقطع لسببين حين تزوج عمي من ابنة عمه، عمتي شقيقتي، مما دعا المكاوية الكبيرة للتهديد بالإغارة على الفرح.

في الحقيقة انقطع لسبب آخر، كشّرت الحكومة عن أنيابها، واستطاعت أن تستغل أيام الصيف لإغلاق المدرسة والقبض على الطلاب، كانت المنطقة في الشتاء مقبرة للبوليس، هيش كبير بلا طريق واحد معبّد، المطر لا يتوقف لأربعة أشهر، والتفكير بالدخول للمنطقة تفكير انتحاري في قلب العتمة، لم تكن هناك كهرباء ولا وسيلة نقل تجرؤ وإلا غرزت في الطين من أول مترين، وأصبحت قوة البوليس في مرمى النار والشر، بدا المكان في الشتاء كأنه ملعب للجن والذئاب فقط، مع تباشير الحر دخلت الحكومة وأمسكت بهم، لم تكن هناك جرائم حالة يقدمون بسببها للمحاكمة، لكنهم كانوا خطرين بما يكفي، ويجب التنكيل بهم للصالح العام، ولِبَرْم شارب السلطة أولًا، اختاروا لهم يوم السبت يجمعونهم فيه في مركز البوليس، كانوا يدفعونهم لضرب بعضهم، يبصقون كلٌّ في وجه الآخر، يصيحون فرادى وجماعات: «أنا مرا، أنا مرا»، لكن ما أوجع الجميع وأوجع عمي في كبده أنهم كانوا يحلقون لهم نصف شواربهم ويتركون النصف الآخر للسبت الذي يليه، والويل كل الويل لمن يحلق نصف شاربه المتبقي بعد أن يخرج، أوجعه أن يقول عنه الناس: «واحد من أنفار السبتية»، حتى السبت المذكر اتخذ صورة مؤنثة.

أخفى وجهه بيده، كاد يقول: وما تلك بيمينك يا عبد القوي!

اختبأ من الجميع، لف وجهه بملفحة ليلًا ونهارًا، عاد للأرض التي لفظها، لكنه لم يتحمل الإهانة طويلًا، سقط من طوله مريضًا، ظهرت البقع والنمش على جسده، وكما قرر أن يكون بطلًا قرر أن يموت بطلًا،

عاد ليلَا للأرض التي عافها، نام في قلب آكوام الأرز، مر عليه الجرار الزراعي، لم يلحظه سائقه ولم يتوقع أن ينام أحد هنا، مزق ساقيه، لم يخرج من الغيط إلا جثة هامدة.

نام وقبل أن يفعلها كان النمش يغطيه كله.

وأخته البكر تتذكره وتذكره بكثير من الأسف والأسى والحسرة، حين ينتصف الليل تكون قد صحت من نومتها الأولى، أو هو من أيقظها كما تعتقد، تعقد شدتها على رأسها وتغني وحدها: «غزال معدي نص الليل».

٣

قبل أن يموت جدي اتخذ قرارًا مصيريًّا دون أن يساعده عليه أحد، قرر أن يقوم بتمتين جذور العائلة، يمنحها دمًا جديدًا لتغرز بقوة وتصنع جذرًا قويًّا ممتدًّا في الأرض كي لا تهزها العواصف المتأهبة في كل لحظة.

المشهد عنيف، موتّر متوتر، الأرض متروسة عن آخرها بالمطارد واللصوص من أردأ الأنواع، من يخرج في الليل لا يضمن أحد رجوعه، الليل وما أدراك ما الليل، سواد غطيس، أرض زلقة بالطين ودماء الضحايا، منطقة لا يتصور أحد وجودها على الخريطة، الذين فروا إليها هاربين كانوا موقنين أنها أرض الخلاص لهم مما فعلوه أو مما حدث لهم، ولن يستطيع مارد أن يلحقهم فيها، البعض يراها أرض الميعاد، وبلغة أوضح فهي موضع جهنم على الأرجح، من يموت فيها من المستحيل أن يعرف له أحد شاهدًا أو علامة، الغريب أن الجثث إن تم العثور عليها صدفة تحتفظ بملامحها تقريبًا لحظة قتلها، ملامح الصرخة أو التنهيدة الأخيرة كأن غير المأسوف على شبابه مات منذ دقائق، ما زال الوجه بألمه الذي نفق عليه، الأرض المخاوية بالملح تحفظ الجثث عكس الطين الذي يأكلها أو يستر وديعته كأنه يستردّ حقه مهما طال الزمن.

كانت الناس تودع أهلها قبل أن تودع غنمها أو بهائمها، يودعون بعضهم قبل أن يودعوها، ولو نقص واحد على العشاء ينشف ريقهم قبل أن يكتشفوا برعشة أنه يغسل رجليه أو يتحمم في مكان مخبوء.

الخروج من الأرض بعد العصر بقليل كي لا يفاجئهم المغرب بغشاوته، لحظة المغرب تبدو للجميع دائمًا كأنها لحظة قبض الروح، ليل لا يلتحم بالنهار ولا يعانقه قبل الانصراف، يهبط بسرعة بل ينقض عليه ويدهمه والطقس جبار معظم أيام السنة، مكان قريب من طرف ميت لبحيرة، ينشع ماؤها في الأرض فتتسرب الملوحة لسنوات.

واحد يقول في لحظة صفا وما أعزها: نحن نعيش على شمال السماء، وواحد آخر يقول إنها أرض القيامة وواحد يتندر فيقول: لم تكن موجودة في اللحظة الأولى لخلق الأرض بل تمت إضافتها فيما بعد.

لا عائلة كاملة بالمعنى الحرفي، عائلات من آحاد، ومن يأتي غريبًا كان عليه مع الوقت أن يبحث عن عائلة ينتسب إليها، يتدفأ في خوفها، ليصبح واحدًا منها، لكنه تحت العين، ولاؤه على المحك إلى أن تحين اللحظة التي يختبر فيها ويثبت انتسابه، وإن ظل في درجة أدنى من الحرامية او اللصوص القدامى بالطبع الذين اكتسبوا بأسبقية هروبهم للمكان وجرائمهم مكانة أعلى.

لم يعترف الذين قدموا هروبًا من الثأر بجرائمهم إلا متأخرًا، كانوا يدعون جرائم أخرى، المهم أنها كانت مناهضة للحكومة في أغلبها، ليصيروا أبطالًا في حكاياهم، لكنهم الآن أمام واقع شرس صعب، يحتاجون لاقتراف بطولات وجرائم أعلى.

كان على جدي أن يزرع جذورًا جديدة للعائلة يضمن بها استمرار نسلها، في مواجهة الموجات المتتالية من التتار الذين يزحفون بالليل، هو الكبير، له أخ مريض وأخ عتيد من الأبطال القتلة يذود عن العائلة بيد مفرودة وبندقية حنون، سمعته معروفة في المنطقة، قانون خلق نفسه بنفسه، قاتل يصد القتلة، سمعة وجوده حائط صد وردع عام، قانون تناسل من جنسهم، كان قد تخرج وحده بموهبته من مدرسة نفسه دون مساعدة أحد، قبل العصر المجيد للمكاوي والمكاوية، يقولون: «خريج نفسه»، لا يستطيع أحد الاقتراب من عائلتنا إلا لو قتله أولًا.

راح المرض يزحف نحو جسد جدي، مريض لم يكتشف أحد مرضه بالسكر إلا قبل وفاته بقليل، لم يكن مرضًا معروفًا، كان من أمراض الرفاهية التي جاءته بسبب الأكل الدسم الذي يقدم له وحده في الغالب باعتباره كبير العائلة وواحدًا من كبار المنطقة العظيمة، وحتى لو عرف لم يكن أحد يملك ترف معالجة أمراض الذوات.

كان جدي أنيقًا بطبعه، أبو عبده راح، أبو عبده جاء، يملك كل نقود العائلة، يؤول إليه إيراد الأرض والبشر وهو يتصرف فيها كما يحلو له، يهرع نحو الأكل اللذيذ الغني الذي يعتقد الجميع مخطئين أنه منجاته في حين كان مقبرته.

فليصنع جذورًا إذًا، قرر أن يزوج أولاده من بنات أخيه المريض جدي الاحتياطي، ويزوج بناته أيضًا من أولاد الأخ نفسه، بدل عالمي، أربع عرائس وأربعة عرسان، كان أبي متململًا غير راض لذا اكتفوا بأن يكتب كتابه إلى أن يلين دماغه، كما وقعت قرعة عمي الأصغر في الزواج من ابنة عمه الكبيرة، بينهما فارق كبير في السن، هو في السابعة عشرة وهي في الخامسة والعشرين.

إختلف جدي وأخوه خفيفًا على من يناسب من! وفي لحظة نادرة قررا أن يفعلاها بالقرعة، وقد كان، احتكما لضاربة وَدَع كانت تمر، ضربت بِطُوبها وحَجرها وقالت الأسماء، فلان لفلانة، وفلانة لفلان.

وكأنه كان يقرأ الغيب دون وَدَع، وَدَّع جدي الحياة، واعتلى أخوه المريض أو الذي كان مريضًا سُدّة العائلة، كانت الكوليرا قد أطاحت بنصف الناس ذات يوم، لم تأخذ كثيرًا من اللصوص، ربما لأنهم لا يخالطون الناس كثيرًا وربما لأن الأوبئة تخشى الوباء، وتسلل الروماتويد فجأة ومع أنه ليس وباءً بل داء فردي، إلا أنه تصادف أن كثيرين أصيبوا به في الفترة نفسها، راح يضربهم في عظامهم، نحلت أجسادهم سريعًا وبعد فترة قصيرة لم يقوَ أحدهم على السير بقدميه، سقطت أجسامهم من طولها، وبدا منظرهم بائسًا إلا أن الرحمة كانت قليلة، عائلات الحرامية من خلفها وقلة الرزق من أمامها فلم يلتفت إليهم أحد، كانت فكرة الموت مستساغة بل طبيعية كشرب الماء من قلة ثم مسح الفم على عجل بعده كأن شيئًا لم يكن، وضعوهم في القفف، تكوروا على بقايا عظامهم حتى هربت أرواحهم منهم، يدفنونهم على عجل، ولولا بقية من حياء، لا تستطيع أن تقول بقية من خوف، فالخوف مدخر لأشياء أخرى، لدفنوهم بقُفَفِهم، أحيانًا فعلوا، خاصة إذا مات من مات في الليل.

ماتوا جميعًا عدا جدي الثاني، هو الوحيد الذي انتصر على الروماتويد، ظل يتعافى في ظل جدي العفي قبل مرضه، كان يحمله في قفته على كتفه ويذهب به للطبيب في البعيد لمسيرة يوم وأحيانًا يزيد، اتخذ مقعده خلفه ثم بجانبه بعد أن بدأت الحياة تدب فيه، خرج من المرض معووجًا من معظم جهاته، كانوا يقولون إنه مثل زمبيل البطاطا، لا تعرف له كتف من وسط، لكنه بسبعة أرواح، وفي اللحظة التي ودّع

فيها جدي الحياة بدأت حياته، بدا كأنه انتصر على المرض كأنه لم يكن، رغم العلامات البارزة على جسده، وجد جائزته في انتظاره، عائلة بكامل أفرادها وأرضها، ساعده في ذلك شقيق قتال قتلة لا يظهر كثيرًا لكنه يسند ظهر العائلة بسمعته، كما ظهر ابنه -عمي عبد القوي- ظهورًا مدويًا على المسرح بعد أن تخرج في أكاديمية المكاوية العتيدة، يسرب له أخبار السرقات ومن قتل من، يحكم بالدية ويرجع البهائم لأصحابها نظير معلوم لا يأخذ منه شيئًا وإن كان يمر قريبًا من أنفه، ومن تحت يده.

يفعل ذلك كأنه ينتقم من الموت الذي كان على طرف أنفه، أو من الحياة التي كادت تسلب روحه فقرر أن يسلب هو روحها وبدا للحظته عصيًّا على الموت، فرض بطشه بدل أن يفرض سلطته، غير أنه لم يتوقع أن الحصاة التي تسند الزير سوف تتمرد على مكانها في الأسفل، على خنقتها تحت مؤخرته، عمي الأصغر الذي تزوج ابنة عمه الكبيرة كان ممتعضًا يريد واحدة أصغر منه لكنه لا يستطيع أن يتزوجها تحت عين عمه الكبير مالك الدين والدنيا فوقع في واحدة شهية أطعمته وسقته وانتشر الموضوع بل حك في ذقن جدي الثانِي، فما كان منه إلا أنه ناصبه العداء، كان لا بد من حل للأمر بأن يعافَ عمي الأصغر طريدته الجديدة، إلا أنه حل الموضوع على طريقته وقام بالتلويح لعمه بعصاه، تلويح بعصا العز الغابر الذي سرقه منه ومن إخوته، كان يمكن للأمر أن يمر بأنها لحظة شيطان وولد عاق حسابه فيما بعد، لكن ابنه خريج مدرسة المكاوي تدخل دفاعًا عن أبيه، فما كان من عمي إلا أن ضربه بالنبوت في وسط رأسه كي يقطع الطريق ويتخلص من ابنته.

كان حدثًا جللًا، لا يجب أن يقترب أحد من مقام كبير العائلة أو يتطاول عليها مهما كان، وفي اللحظة التي تتضافر فيها المصائر، لحظة الدراما غير المتوقعة قام أبي بتطليق ابنة عمه التي كتب كتابه عليها ولم يدخل بها، وعلى إثره تطلَّق الثمانية في ليلة واحدة، وبدا شبح الانقسام على العائلة لأول مرة في منطقة لا تحتمل هذا وإلا أكلتهم الضباع.

لم يكن هناك صوت لأحد، خراب عميم ضرب العائلة، وبدا النمش على

آهبة الانتشار، بل بدآت سنوات النمش تعد على آصابعها، كان لا بد لصوت عمتي فريال أن يعلو وأن يظهر كعادته في النوائب كما في المسرات، هي شاعرة العائلة، تحفظ بعض الشعر السائر، ينشده عابرون بربابة أو دونها وتصنع الباقي على يدها حسب الحالة، أنشدت تقول رغم أنها تطلقت في الليلة نفسها:

«ضربة كانت من معلم خلت الاستعمار يسلم».

٤

لم يكن الأمر مفاجأة للجميع، لاحت شواهد في الأفق ساهمت في تفسير الأمر، إذ إن أولاد جدي الاحتياطي من الرجال قد بدأوا يدورون حول صبايا جدد، لا شيء خافٍ على أحد حتى إن حدث في الخفاء، لم يكن كيدًا في عماتي الشقيقات فالكل شرب من القدرِ نفسه قدر ما كان إيذانًا بعهد جديد، انفصال بل فصل الأرض والأجسادَ، ميلاد مرحلة جديدة، ربما قرر وأقر جدي الاحتياطي خطتها، لكنه لم يحسب النتائج جيدًا أو حسبها ووضعها على صرمته، كانت نجاته من الروماتويد بأعجوبة قد جعلته يقابل الدنيا فاتحًا صدره، لا يخشى شيئًا فرغم أنه الكبير ومقامه يجب أن يبتعد عن الشبهات لكنه أصر على أن يدور اللصوص في فلكه، لا يلعب معهم لكنهم لا يستطيعون أن يلعبوا بعيدًا عنه، ثم إن الشبهات هنا شارة ومنجاة في هذه المنطقة، تخيف أكثر مما تعوص، ولا أحد يخيف طالما كان نظيفًا.

أفلت من الروماتويد، غطى النمش جسده كله عدا وجهه كأنه يخرج لسانه للحياة، لا يستطيع أن يدب بقدميه كثيرًا لكنه يدب بعصا غليظة، لم يعد يخشى عواقب حوادثها بعدما أفلت وحده من موت على بعد ثانيتين من أنفه.

الحقيقة أن ابنه الكبير -عمي الحاج فتحي- لم يكن راضيًا عن الزواج بأخرى لكنه على الأرجح كان مرغمًا، كان فلاحًا طويلًا طويل النفس عريض الأكتاف قوي القامة والبنية، لكن حجتهم أمامه كانت أقوى، لسنوات لم ينجب من عمتي زهرة شقيقة أبي، وكان عليها أن تخضع للقانون غير المكتوب: من لا تنجب فلتنتظر ضرة في الصباح تقف لها خلف الباب، إن فتحته ووجدتها فلترحب بها أو ترضى بقضائها، ولها فقط أن تبعبع بما تشاء من جمل حول العويل وغدر الخسيس وبنت الحرام لتبرد نارها، وعليها أن تشرب الكثير من اللبن.

كانت هناك حكاية معروفة تُتلى في الحوادث المشابهة وما أكثرها أن رجلًا اسمه نوح تزوج على زوجته واسمها جلالة، وحين دخل نوح بالعروس ممسكًا يدها إلى غرفته الجديدة صاحت في وجهه «يادي النار يا نوح»، فرد عليها : «اشربي لبن يا جلالة»، وصارت مثلًا.

لم يكن عمي فتحي راضيًا عن تطليق عمتي ابنة عمه لأنه يحبها، ولأنها امرأة جميلة وبتعبير النساء في ملمّات كهذه : «امرأة كاملة وما كامل إلا محمد»، بوجه يغار منه القمر، بطلّة بشوشة غالبًا، تمتلك وفرة في كل المطلوب من امرأة، ملفوفة لا تكاد تعرف أولها من آخرها، بضّة بيضاء كأنها معجونة بالسمن البلدي، كما أن عمي فتحي من الواضح أنه اكتشف أن هذا النوع من النساء هو من الفئة العليا خاصة أنها كانت تملك أيضًا أشياء عليا، عاش بحبها ومات به، ورغم أنه تزوج وأنجب ثمانية من الأولاد، إلا أن جملته المُتواترة على لسان عماتي إخوته البنات، إنه يريد حريم فرشة، امرأة للفراش.

لم يستطع أحد أن ينسى قصتهما، أحبّا بعضهما بقوة، ورغم أن الزمن تجاوزها ونسيها وذهب كلٌّ في طريق، إلا أنه عاش بحكايتها معه، يصفن وينادي على أي عاملة في الغيط باسمها، ينادي أحيانًا على بناته، لكنها لم تستطع يومًا أن تبوح بذلك، لا العادات تسمح لها ولا زوج جديد سيقبل، خوفها من إخوتها وحبها الشديد لهم كان هو الرابح في المعركة، طمس على الحكاية في قلبها، وتولت عمتي فريال شاعرة العائلة الدفاع عنها وعن القبيلة كلها، إذ تردد بصوت عالٍ في كل مناسبة: إحنا أولاد أبو عبده والأجر على الله.

بعد زمن وفي اليوم الذي ذهب فيه للحج وقبل أن تنطلق به السيارة، عاكسناه ونحن في مقتبل الشباب: «لا تنس أن تحضر هدية عمتي زهرة»، لا أعرف لماذا لم نخجل حتى من أولاده، وكان هو على الوعد، إذ لم يحضر هدايا لأحد غير أولاده، لم يكن بخيلًا لكن الشح دين، بضع سبح وهدية زوجته الأولى عمتي زهرة، وحين غمزت زوجته قناته بكلمة زغدها كوعًا خفيفًا، ولم تستطع من بين دموعها أن تتخذ أي ردة فعل سوى بجملة واحدة لتغيظه كما أغاظها: «أهو أنت كده ضيعت الحجة».

لم يكن أحد حين يتحدث عن الطلاق يجد لفظًا غير: الطلاق الكبير، سنة الطلاق الكبير، صار ميقاتًا وإشارة على زمن ماسخ أرعن، لكن نتائجه كانت ربما أكبر منه رغم عظمه وغلظته، كان لا بد من قسمة الأرض لأول مرة في تاريخ المنطقة، كانت الأرض كلها تحت يد جدي الاحتياطي، أخذ الأرض المنتجة وترك المستصلحة التي لم تؤتِ أكلها

بعد لأبي وأعمامي، وضم أرض إخوته البنات إلى ملكه، قل أكلها، لم يكن ذلك عارًا يلزمه، فالجميع ملك للكبير، لكن ذلك لم يمنع من جملة راحت تتردد بقوة: أكل حق إخوته البنات، كانت الثورة قد قامت من سنين قليلة، بدأ الحديث عن لجان فرض الحراسة، خشي أن تطال أرضه وذقنه وخشي أبي، الذي بدأ نجمه يلمع بانضمامه للثورة وولهه بنظام جمال عبد الناصر، كان أبي يعتقد أن عبد الناصر هو النتيجة الطبيعية لاستيلاء الملك فاروق وعمه جدي الإحتياطي على الحكم والأرض، عاش يعتقد أن عبد الناصر هو النبي ببشاراته ومحمد حسنين هيكل هو بولس الرسول، وإن لم يُعْمِه هذا في النهاية عن أخطاء النظام، بل كان منتقدًا، انتقاد المحب الواعي، يرى أن حظه من السماء أنه عاش هذا الزمن ومات به، أصبح عضوًا بلجان تقصي الحقائق وبدأ نجمه يصعد في الأعالي وسط مجتمع من الهمج، قارئ ذكي للكتب والتاريخ، يملك فراسة شخصية في قراءة التحولات، ويملك ما لا يملكه أحد بسهولة أو صعوبة في قراءة الأشخاص من جلسة واحدة.

ينتظر مقال هيكل كل جمعة، يقرأونه في الإذاعة بصوت صالح مهران العميق المناسب لضراوة زمن عبد الناصر، ولم يستطع أحد في الدار أن يفتح فمه مرة حتى ينتهي المقال، كانت الصحف تصل في التالي لصدورها وأحيانًا بعد أيام فنحن نسكن في آخر بلاد المسلمين، كان يرى لكنه لا يفصح أن هيكل ليس صوت النظام بل أحد اللاعبين الرئيسين في الحكم، يتمتع بالحكمة وبحماية الرئيس.

ركزت عين جدي الاحتياطي على أبي وهو يراه يكبر أمام عينيه، يسافر للقاهرة ويدخل بيته غرباء وجهاء يقولون إنهم أعضاء مجلس الأمة، كان عليه أن يخفض رأسه قليلًا حتى ينكشف الأمر، مشغول بالأرض الكبيرة التي نشلها، كيف يعوض ما أخذه أولاد أخيه، وعليه أن يرتب بيته الداخلي، بناته واحدة صحتها تعبانة وواحدة تطلقت دون أن يدخل بها زوجها وأخرى تطلقت ومعها بنت صغيرة، الأخيرة وهي عمتي عديلة أكبر بناته، لذا أعطاها مفاتيح خوازن اللبن والدقيق وكل المعاش، هي الوحيدة المسموح لها أن تلمس الدولاب الذي يحفظ فيه الألف جنيه، يريد أن يعوضها وأختيها بأي ثمن، يغلقون الأبواب كلها على نفسهم مرة كل أسبوع وهو متكئ على سريره بساق معوجّة

فوق آخرى معوجّة، يخرجون الألف جنيه، تقبع خلف خمس زكائب ملفوفة في الداخل عكس بعضها، يعدُّونها ببهجة ووجل ليتأكدوا من تمامها وأنهم أغنياء عن كل الناس، أغنياء عن الزواج، وهو مستمتع بحفيف الجنيهات أثناء العَدّ.

أصبحت عديلة مشرفة على كل حبة قمح أو أرز، بل وصارت هي من تحدد قوائم الطعام، لم تكن بخيلة، لكنها كانت حريصة للقبر، لم تكن ترى شُحّ أبيها تقتيرًا، بل حفاظًا على ممتلكاته، وأي حاجة تقضي والسلام، تضع ربع كيلو عدس في مقام الحلة التي تستحق كيلو على الأقل.

والدها مهموم بها أكثر من كل شيء عدا أمواله، عدا الحرامية الذين يجب أن يعرف كل شاردة وواردة عنهم، يعرف أنها أصبحت هجالة بتعبير الناس في المنطقة وفي مناطق مشابهة، وهي كلمة موجعة، امرأة تزوجت وتطلقت سريعًا وأصبحت عويلة دون بعل، وممكن أن تلطشها كلمة من هنا أو هناك، كان أمام أمرين، أن يقطع أي رِجل لرجل تخطو عتبة بابه أو أن يهبها مكانة كبيرة، رئيسة مسموحَ لها بكل شيء في الدار، تشخط وتنطر باسمه، الوحيدة المسموح لها أن تبكي أو تضحك في أي وقت، مسموح لها لكي تنشغل وتنسى، حتى لا يقترب الأسى من طرف جلبابها، ترمي أنوثتها في مقابل رئاستها، وقد كان.

لديها بنت ومطلقة من ابن عمها الأصغر، لم تدخل دنيا كما يجب، لم تلحق إلا شربة ماء، دخل بها واستمر معها شهرًا ثم تطوع في الجيش هربًا منها، أوجعها ذلك مع أن التطوع كان أمرًا غير مستهجن، لكنها شعرت أنه داس على أنوثتها وإن أخفت، كانت تقول لنفسها إنه عيل صغير ابن سبعة عشر وهي كبيرة عنه، وربما تأتي لحظة ويعقل، لكنه لم يعقل.

في مرحلة التوهان لكن القضاء وقع والدوران للخلف لن ينتج ماء ولا طحينًا، ألحت عليها أنوثتها فقررت مرغمة أن تهزمها، قررت متوجعة، لبست جلبابًا واسعًا مفتوح الصدر، يظهر منه صدرها كأنه علامة أنها عافت الرجال في عز عز شبابها، صار صدرها على الدوام مفتوحًا لكن

آثداءها بحكم قرارها ووضعها وطردها لأنوثتها تدليا، سرقتهما الجاذبية لأسفل وإن كانت قد عوضت ذلك، إذ كان صدرها العرمرم المنتصب فيما مضى، العرمرم المتدلي الآن يحمل مفاتيح دولاب الفلوس وخزائن الغَلّة والمعيشة، لا وقت لها لتغني ولا لتعدد، لديها منصب خطير، يخطر في ذهنها أحيانًا أن إحداهن سوف تقول عنها من خلفها: «امرأة هجّالة»، تغيب ملامحها للحظات ويكسوها الأسى، تردد من حين لآخر دون أن يسمعها أحد وربما دون أن تسمع نفسها:

«لا تاخد الهجّالة ولو يكون خدها مُلعَب، تروح وتغيب وهي ورْكِها يلعب، لا تاخد الهجالة ولو يكون خدها تفاح، تعيش ما تعيش بالك مصيره ما يرتاح، لا تاخد الهجالة ولو كانت عينيها رسوم، تشقى ما تشقى والله يرحم المرحوم، لا تاخد الهجالة ولو كانت بنيت الخال، آخر المتمة عويلة ويا دوب تقول موال».

تقرص وركها وتهز مفاتيحها، يعود الدم لوجهها فتعود لممارسة سلطتها.

لكنها رغم كل ذلك كانت تشعر أحيانًا بغصة، تشعر أنها بلا مستقبل، رمت أحلامها وراءها، تحضن ابنتها مرة وتضربها بلا سبب مرات، لا تستطيع امرأة ببنت أن تجد فرصة للزواج وهي بنت الأكابر، لن يقبل أحد من أهلها أن تكون ضرة لأحد مهما كان قربه.

تحب ابنتها، لكنها تحب الزواج أكثر، والليل غويط على النساء الهجالات، النمش يظهر في أول العمر أو آخره، عندها ظهر في منتصفه، من ينشل فتافيت الزجاج من الدم، لذا في لحظة سرى الخبر سريعًا أنها انتحرت، تكهرب الجميع لكن أبي العارف بالبشر أقسم مغلظًا إن ذلك لم يحدث، بدا رده فظًّا وسط ملامح المأساة، وجدوا بجانبها كسرة خبز عليها سم فئران، وهي ممددة كلبوة جامحة على الأرض، جاء تَمرجي القرية على عجل، حين دخل سن الإبرة في مؤخرتها البيضاء العظيمة صرخت وقامت تجري كبهيمة حَرُون من مكانها.

هدأ الموضوع وأبي يضحك من قلبه.

كان هناك شق يلوح في السماء وقمر مسروق يسرح خلفه.

σ

يحب الرجال سورة يوسف، وتحب النساء سورة مريم، قصة يوسف بها غرام وشبق، ضعف زليخة المحبب والطبيعي وإصرارها في غيّها، عمتي فريال تراه طبيعيًّا، ومن يخالف ذلك فهو مهفوف في عقله، لا يعجبها كيد النساء وهي الكيادة الكبيرة.

يحب الرجال حالة أن تدعوهم امرأة كزُليخة، تتمدد أعناقهم وهم يتابعون تفاصيل الحكاية، كأنهم يتمنون الوصل، ينتظرونه، يتابعون القصة كأنها تحدث الآن، القصة الأشد إثارة التي لا تنتهي ولن تنتهي إلا بانتهاء الحياة، تطير عقولهم من حركة السكين وتقطيع الأيدي، لكنهم يطيرون عاليًا عند: «هيت لك»، تحتك أياديهم بما صادفوه، كأنهم يشعرون أن المرأة أمامهم هم، كأنهم يرونها، وكل واحد يتمنى أن يكون هو البطل والله غفور رحيم.

تحب النساء سورة مريم، أنجبت دون رجل أو زواج معروف، بقدرة الإله، يأخذن المعنى الذي يُناسبهن، يبحثن عن الستر مهما فَجَرْن، يُدارين به على قصص الأطفال الحرام، يُطمئنّ أنفسهن بها: «ما في حاجة تصعب على ربنا، وكل شيء في علم الغيب»، يحبها الرجال أيضًا ولو سرًّا فالعار في وجوههم هم، وكل شيء وارد بأمره، لكنها لا تأخذ منهم طويلًا، الغواية هناك في قصة يوسف وما أدراك ما الغواية.

ستعرفها جيدًا إذا شاركت أو رأيت مرة مشهدًا لتنقية الدودة أو جني القطن، بل ستقبض عليه أو هو من سيقبض عليك، ملاحظ الأنفار في الخلف بعصا خفيفة في يده، بعصا ثقيلة مختبئة في جلبابه، أمامه صف من البنات وقد خفضن ظهورهن، تتقافز أمامه فرقة الشياطين الصباحية وصوت شيخ الجامع يدق في أذنه: «من شر غاسق إذا وقب»، حبات العرق على سيقان الصبايا، الجلابيب مرفوعة قرب المنتصف أسفل الماكينة تمامًا، مشدودة كسياج بين المنطلق والمُكتنز، تصنع حزامًا بين المنطقة المحرمة والمنطقة المحرمة جدًّا، في الحقيقة أمامه حشد من قِباب وعليه أن يكون يوسف دائمًا حتى يمر اليوم بسلام، وإن كان ذلك لم يستطع أن يكبح زكريا الذي وجد قُبَّتي حمدية في نصف وجهه، كذب من قال إن الأكل الحاف يربي

الأكتاف، يربي بل يكنز أشياء أخرى وأخرى، يحاول كثيرًا أن يغير موقعه، يقول بصوت يسمعه وحده: «لا»، لكنها لا تتركه في حاله، تنط باستدارتها، بدورانها وحجمها في وجهه وتتسرب حرارتها إلى دمه ومباشرة إلى سرواله، تحوم في منطقة عينيه، تدور حوله، تلاحقه، العين رسول في الحب وفي القباب، قالها واحد مجرب وانتشرت، لم يكن الأمر سهلًا عليه، فليمر اليوم على خير، يهرش باستمرار، لم يهرش هذه المنطقة من قبل بهذا التوتر والتواتر ولا حكها بالسرعة هذه، فكر ألا يحضرها للعمل في اليوم التالي ليرتاح، يقترب منها، يتجاوزها حتى تكون خلفه، ينهرها أن تعود لقطف لوزة بشكل أفضل: «اللوزة دي يا حمدية»، ثم بصوت لا يسمعه سواها، وبعين غرقت في كنبتها: «دي يا حمدية، قربت أخلف في قلب القطن»، تضحك في عبِّها، نظرة واحدة منها بطرف عين تجعله ينسى يوسف ويعقوب، وترتب نهاية أخرى للحكاية، نهاية غير التي يعرفها الناس، تزوغ من البنات في نهاية اليوم ليتعلم جني القطن منها على أصوله أو جنيه فيها، ليقطف لوزتها في الخص، الشيطان شاطر والخص يحترق، فجأة أصبحت حاملًا، ظهرت سورة يوسف في البداية، كان عليها أن تتأخر في القراءة وأن تتقدم سورة مريم، وأن يتزوجها قبل أن يدخلا في سورة الواقعة ثم القارعة.

تصادف أن أحد المقرئين ينتهي اسمه باسم عائلة في البلد، قرأ مرات في إذاعة الإسكندرية التي كانت مسموعة بقوة عندنا، وعندما أحضروه ليتباهوا به أمام البقية طلبوا منه سورة يوسف، كان صوته وأدؤاه ليس على مستوى المبلغ الذي هبده والذي جمعوه من العائلة كلها، لكن كل ذلك ذاب أمام غرام زُليخة.

في الدار عندنا زليخات ولا يوسف، عمات خرجن مبكرًا من زواج سريع لم يلحقن أو يهنأن بشربة ماء طويلة، كثرت النساء في بيت العائلة، من يعشن فيه ويعتبرنه مطرحهن، ومن خرجن منه خروج الأبطال وعُدن ولايا يعتبرنه ملك آبائهن، به أغراب، نساء أغراب، حمل ثقيل على الجميع، يحسدن المتزوجات في البيت، ويتحرشن بهن على أي شيء ولو على مكان علبة الكمون.

فجأة دخلنا في زمن الهجالات، وطالما هناك هجالة في بيت فالويل له

ولمن فيه، عندنا هجالات من طلاق قريب ما زال ساخنًا وفي البيت القريب مثلهن، ورغم أن الحزن بسبب الطلاق يستوجب الصمت، إلا أن عمتي فريال قررت أن تضرب بالقانون القديم عرض الحائط، لا تستطيع أن تعيش دون رجل، وليس في الكتب المقدسة ما يمنعها حتى وإن وقفت أمامها التقاليد، فلتصنع هي تقاليد جديدة.

قررت أن تحمل صينية الغداء ثم العشاء لإخوتها في العزاء، متعارف عليه كقانون أن الصواني تحملها الصبايا، يخففن بطلّتهن وهمسهن من أثر الحزن رغم أنهن قد ارتدين السواد، يتمايلن بالصينية عند وضعها على الأرض أو على مخدة كبيرة بالعرض، يقوّسن ما استطعن، يرمين ما أنتجته الطبيعة، يصطَدن بالطلة والانحناءة قَلوب العزاب والذي يريد زوجة جديدة، ولن يعدم الأمر أن يقول واحد لجاره في العزاء دون أن يسمعه أحد: «أما عليها حتة صينية»، عمتي الهجالة تصر على الذهاب أيضًا، تبحث لنفسها عن عريس، تبحث بيدها، تعرض وجهها الفاتن وحضورها الأقوى، مشروع شاعرة شعبية ينتظر فرصته، تقول جملة عن الفقيد يتم تداولها في الليلة نفسها على الحنفية العمومية: «بالله يا دود لا تأكل جثته».

صنعت لنفسها مكانًا بين الصبايا، كأنها صبية بجرأة ولسان طويل، تحرس نفسها بلسانها، وتحرث مكانها، ستخرج، ستخرج ولها جمهورها، جمهور ينتظر مديحها، وهكذا.

تعود بعد انتهاء المهمة، ترمي جزمتها على الباب والصينية ما زالت فوق رأسها، تقول جملة واحدة في قلب الدار بصوت عالٍ كأنها تخطب في ميدان عام:

«خلقت النساء للرجال والرجال للنساء».

تقول ذلك بقوة أمامنا، لكن تنشق الأرض وتبلعها لو وصل طرف الكلام لأسماع أعمامي، سوف يربطونها مع البهائم في الزريبة.

تعرضت كثيرًا للتوبيخ، تطيل وقفتها إذا قرأ المقرئ سورة يوسف، لديها مشروع أساسي واحد وحيد: أن تتزوج، لن تقبل أن تعيش هجالة مهما كان، مهما سدد إليها إخوتها نظرات غاضبة، مهما سمعت أو

ضُرِبت، ضربها عمي بهي الدين علقة موت حين خرجت مرة وتآخرت.

تسوّق لنفسها بطريقة مخفية، وتقسم كل يوم إنها لن تكون كوم الدار مهما حدث، من لا تتزوج يعتبرونها حائطًا من الدار كل من يدخل يمسح يده به، لن يكون هذا مصيرها مهما كان، تعمل مكان الجميع، تطبخ وتخبز وتحمم الأطفال وتغني وتعدد، وهذا حظها من الدنيا! لا وألف لا، لم ولن تقبل ولن تذهب لضريح ولي لتستنجد به أو تستجديه، ستأتي بالولي بل به وبضريحه لعندها، تقرأ وتكتب لأنها ابنة أبو عبده وزوجها السابق يفك الخط بالعافية، مرحة بلسان حاضر، لطالما حاول أن يخيفها بعينين بهما حَوَل زائد مسكونتين بالشر واللصوصية الكاذبة، وهي جميلة الوجه والقد، عود مستوٍ، عود لدن بوجه مدهون بالزبدة طوال الوقت، امرأة حية شعنونة تحب الحياة، تزوجت ووقعت قرعتها في ابن عم حرامي، لم يكن عيبًا لكنه لم يكن لصًّا على المستوى المطلوب الذي تستطيع أن تتباهى بلصوصيته التي ترفع من قدر العائلة، بل كان «حرامي عِفش» بتعبيرها الأثير.

خرجت من الطلاق ببنتين لم تكونا بنات الحب ولا الألفة وحلفت أنها لم «تبوسه» مرة خلال ثلاث سنين.

تعرف أن إخوتها لن يبحثوا لها عن عريس مهما حدث، أخذت نصيبها وخلاص، وعليها أن تربي بنتيها وسطهم، لكنهم في وادي التفكير وهي في وسعاية التدبير، ضربت ابن خالتها على ظهره وشدته من شنبه: «مش عيب الشنب ده ومش عارف تجيب عريس لبنت خالتك».

تسمعها عمتي زهرة الكبيرة بهدوء، دون رد فعل، لا يعجبها الأداء، لا تبكي على بختها وحتى إن حدث تبكي في الداخل، قصة الحب التي عاشتها تحميها، وزوجها ابن عمها يهرب من زوجته، يهرب من أبي وأعمامي ويقابلها خلسة عند جارتها، يبكي بين يديها وتحتها، ولولا الخوف لا الحياء لتزوجها ثانية من خلف أبيه وأعمامي، تبكي معه، تبكي لشخصين، تربت على دموعه: «النصيب يا فتحي، النصيب».

تودعه بأربع عيون، وعين خامسة لا يراها أحد، هناك موضوع أصعب

عليها من الطلاق، لا تنجب، ربما هذا ما خفف وقع طلاقها على الآخرين وزاده جواها، معتزة بروحها، لا تنتظر زوجًا ولا غيره، وقعت الغمة في حجرها من ناحيتين، وفريال قررت أن تخوض المعركة، ترفع صوتها كأنما رأت داخلها وتقول: «خدي بختك من حجر أختك».

كأنها شيطان، كأنها ملاك بوجه أحمر طول الليل، لا تعرف أمن حلاوتها أم من صهد الفرن، حبات العرق تنز على خدودها كأنها ترطبها، ومن يرطب نارها في الداخل؟

أكلت أذن أمي وأذن عمتي نميرة زوجة الشيخ حامد شيخ الجامع: قولي لزوجك عن ستر الولايا، كلكم تستحمون وأنا أتحمم على الفاضي، تستحمون بالصابون وأنا أتحمم بالطين.

لا تهدأ، الحرب العالمية الثالثة على الأبواب، ترسلنا برسائل لأمهاتنا بعد أن تعطينا الأرغفة المغطاة بالسمن والسكر: «يمكن يحوَّق في أهاليكم».

وشيخ ضرير يأتي لجدتي صاحبة المزاج العالي، التي تشرب المعسل في بلد يصعب فيه العثورعلى سيجارة فرط، الرجل يحكي قصة الزير سالم وأبو زيد الهلالي، تقف بجانب أمها تسمعه، وعندما يصعد غيظها تقول له آمرة: «اقرأ لنا سورة يوسف».

ذهنها حاضر، لا تغيب عنها الوسيلة، نار الفرن على وجهها كأنها دخلت فيه أو دخل فيها، بعد أن أكلنا الخبز من يدها، أوقفتنا نحن أبناء إخوتها الصبيان في صف واحد، نزعت لنا بناطيلنا جميعًا لمن كان يرتدي بنطلونًا، ربطت حمامة كل واحد فينا بعود قش، وقالت بصوت حنون مكسور: «روحوا لأمهاتكم».

٦

لم تكن حياة عمتي فريال مع عبد القوي ابن عمها الصدر الأعظم أو الحرامي الأعظم هانئة بمليم، صراع بين قوتين، واحدة باطشة وواحدة مقاومة، يخرج دون إنذار في أنصاف الليالي، لا تعرف متى سيعود، يغيب بالأيام، حرامي مناضل دفاعًا عن شنبه وعن شنب العائلة كما يعتقد، وحين يعود تكون ليلة أسود من قرن الخروب، يدخل وقد أخفى وجهه بملفحته السميكة، ملفحة اللصوص الكبار، لونها رصاصي بلون الليل، يزوم كأنه عاد من غزوة الخندق، يتعاركان، في كل مرة يتعاركان، تريد منه أن يترك الكار، أن يتنازل عن بطولاته الوهمية:

«الزير سالم خلف لك طولة العمر، ازرع الفدادين تأكلك الشهد».

يربطها في عمود السرير، ويرزعها العلقة المتينة خلف أختها، ما من مرة أخلف وعده، يسن السكاكين والمقصات ولا دمعة واحدة من عينيها، لا رجفة ولا رجوع، الرجفة تنام في جسدي البنتين النائمتين رعبًا، لا يفكها وينام على صوت شتائمها.

كأنه قانون مشترك بين اللصوص الكبار والجلادين: الانتقام من الضحايا، حين يخيب أملهم في غنيمة أو انتزاع اعترافات الآخرين.

بنتاه تشبهانه في الملامح، لم تأخذا منها شيئًا، كأنها نامت معه فعلًا أو نامت مع شيطان بدلًا منه أو شبيه له.

يعرف أنها أنجبت فقط حتى لا يقال عنها عاقر، أنجبت البنتين وقالت لأختها: «واحدة لي وواحدة لك»، يعرف أنها تعافه رغم أن من المستحيل أن تجهر واحدة، ولم يكن متاحًا أن تعشق أحدًا بدلًا منه، وحتى إن حدث في السر لم يكن ممكنًا الجهر به، ثم إنها رغم العسف حرة بنت أحرار، لن تمد عينها ولن تكشف فخذها ولو كرهته كراهة التحريم.

كان يعتقد أنه الزناتي خليفة في زمانه، وأنه يخرج كل يوم بحثًا عن

دياب ابن غانم القديم والجديد، ولا بد أنها تراه هكذا مهما لطشها أو كان قاسيًا، فالقسوة زيت الحياة عنده وفي المنطقة كلها، هي ماء اللصوص الأفاضل، أولاد الليل، في مرة نادرة سألها: «احلفي عمرك ما حبيتي حد غيري»، ردت بسرعة متناهية: «والله عمري ما حبيتك».

طلقة مباغتة تتبعها أختها: «أنا أنتظر الشتاء حتى تخفي وجهك بالملفحة كي لا أراه».

حين خرجت من عنده، مسحت أيامها معه، بل كوتها بماء نار الكره كأنها لم تكن، لم تكن قادرة على الكره وإن اجترت دائمًا حوادثه مرة بغضب ومرات بضحك، لكن القلب شيّال.

كانت قادرة على التحول وأن تدع الماضي خلفها، رغم أن محيطها في اتجاه واحد، تزوجته بالسيف ولم تستطع أن تفتح فمها، ولم تكن القرعة في صالحها، شعرت بالنمش يسرح على علاقتها به لكن لم تستطع أن تفعل شيئًا، ما يقوله أبوها قانون، قرآن منزل من السماء، ولن يعصى أحد عمامته، لكنها الآن شجاعة أو متبجحة، قُل وقحة بلسان أهل الدار، تنظر لمستقبلها بل تعمل له.

اتخذت قرارًا شجاعًا ولم تقل: «أريد أن تعينوني عليه»، كما قال جمال عبد الناصر في خطاب التنحي: ألا تتزوج أحدًا من البلد إلا إذا كان بقطعتين: قفطان فوق جبة أو واحد من الأفنديّة الذين بدأوا يظهرون في البلد مع صدور قانون الإصلاح الزراعي وإنشاء الجمعيات الزراعية، أصحاب إخوتها والذين تطل عليهم عنوة أثناء الغداء أو شرب الشاي بأي حجة، أو تتزوج واحدًا محترمًا من خارج المنطقة التي عاشت باللصوص حتى جيلها، لم يكن أحد من جيلها يقترف مهنة أفضل من قاطع طريق أو هجام إلا نادرًا.

قررت أن تستعين بالإنتربول الموجود في هذا الوقت، أمسكت ابن خالتها الخفير في نقطة الشرطة البعيدة عن البلد، والذي كان مشروع لص أنقذته الدولة بعمل نقطة شرطة في المنطقة، فحل يسوح ويصيع باسم الحكومة في بلاد المركز، كرشه أمامه ونصف زاده على الأقل ملطوش من زاد الناس، أمسكته من شاربه: «شنب عيرة، الشنب ده

لو على راجل»، أعادت عليه طلبها بنبرة قوية آن يحضر لها عريسًا ولو مقبوضًا عليه، كان شرطها الوحيد ألا يكون لصًّا سابقًا، بل تجرأت وقالت له: «أريد واحدًا أنظف منك».

قبل أن يمضي شدته من أذنه لأسفل، وشوشته بصوت خافت لكنه مسموع: «قل له: عينها حلق وضهرها فلق».

وقد كان.

تقول أمي إنها جلست تنادم الشوق وروحها راعفة بين البيوت، وأحيانًا تقول: إنها تنادي الشوق، لا أعرف هل تخطئ أم تنسى أم تداعب اللغة كيفما أتتها، في نهاية اليوم بعد أن تكون قد انتهت من العجين والخبيز وغداء الأنفار في الغيط والخروج بالصينية إن نفق أحدهم كما تقول تحمم بنتيها، تأخذهما للنوم، تتحمم وتبدأ في الغناء بصوت خفيض أو تنضم إلى أمها لتسمع حكايات الزير سالم وأبو زيد الهلالي، وقبل أن تقوم لغرفتها تردد بيتين سمعتهما في أحد المسلسلات أو من شاعر بائس عابر جلس تحت قدمي أمها: «إن كان العمر فيه مدة، لأشده وأركب حصاني، وأنزل عليهم بشدة، وأقول مين يوقف قصادي».

لم تنتظر ظهور العريس حتى تهيئ نفسها وتجهز حالها، كانت تعلم أن إخوتها لن يوافقوا بسهولة أو بصعوبة على زواجها، لكنها لم تستكن لذلك، بدأت ترتب للزواج كأنه سيقع حتمًا، سرقت كيزان الذرة في موسمها، بل سرقته من قلب الفرن بعد أن وضعوه للشواء، وسرقت قل اختلست الأرز في موسمه، باعته من وراء الجميع واشترت ما يلزمها من جلابيب ولباس داخلي وكحل ولبان دكر وعطر رخيص وفوط وكل ما تحتاجه امرأة هجالة تحب الرجال وتبحث عن عريس.

كانت لأمي أرنبة ولي واحدة، تلدان بشراهة كأنهما تعشقان الخلفة، الأرانب تمرح في قلب الدار، تكاثرت بسرعة مهولة، سرقت ما استطاعت وباعت، يحضر غضب أمي خفيفًا، تتسامح بسرعة، تعرفها وتتعاطف معها في مسعاها، وإن لم يمنعها ذلك من حدة خفيفة

لحظة اكتشاف الجريمة، لا تحكي لأبي لكنه يفهم وحده ويسألها عمن لطش الأرانب تقول جملة واحدة: «أخدتهم اللي إيديها ما تندفنش معاها».

كانت المصيبة حين اختفت الحِلَل النحاس، الشيء الوحيد القيم بعد الذهب إن كان هناك ذهب من أصله، الشيء الفاخرالذي تملكه عروس أو امرأة، لم تفتح أمي فمها بكلمة فالنحاس لا يخصها وحدها رغم أنها من أحضرته في جهازها، فالنحاس على العروس لكنه أصبح في ذمة الزوج وشرف وجوده يعادل شرف العائلة، عشر حلل من الحجم الكبير ومثلها من الحجم الصغير، طشتان كبيران واثنان صغيران وماجور لتسخين مياه الاستحمام، والمهم هو الإبريق، لا أحد يسأل عن قطعة غيره فالقطع الأخرى مجهدة في تنظيفها، هو الواجهة التي تصب فيه العروس الماء لزوجها يغسل يديه بعد الأكل أو يتوضأ والمهم لحماها أو حماتها، وكلما كان يلمع ويبرق فإن ذلك يعني أن العروس نظيفة، ومعظم الخلافات في الزواج كانت على عدد قطع النحاس، ولأن كل فعل يقابله رده فإن ذلك خلق مع الوقت لصوصًا من النوع النتن، يطلق على واحدهم: حرامي النحاس أو حرامي الحلل، لكنها لم تشأ أن تترك لأحد أن يلحقه العار وتولت مقدمًا القيام بذلك ونظفت الدار من نحاس أمي، المعركة القادمة تستحق تجهيز وإعداد الجيوش.

لم يكن غضب أمي يستمر طويلًا، لا تريد أن تزعج أبي من ناحية، كما أنها تكسب كثيرًا من الخياطة، كانت الخيّاطة الأولى في المنطقة، من الفئة العليا، قدمت من خارج القرية من بلدة بعيدة، تعدل وضع نظارتها الطبية التي تتفاخر بأنها أول سيدة لبستها وسط هؤلاء الهمج، تقول عن نفسها إنها غيرت خريطة التفصيل في المنطقة ولبس الجميع من تحت يدها ما لم يعرفوه أو يحلموا به، كُنّ يلبسن قبلها نوعًا واحدًا، جلبابًا بكَلُوش، لكنها صنعت لهن الكرانيش وجلابيب بوسط وأخرى بسُفرة ودلّلتهن، خياطة العرائس، وفي لحظة صفائها خيطت لعمتي الفساتين التي ستتزوج بها عند العريس النائم في علم الغيب والتي اشترت قماشها من محصول ما لطشته، وعمتي تشدد عليها صباح مساء ألا تخبر أحدًا.

سيأتي يوم بعيد على أمي حين دخل التلفزيون بلدنا، تجلس أمام المسلسل، تصدق كل ما به، تصيح في وجه ممثلة: «أنت كاذبة، أنت من دبرت الملعوب، أنت من سرقت من وراء الجميع»، وفي لحظة غير متوقعة تصيح: «أنت سرقت مثل فريال».

ثم تكمل نشيدها وتقول: «بين والبين حي».

وأنا بقلب حنون، يوجعني ذلك، أحاول أن أخفف الموضوع وأن أحيله لمزاح، تقول بحدة: «اسكت، ضميرها وحش، لكنني سامحتها».

وهي هناك في غيّها، وضعت أمامها هدفًا وقررت أن تنفذه بالسيف الماضي كما يقول المغني الشعبي، تعرف ماذا تريد ولن تنتحر ولن تدعيه، حقها من الحياة ويجب أن تحصل عليه، عندما يحكي المغني حكاية عند أمها ولا تعجبها، تقول له: «تعال احكي لك حكايتي، مضرب الأمثال»، وتضحك، وأبي يقول: الذين يضحكون على مآسيهم لا يخافون ولا يخشون، امرأة لا تبكي مهما حدث حتى لو «بكى السهيل والنجمة أم ديل».

مشيئة الرب مع مشيئة العبد، تردد بصوت خفيض حتى لا يسمعها أخوها شيخ الجامع أو ينتقدها أحد، مشت خلف مشيئتها وقد كان، اصطاد لها ابن خالتها الخفير الدولي رجلًا ملء هدومه، تنز الطيبة من وجهه في قدر معاكس تمامًا لما عاشته، سال لعابه عند رؤيتها، لم تأخذه فقط بجمالها بل بفصاحتها وغنجها، لم تترك الموضوع له ولا لأحد، خططت له كيف يتقدم لإخوتها، لم تتحدث معه عن الجحيم الذي عاشته، بل ركلت الفدادين التي كان يمكن أن ترثها من لص متاح للموت بطلقة عابرة، اختارت له شيخ البط الذي كان يمشي صدفة على حائط الدار الخلفي حيث مأوى الحيوانات، ذبحته وأعدت الغداء للعريس، ذكر بط محمر مسروق وفي أفضل التوصيفات تائه، ولم يرف لها جفن حين جاءت بنت الجيران تسأل عن ذكر بط ضائع والعريس يلتهمه.

هي المشرفة على البط والطيور في البيت، الأغرب أن البط يخرج وحده في الصباح يذهب للمصرف ويعود في المساء وحده، في مرات

نادرة لا يعود، تذهب للجيران والأغرب أنها تستطيع أن تعرف بطها من بط غيرها ولا تسمح لأحد أن يقول أمامها: «إن البط تشابه علينا»، ترميهم بجمل من تحت رجليها وتنتقي ما يوجع، لديها ذكر بط ينط على بطات الشارع، كل واحدة تحمل بطتها إليها، يطلع عليها ثم تنسحب، كان الدمرداش ابن عمي الأكبر ابن العشر سنوات يحب بنت جارتنا وهي تأتي كل فترة ببطة تتركها للذكر وتجلس هي معه، تعددت المرات وهرشت عمتي الموضوع، حين أتت البنت اللطيفة ذات مرة نادت عمتي عليه: «قابل البطتين يا دمرداش».

لم تنتظر موافقة إخوتها في داخلها، كانت تعلم أنهم لن يوافقوا، لذا أوعزت للعريس أن يأتي بكل أهله ويذهب بهم إلى عمها جدي الاحتياطي الذي تطلقت من ابنه، فهو الكبير رغم أنهم انفصلوا عنه بالأرض والنوايا، يحاول رأب الصدع حتى لا تفلت الأمور من يده أمام العائلات الأخرى، خاصة أن ابنه تزوج بعد أسبوعين من طلاقها، وما حدث حدث، ولا يجب أن يعادي أبناء أخيه ولا أن يكونوا شوكة في جنبه بعد أن أخذ ما يريد، استولى على كل أرض العائلة ونساؤها يعملن في الأرض دون إرث أو أجرة سوى مأكلهن ومشربهن الرخيص، ويجب أن يحافظ على مقعد الكبير مهما قدم من تنازلات.

قدم العريس ثلاثين جنيهًا زادتها أمي إلى سبعين حتى تبدِو رقبة العريس كبيرة في حجره، وقبِل أبي وأعمامي ولو على مَضَض، فمنهم من تمنى أن تخرج حتى لا يتَمدد نمشها داخل البيت، ومنهم عمي الأصغر الذي كان يكره زواج البنات كأخواله، وعليهن أن يعشن في خرس لا يطلع لهن صوت حتى موعد موتهن.

تم الاتفاق، صممت أن تقوم الزغاريد رغم أنها هجالة، لم تجد أحدًا يزغرد فزغردت هي، مع أنها كانت تعرف أن عاقبة ذلك ستكون علقة موت، دخلت على أمي في غرفتها، أقفلت الباب وراءها، راحت ترقص بلهفة وتغني بصوت خافت: «خدناها بالسيف الماضي، وأخوها ماكانش راضي».

في الليل، حمّمت بناتها، أخذتني لأنام عندها رد جميل لأمي التي ساندتها ولأبي الذي لم يعارض، وكانت كلمة منه كفيلة بإيقاف الركب

الميمون وربما للنحاس الذي جهزت نفسها به.

بطرف عين من تحت البطانية، وهي بقميص خفيف بكامل مشمشها أو بكامل رمانها وبطيخها، تشبك ضفائرها، حين انتهت من الأولى تقول: «قوله يا وله: عينها حلق وضهرها فلق»، ثم حين انتهت من ضفيرتيها رمتهما طويلتين عفيتين مكتنزتين على ظهرها الفلق وراحت تغني:

«أسمر سمير وكل الناس حبوني، بين المزانق وبين النهد حطوني».

٧

منطقة عارية، ترى السماء فيها أكثر مما ترى الأرض، رغم الغيم الكثيف المقيم، لا أحد ينظر أبدًا تحت قدميه، كأن السماء لا تهطل ماءً بل طينًا، شتاء بالطين لنصف السنة، بضعة كباري ولو صغيرة الحجم والاتساع تصل بين القرى أو المغارات التي يعيش فيها الناس، أقيمت فوق المصارف والترع كمعبر من طين إلى روبة، لا يعرف أحد من أقامها بالضبط، ليس محمد علي لأن المنطقة كانت بحيرة بكاملها في وقته، ولا الفرنسيون بالطبع، لم يسفعهم الوقت رغم أنهم نزلوا في مدينة رشيد القريبة نسبيًّا، ليس الملك فؤاد بالطبع فقد كان نطعًا مهمومًا بالخلافة والنساء، ربما فاروق عند البعض، المؤكد أن حكومة الإنكليز كانت رحيمة وهم من فعلوها، الغريب أن الحكومة لم تضع أسماء لهذه الكباري، لكنها كانت على ميعاد مع القدر، الأحداث كانت هي البطل، هي من صبغت الكباري وأعطتها أسماءها.

عند كوبري الظلام أو "كوبري الضلمة" تمترس اللصوص، مكان مرعب لا يغشاه أحد ليلًا، علامة يلتقون عندها أو يستريحون أثناء كفاحهم المضني في السرقة ثم ينطلقون، لا تعرف من الذي وضع خفراء في بقية الأماكن، الأرجح أن الناس من وضعوهم بالمنطق، رعب الخوف أو قوة الترهيب، لكن لا منطق في مكان هكذا، الأقرب إلى الحقيقة أن هناك عاطلين أو مساعدي لصوص اتخذوا من المكان مخبأ للسرقة، مكمنًا معروفًا لهم، العامة غالبًا يقولون: مكمد، كمون ومكيدة، الأغرب أنهم كلهم ماتوا في حوادث لأنهم نشطوا في سرقة العابرين، أوسرقة سائقي السيارات القليلة التي تمر في الصيف، قتلى الصيف كانوا يسمونهم، يحاولون القفز على السيارات من الخلف ليهبشوا ما تيسر فيسقطون تحت العجلات، اثنان استعملا الهوك الممدود بعصا طويلة يلقط الأجولة من أعلى والسيارة عند المنحنى، مالت عليهما السيارة بحمولتها وتركهما السائق تحت الحمولة حتى لفظا أنفاسهما، أحدهم وهو الأشهر اسمه جزر، كان مشهورًا بحبه التعلق على الرفرف الذي بجانب السائق يريد نقودًا، يلهف سجائر بعد النقود، أسقطه السائق الرافض للإتاوة تحت العجلة وربما أسقطه بفعل الهباب الذي يشربه، مات فطيسًا لكنه دخل التاريخ والسيجارة في

فمه وأصبح الكوبري «كوبري جزر»، هنالك من خطف آو عشق واحدة وبنى لها عشة بجوار الكوبرى، قُتلوا وسميت الكباري بأسماء عشيقاتهم وهناك من فطس فوق الكوبري أو بجواره، قتلوا كلهم بفضائح مختلفة، إلا واحدًا نفد من النهاية المحتومة، ليحصل على الحسنين: الموت على سريره وتقام له جنازة.

كانت جنازة رهيبة، مات شيخ البلد، هو في الحقيقة لم يكن شيخ بلد بالمعنى المتعارف عليه، بل واحد من هؤلاء اللصوص العفنين، لكنه كان يتمتع بميزة مختلفة عنهم، كان خباصًا حتى طرف إصبعه، إن لم يجد من يخبص عليه خبص على نفسه، عين المباحث في المنطقة والمباحث بعيدة، عينها الشمال بل عينها الصفراء، يحاول أن يوصل الخبر خلال يومين على الأكثر، ثم يتحول بعد ذلك إلى عين حمراء.

الوصول للمنطقة في شهر الشتاء من المستحيلات الأربعة، مَدعكة بمعنى الكلمة، في الصيف يتحول الطين الذي نشف بعد الشتاء إلى إبر مسننة تنقب عجلات سيارات البوليس إن جرؤت على النزول للمنطقة، صحيح أن الحكومة أراحت نفسها كثيرًا وتركت الجميع يأكل الجميع، مع احتفاظها بدق الخباصين، وبدت المنطقة أمام ضابط المباحث كما بدت غزة أمام إسحق رابين في لحظة واستعمل الاثنان تعبيرًا يكاد يكون متقاربًا: أريد أن أقطعها وأرميها في البحر.

مات شيخ البلد الحرامي الأصيل في الصيف، كان الغريب أن حضرت قوة من المركز لتشييعه، مجموعة من الخفراء بجلابيب مسروقة أو نتيجة الابتزاز على الأرجح يتقدمهم صول بكرش كبير ضيَّق عليه سترته، يبدو أنه جاء للمهمة على عجل فلم يقم بوضع الأزرار النحاسية في عروتها المقابلة بل وضع واحدًا في غير مكانه فظهرت جاكتته طويلة من نصف وقصيرة من النصف الآخر، وربما لم يجرؤ واحد من الخفراء على لفت نظره والأرجح كما قال البعض أنهم اعتقدوا أن الجاكيت يلبس هكذا.

مات وتناقل الناس عنه أنه كان ينقل أخبار المكان واللصوص للمركز، تحميه الحكومة ويتربص به المتربصون، ولأن سنه كان كبيرًا فقد عينوه شيخ بلد اسمًا وليس في الدفاتر، لم يكن يقبض من الحكومة، لكنه

يقبض من الكبار ومن اللصوص الكبار الذين كان يعرفهم بالواحد.

لم تمر الليلة إلا واستعاد الناس حكايته الأثيرة، كان متزوجًا من ثلاثة، مصاهرة الحرامية لبعضهم، ورغم أننا كنا نسمع في الحكايات عن مصاهرة الملوك، إلا أنه يبدو أن لصوص منطقتنا اعتقدوا دائمًا أنهم ملوك المنطقة، وملك في الحكايات ليس بقوة ملك في الواقع، أعجبته امرأة جاره، حبس الأمر في نفسه لكن زوجاته رأينها في عينه، اتسعت من الجوانب بما زاد عن حجمهن، يقف أمام الباب حين خروجها بروث البهائم أو حين تدفع البط للترعة أو عند ذهابها للوسعاية أمام البيت، يعرفها وتعرفه، تسلم عليه وتقبل يده، شيخ بلد حرامي بحاله.

قرر أن يأخذها، هو لا يملك الشرف لكنه يلبس ثلاثة خواتم في يده، كأنه يدلل على كل زوجة بخاتم وربما اقتنصها من سرقات قديمة، وهناك مكان لرابع، قالت له: «تلات خواتم حتة واحدة»، رد: "الرابع لك"، وبصوت تسمعه وحدها: "فيه صباع فارغ".

تملك النساء فراسة معرفة قلب الرجل من نظرة عين طالعة من قلبه، من جملة بطبقة صوت مختلفة، تعرف درجة حرارته بمجرد السلام، وتخمن لمن الخاتم الرابع، حتى لو كانت امرأة تعيش وسط الهيش والروث.

كان لا بد من عمل بطولي أو لصوصي ليغير على مضاربها، فات عليه هذا الأمر من قبل، لو رآها من زمان لشحنها قبل أن يلحقها زوجها.

وهي صمتت تتفرج وتفكر ماذا سيفعل هذا الغضنفر من أجلها؟ ماذا يريد! هل سيشتري لها خاتمًا فعلًا، والحلال في هذه المنطقة حصيرته واسعة والحرام أوسع.

القريب من الحكومة، خاصة مَن بدرجة خبّاص لن يعجز في موضوع بسيط كهذا، ينظر إليها كما ينظر هارون الرشيد لسحابة عابرة، ستمطر عاجلًا أم آجلًا في حجره. حدثت سرقة كبيرة، سرق من سرق مواسير المياه التي أرسلتها الحكومة للحنفيات العمومية، جاءته الفرصة عند رجله، كتب أسماء المشتبه فيهم أمام الخفراء،

وترك السطر الأول فارغًا وفي غفلة منهم وضع اسم زوجها على رأس المتهمين كمتهم أول، والحكاية بسيطة بعد ذلك.

يقول أبي إنه عسكر في المركز يجلس شهرًا ويعود أسبوعًا، حتى عاد بالبشارة، حبس ست سنوات للمحروس، خرج في الصباح كأنه عريس وهي خرجت تنتظره لتسأله بلهفة عن زوجها، بعينين دامعتين عرف وحده درجة ملوحتهما، كانت تربط وسطها لتزيد عرضها من الخلف كأنها تواجه المصيبة بالمصيبة.

كان حائرًا لوهلة عن أي مصيبة يجيب، لكنه قرر أن يقتحم دمعها بجدارة، ولولا الملامة لقال لها أبدلك الله خيرًا من أبي سلمة، وضع خاتمًا رابعًا في إصبعه، تزوجها دون أن يطلقها زوجها، رفع لها قضية طلاق بعد أن رفعها وهي تحته، ولم يعرف أحد هل تطلقت أم لا، كان الواقع أقوى من القانون، القانون يضعه صاحب خواتم أربعة أو تضعه امرأة عشقت أو رضخت لا أحد يعرف.

الأيام كحكايات الليل تمضي بسرعة، في يوم لم تطلع له شمس عاد زوجها، وجدها في وكر الأصابع السمينة، هاج، صرخ وبكى ولم الناس، انتهى رأي الحرامية الكبار إلى نتيجة واحدة، تجاوزوا أنها لم تتطلق رسميًّا وأنه تزوجها عنوة على مذهبه مذهب الشيطان خارج القانون والأعراف.

فلتختَر المرأة من تريد وينتهي الموضوع.

أحضروها في ساحة كأنهم سيرجمونها، لم يسألها وفد في الخفاء أو في غرفة، خيروها في مشهد مهيب: من تختار؟

بهدوء وهي ترفع رأسها مدت يدها خلعت خاتمًا قديمًا ووضعت جديدًا، اختارت صاحب السوابق والخواتم، خلعت عليًّا مرة أخرى ووضعت معاوية.

بدا مشهدًا طبيعيًّا مثلما بدا مشهد زواجه بها وهي على ذمة آخر كأنه العادي.

ناس ذمتهم واسعة آو بلا ذمة من آصله، ربما ليس هذا هو السبب، السبب أن كل شيء هنا متوقع، كأن الناس يحتاجون للدين والقانون وإن لم يجدوهما خلقوا دينًا جديدًا أو طوعوا الموجود على كيفهم، والقانون! ما يفعلونه هو القانون، إنها الغابة والقوي يأكل الضعيف.

في جنازته، كان البعض يعتقد أنه لن يمضي إلى القبر لا لأنه لص ولا لأنه خباص ولا لأنه اغتصب، سرق وحرق، لن تسأله الملائكة عن ذلك، بل سيسألونه عن صاحبة الخاتم الذي تم شبكه في الشال الرمادي الملفوفة به رأس النعش.

تقول الروايات: إن كل الكباري بأسماء خُفراء من النوع الرديء، أو بأسماء عشيقات إلا الكوبري الذي بنى لها عشة بجواره، يقولون: كوبري الرابعة وأحيانًا كوبري المصيبة.

٨

إذا كنت تريد أن تعرف سبب اعتراض أعمامي أو واحد منهم، ذلك الفلاح صاحب الصوت العالي، على زواج عمتي فلن تجد سببًا ظاهرًا، ويمكن لك أن ترد بسهولة على ما يقال، أحيانًا كنت أتخيل أن زيادة عدد النساء في الدار سوف يساعد على توزيع المهام، لم يكن أحد يفكر أن عمتي بابنتيها ثلاثة بطون مفتوحة وتحتاج، الحل بسيط، فليأكل مَن يأكل مِن المتاح، ثم إن الحالة لم تعد ضيقة على الناس كما كانت.

الأمر يستحق التفكير، لكن لم يفكر أحد أن وجود امرأة في منتصف العشرينيات قد يقضّ مضجعه برغباتها، فلتذهب رغبتها إلى الجحيم، الرغبة للرجال، والنساء متاع بل إن المتاع أحيانًا أهم منهن.

قانون، قانون الناس الذين يعتقدون فيه، لا يحكمون به فقط، هو بديهي تمامًا بالنسبة لهم، الرجال ثم الرجال ثم المتاع والنساء، شرعة مكتوبة في النفوس، وستسمع في عزاء امرأة إن أقاموا لها عزاء بسيطًا من أصله، ستسمع من النساء أنها عاشت بالأصول، لم تخرج من الباب من يوم زواجها ولا عتبته مرة حتى خرجت لقبرها.

ربما يقول البعض: أخذت نصيبها من الزواج وانتهى، لا تصلح لأن تكون زوجة ثانية ببنتيها، وعليها أن ترضى وأن تعود لخدمة إخوتها الرجال، نساؤهن مثقلات بالحمل والعيال وشغل الدار، ستسمع عشرة أسباب داست عليها عمتي وحدها وانتصرت، لكن السبب الرئيس لم يكن هذا ولا ذاك، السبب هناك كامن داخل البطون ولا يستطيع أحد أن يفكر مجرد التفكير أن يبوح به: هؤلاء قوم لا يحبون أن يزوجوا بناتهم، الجنس فقط من حق الرجال، هنالك شيء طبيعي لا يعترفون به أو كأنهم لم يسمعوا به، لا يستطيع واحد أن يخطب واحدة من بناتهم ويأتي ليجلس في دارهم مع العروس، بل يأتي سرقة عن طريق النسوان، يدبرن له أن يراها، رأيت بأم عيني عبد العليم الحاصل على شهادة الدبلوم من أول سنة دون رسوب حين خطب وداد بنت عمي، لم يكن مسموحًا له أن يأتي إلا في العيدين وحتى لو كتب كتابه، أظن سمحوا له مرة أن يأتي في شم النسيم في بداية الخطبة، مرة

واحدة فقط، ووداد التي آحبها تصعد على السطح وهو مرابط على سطحهم المقابل متخفيًا، لم يكونا في حاجة إلى عيون تترصدهما، البلد كلها عيون، يختفي كلصّ خلف شباك الغرفة العلوية الوحيدة يشير إليها بيديه، في انتظاره مئة قارئ للإشارات يترصدونه رغم أن قارئ الإشارة لم يكن قد اخترع للصم والبكم بعد، كل من يراهما يقرأ على كيفه.

مصيبة عبد العليم هذا كانت مصيبتين، هو أصغر أولاد أبيه الرجل الحنون، مولود بشلل أطفال، لم تكن اللقاحات قد وصلتنا بعد، وأبوه يناديه يا بياضة ويدلّله: تعال يا أبيض، روح يا أبيض، ولم يجرؤ أحد أن ينطق اسم بياضة أمام أعمامي مرة واحدة ولو مشفوعًا باسم الأستاذ بياضة بل خلع عليه البعض لقبًا ينطق أمامهم بخشية: الشيخ عبد العليم.

هنا البراري، هنا الزوج في مرتبة أعلى من الأب، لو أن ذلك تم في الخفاء فلكل واحد مكانه، لكن اعتبار المرأة متاعًا، وفي مرتبة المطيعة فقط أدى إلى أن يظهر ذلك علانية، لم يصنع حساسية لكنه صنع شيئًا ما يشبه الفُجْرَ في العلاقات، ذكور أجلاف من نبت أرض قاحلة، ربما كان ذلك حال المنطقة كلها وقتها تقريبًا، لكنهم زادوا وفاضوا، اختلف عمي فتحي مع "حماه" -وهو عمه أيضًا- على شيء يخص ابنته ولامه الأخير فيه، فما كان من الزوج إلا أن صاح في الأب: "تحب أنادي لك بنتك ونشوف تختار مين فينا».

كان الرد مؤلمًا لي وأنا طفل، كنت حنونًا بالخلقة لكن ما يحدث أمامي قلب الحنان إلى أسى كبير، راح وجه الرجل وهو ابن عم جدي ينسحب من جسده قبل أن ينسحب هو من المكان مدحورًا يجر بانكسار خزيه وعصاه، كنت أفكر عندما كبرت قليلًا: ماذا لو وافق الرجل؟ لكنه ربما كان أعقل مني وتوقع الرد ولا أقول تجنب المواجهة، جر أذياله ولم يعد حتى مات.

أسرة تكره أن يعتلي أحد بناتها، هذا هو الأرجح، ربما هذا هو السبب، وقد يقول البعض إن السبب الغائب هو قصة الأرض، ألا يذهب ورث البنات لشخص غريب، مهما تزوج منهم فهو غريب، لذا يفضلون زواج

آبناء العم قبل آبناء الخال بمراحل، لكن السبب الحقيقي هناك، لم يكونوا يحبون أن يروا البنات المتزوجات من غرباء، يقولون إن البنت التي تزوجت عليها ألا تعود، عرفت سر جسدها وأسرارًا أخرى، لا يكشّرون في وجوههن حين يعدن، بل يتجاوزوها.

لا تعرف إن كنا مجانين أم متحفظين، ويبدو أن ذلك لا يحدث عندنا فقط، حدث في اللحظة التي أعقبت زواج بنت صدام حسين، كان صدام يدلّل رغدة بنته البكرية وحين خطبت للرجل الذي تآمر عليه من بعد فقتله، أرسلهما إلى الكويت، انتقيا شبكة للعروس بميزانية جمهورية جزر القمر وقتها، فرحة كبيرة بالزواج، في الصباحية كانت وجوه عُدي وقُصي مكفهرة كأنهما هزما في معركة، كأن زوج أختهما اعتلاهما هما، على حين ظهر صدام أقوى منهما بعض الشيء وإن غشاه بعض الأسى، آثار هزيمة داخلية، فيما كان وجه الزوج مفعمًا بالانتصار.

لم يكن ذلك جديدًا فيما يبدو على العائلة، فالأيام تكرر نفسها، لا أستطيع أن أقضي بأن ذلك أحد الجينات، ربما يكون جينًا غير معروف في اللائحة، لكنه بالقطع نمش يسري في دم من يعيشون في المنطقة، صحيح لا يظهر عند تحليل الدم في المعامل، لكنه واضح يستطيع أن يقرأه بسهولة من يعرف قراءة الوجوه، ومن يستطيع أن يتسلل إلى النفوس ليعرف خبيئتها.

نمش لم يكن ابن اللحظة التي ولدت فيها، ولا ابن تلك الفترة فقط، كان واضحًا أنه قديم وأنه يتناسل في حياة الجميع، يسري مسرى الدم، كانت حبال الأسى والغشم طويلة وعتيقة وممتدة حتى جدتي، حين أقول جدتي فهي جدتي لأبي، الجدة من الأم في مرتبة ثانية، حين آتي على ذكرها أقول جدتي فلانة، أقول باسمها، أما الجدة فقط فهي الجدة من جهة الأب.

تلك المرأة الفاتنة بحضورها قبل شكلها، الجدة التي لا تعشق شيئًا غير المعسل والحكايات، ورثتهما عنها بجسارة، تبحث طول الليل وآناء النهار عن واحد يقص عليها حكاية الزير سالم والجازية، تعشق الجازية كأنها هي، صورتها وبطلتها، واحد يقص عليها ماذا حدث لـ»أبو زيد

الهلالي»؟ ترى الألوان كلها تنتقل في وجهها حين يظهر دياب ابن غانم، تحب اليمامة وغاضبة على كُليب لأنه سمح لجَسّاس أن يقتله، تسمي كل واحد تكرهه جساسًا، تمقُت البَسوس وتريد أن تمسكها لتقطِّعَها بأسنانها لأنها أشاعت الفتنة وانتقمت انتقام النساء.

كان يمكن أن يكون اسمي زغلول أو عبد اللطيف لولاها، تجلس كل يوم في الخامسة والربع كصنم حي تستمع لتمثيلية الإذاعة، لا يستطيع أحد أن يحدث صوتًا كأننا في جنازة، تحب الأبطال، تذوب في حكاياتهم، تتماهى معها، حين كان البطل الذي أحبته باسم جديد وقد كان، تم إنقاذي بفضلها من أسماء الأعمام والأقارب، بل أنقذتني من أسماء لصوص العائلة رغم الفخر المجيد بها، وكأنه كان وعدًا أن تختار اسمي وأقصّ عليها الحكايات.

تحب جدتي عبد العليم، ابن ناس، ابن صديق جدي، يأتي لها بقصص مكتوبة، يقرأ عليها بالفصحى ويترجم لها بالعامية لكنها لا تستمتع كثيرًا وإن أخفت، يغيب الوهم من الحكاية، يغيب من صوت الحكاء الذي ينقل فقط، الحكاء غير المغرم بحكايته، وأتولى أنا فيما بعد أن ألفِّق لها الحكاية متناغمة متسلسلة.

يوجعها أن زواج الولد والبنت تأخر، ولا كلمة لها عند عمي الفلاح الذي يملك الحل والعقد في زواج البنات إلا إذا تدخل أبي، وأبي بعيد في المدينة البعيدة بالكاد نراه، عبد العليم صامت مُكفهر حين يرانا وحين نراه، ووداد فرغ قلبها حتى رأيناه في قدمها، فار لبنها حتى رأيناه بقعًا على وجنتيها، تنظر لوجهي وتضحك بأسى: «بقينا في الهوا سوا»، رائحة الشياط تكاد تطلع من ثيابها، أوجعها غياب الوصل، تنام نصف النهار وكل الليل بعد أن كانت نحلة البيت تقضي وتغني، صامتة بل بَكماء لكن جسدها راح ينطق غضبًا نيابة عن لسانها، عن عينيها، عن أنوثتها، تنام بعد الظهر، تنام أغرب نومة تتخيلها، على ظهرها وجهها للسقف، ونصفها السفلي ينام على أحد أجنابه، مؤخرتها التي تشبه المؤخرات في الكتب القديمة بالضبط تواجه من يدخل أو يعبر أمام الباب فيلفحه عِظمها وربما تلسعه سخونتها، باب غرفتها موارب يشغل الخيال أكثر مما لو كان مفتوحًا على آخره، تنام هذه النومة كأنها استسلمت وترمي الآن ورقتها الأخيرة في وجه من يؤخر زواجها.

أكبر مني بسبع سنوات، بنصف عين تمنيت أن تتزوج وتسعد، وبالنصف الآخر تمنيت أن تتعطل لأتزوجها أنا، لحظة شيطان من الفرع الطيب لكنني سرعان ما أغلقت عيْنَيَّ سريعًا.

مع عبد العليم عرفنا شيئًا مختلفًا، هو الوحيد في المنطقة الذي سافر لمصر قبلنا بسنوات، دلوعة أبيه، معه من الأشياء ما يسيل لعابنا، وفي ضربة قاضية لأوهامنا أحضر مجلة الشبكة اللبنانية، مكتظة حتى آخرها بحكايات الممثلات والحب والزواج والطلاق، نميمة وإثارة وصور عارية، اختراع شيطاني، ستفسد أخلاقنا، كنا نمررها لبعضنا كأنها مخدرات، تعود له في النهاية -إن عادت- محملة بنُطف لم يتوقعها، ضبطني عمي وأنا أتصفحها، كان بها قصيدة لشاعر ممحون اسمه ميشال شعيا العلم يقول فيها مع صورة عارية لفاتنة:

وسأنام فوقك حتى صياح الديك..

وستنجبين مني ألف طفل، بل ألف عفريت.

تنططت الشياطين والعفاريت كلها في وجه عمي، تعامل معها بيقين من أمسك بالدليل القاطع على القاتل.

تأخر زواج عبد العليم بسبب الواقعة، وجدتي تستسمحه:

«يا ابني الواد والبت هيتجوزوا على نفسهم، ده جايب الشَّبْكة من زمان».

وعمي الذي لا يحب زواج البنات يرد عليها:

«جايب لها الشَّبْكة ومجلة الشَّبَكة».

٩

كان غريبًا أن يحدث لكنه حدث، جد والدي لأمه يصدر فرمانًا بمنع كل من يركب جملًا من المرور داخل القرية، وعلى الجمالين أن ينتظروا حول حواف القرية حتى تنقل لهم الحمير حمولتهم.

صحيح أن البيوت بطول معقول ولو كانت كلها من الطوب النيئ، لكنها تقصر في الشتاء بفعل انهمار المطر، السقوف مغطاة بالقش الذي لا يصد ولا يرد، ينكمش تحت وطأة السيول ويتدلى منحسرًا حسيرًا من جوانب السقف، لم يكن الطوب الأحمر قد تم معرفته أو استخدامه في المنطقة بعد، أنت في هيش البراري، المنطقة التي اكتشفها لص أعور أو لص بثلاث عيون أو هارب من قدره ولو كان يدرك قيمة الاكتشاف لسماها باسمه، في الغالب كانت الدور من حجرتين، واحدة للزوجين والأطفال الصغار وأخرى للشباب، أما البنات فكن ينمن في الصالة قلقات منتظرات الأوامر التي تصدر من الشوارب بالطبع أو مما تحتها، الجزء الأكبر من الدار مفتوح على السماء والأعين، به غرفة للفرن وغرف للطيور والخزين، واطئة كلها محاطة بسور طيني واطئ بالطبع عنها، يكشف ستر النساء لمن يمرون حوله، ويعوق حركتهم ولا تسمع طول النهار سوى شقهات، حقيقية فعلًا أو أخرى معجونة بالطبع بمكر النساء.

أصدر أوامره وانتهى، ثم أطلق واحدًا آخر ناعمًا بعض الشيء مملوءًا بالوعد والطمأنينة لابن أخيه، الغني اليتيم:

“عروستك عندي”.

جملة سحرية، واخطب لبنتك ولا تخطب لابنك، لم يكن مسموحًا لأحد أن يشير على واحدة، فالزواج نسب والاختيار اختبار، بين من أصلهم لصوص أو هاربون وبين من جاؤوا واستوطنوا، زرعوا وعفُّوا وصاروا ناسًا كمَّلًا، الزواج يتم للقرب من هدف ما: أرض أو أموال أو عدد وفير من الرجال يساعدون في استصلاح الأرض والوقوف عزوة خلف بعضهم في المعارك اليومية بالعصي والفؤوس.

في هذا الجو البديع نشأت جدتي، بآب يملك عصا إصدار الأوامر وسط أربعة عشر أخًا طول الواحد منهم كالنخلة مثل أبيهم، غير الذين ماتوا بالأسكارس والأنكلستوما والحصبة والغرق، سبع أخوات بنات، ستنتظر عريسًا يأتي به أبوها حسب مزاجه أو حسب الأقدار، وقعت قرعتها في ابن عمها، يقع في منطقة بعيدة عن قريتها، ساعة بالمشي بحذاء وساعة ونصف دون حذاء، كان أبوه قد خطب له عروسًا وهو في عمر الخامسة والعروس بنت سنتين، أشار لأبيها وهي في حضنه: "بنتك لابني"، مات أبوه فانحل الاتفاق وزوجوها لواحد آخر، فما كان من والد جدتي إلا أن ربت على قلبه المجروح بعد كرامته وأهدى له الجملة السحرية: "عروستك عندي".

حين جاء عدلها رحلت، تزوجت وسط عائلة زعلوك في قرية كاملة باسمهم، أناس على صورة قريبة من الإنسان الأول في أحجامهم، بشرة بيضاء غالبًا بحمرة زائدة، لا تعرف هل هم من بقايا المماليك أو من هجين دم إنكليزي أو فرنسي، الأخير يرجح في الحكايات إذ إنهم هربوا من الثغر الذي حطت به حملة فرنسية، لكن الأكتاف العريضة والعظام النافرة تشي بسلالة أخرى، لم يكن هذا ما يراه الناس فيهم بل ما يرونه هم في ذواتهم، ينظرون إلى أنفسهم كجنس مختلف أعلى من غيرهم، مكسب كبير لك لو ناسبتهم أو جلست معهم، حطت غلظة الأرض وصعوبتها على الناس وحطوا هم بغلظتهم عليها، ريحهم ثقيل، عددهم كبير يتناسلون في ضوء النهار تحت الشمس العارية، استصلحوا مساحة كبيرة من الأرض لكنهم أنفقوا نصفها دون مبالغة على السفر للبندر البعيد وعلى الأكل قبله، يأكل الواحد منهم ذكرًا من الإوز وزنه ستة كيلوجرامات ولا يتكرع، الأكل ليس شهوة بل قضية، يقابل الواحد منهم واحدًا في الشارع يرمي نفسه عليه ببرود، يقول له ببساطة ونطاعة: "غدايا عندكم النهارده، وبط، بلاش شغل الفراخ».

من يزوج ابنه مشكلته ليست في أثاث البيت أو المهر أو شبكة العروس، مشكلته في عدد كيلوات اللحم التي يلتهمونها، لا يقول لهم أحد حين يدعوهم للحظة الأكل: "تفضلوا"، بل ينادي فيهم بصوت حربي: «اهجموا».

أصواتهم عالية كأنهم يشيرون لمقامهم في البريَّة، لكنهم لم يخلوا من اللطف بشكل عام، لا يعطون لامرأة نصيبها في الميراث، عُرف عام لا يضيرهم، تناسوا واحدة عند توزيع الأنصبة وعندما حضرت لتشتكي ردّوا عليها بأنها لم تكن موجودة لحظة تقسيم الأنصبة، واحد ذهب ليأخذ ميراث أمه في أبيها ردوه بلطف: «هو مش كفاية إن احنا أخوالك»!

نشف ماء الحياء من وجوههم، اعتبروا ذلك ميزة على العالمين، تقول لواحد منهم: مبروك على شيء داخوا عليه، يرد عليك بكل صلافة: بارك لنفسك، وربما كانوا هم منشأ الكلاحة الأول ومنبعها، أدب شحيح أو خشونة فظة من الفرز الأول، وإن لم يعدم الأمر وجود قلة صالحة يوازنون الكفة لتنضبط الحياة، اللوحة ليست كلها سوداء حتى حوافها، وربما من حسن الحظ أنهم كانوا قلة نافذة بالأمر والأموال وبعض الجاه.

في الحقيقة كان الجميع مأزقًا، كلٌّ يبحث عما يفتقده، هم يعرفون أنهم أبناء لصوص أو أبناء ناس هاربين وقعوا في منطقة اللصوص الوعرة وكان عليهم أن يتحلوا بأخلاقهم كي يستطيعوا أن يعيشوا معهم، لكنهم مع الوقت وهم يبحثون عن الخيط الناقص ظنوا أن التاريخ بذاكرة نسائية أو هم من يصنعونه فادعوا الأصالة على أعينهم ثم سحبوها وأسندوا ظهورهم إليها، وصاروا كبارًا أبناء ناس.

عاشوا بالعافية حتى وجدوا موطأ قدم، وحين أكلوا وشربوا واستراحوا راحوا يجترون قصصهم كأنهم أبطال انتصروا على الحكومة والطبيعة ثم استمروا بالوهم.

عاش لجدتي ابن واحد منهم بعد بطنين أخذهما الموت، عاشت هانئة مع ابن عمها، لا يكدر صفوها شيء رغم أنه محاصر حرفيًّا بخمس بنات، أخواته، يدلّلْنه ويمسحْنَ عنه ما اعتبرنَهُ نكبة بزواج المنذورة له من الصغر.

لأربع سنوات لا ينادونه باسمه، بل العريس، وينادون جدتي بالعروسة، كان اسم جدتي معروفًا لكن لم يذكره أحد، أربع سنوات فقط ثم

خطفه الموت، ابنها ابن ستة آشهر وحولها خمس نساء ثكالى ظللن يلطمن على أخيهن أربعين يومًا كاملة، ولم تعد واحدة منهن لبيتها قبل عام.

في هذا العام رُحن يحاصرْنها، يحسِبْن عليها النظرة واللُّقمة، هل سألت عن طبيخ ما، هل هَفت نفسها لشيء؟ أرَيْنَها الويل والنجمة أم ذيل، يتتبّعن خطاها، فلان كان نفسه فيها ويمر في الأسبوع مرة أمام البيت، فلان كان موعودًا بها وسيأخذها بابنها، في المصائب تكثر التفانين وتلعب الشياطين: تتحمم قبل مرور شهر على نومة المرحوم، تلبس قميصًا أبيض تحت الجلباب الأسود، تأكل ديوك الدجاج وهذا محرم على أرملة ولا يجوز قبل عامين.

لا تستغرب من ذلك، لم يفعلن ذلك ساعتها فقط، بل دون أن يعرف أحد كُنّ يراقبْنها وزوجها على قيد الحياة، هل تتحمّم كل يوم؟ يراقبنها بشدة، يتعمَّدن أن يُحدِثن جلبة حول غرفتها حين يدخل زوجها، يُسْرِرن لأصدقائه أن يأتوا في الليل ليسامروه حتى تنام هي، يحْكِين بصوتٍ عالٍ تحت شباك غرفة نومها كي تخجل أن يسمعها أحد، وفي النهار يوعِزن إليها أن المرأة التي تنام مع زوجها كل يوم لا تنجب سوى مرة واحدة، أو ستنجب بناتًا فقط في المرات القادمة لأنها تشفط كل نخاعه وحليبه، في الحقيقة يبدو أنهن كُنّ خائفات، كُن يعتقدْن أن كثرة المواقعة ستقصف عمر أخيهن، سيتعب من كثرة القفز وسيموت مبكرًا مثل أبيهم، لذا حمَّلْنَها وِزر موته حين مات.

ربما كنَّ معذورات، مات أبوهن صغيرًا فتوسَّمْن أن يعِشْن في كنف أخيهن، لكن الموت لاحقهن، وذهب الأخ حتى قبل أن يُكمل عمر الأب، نذير شؤم هي، قدمها قدم الغبرة رغم أنها ابنة عمهن، الريانة بأربع عيون وأربعة حواجب، لذا ضيَّقن عليها، وخمس نساء يدفعهن القدر على امرأة هجالة قسمة غير عادلة، يحاصرنها داخل البيت مثل فأر وحيد حوله خمس قطط جوعى، أخذن ملابسها الملونة وحرقْنَها.

دائرة من أورطة نساء ملتاعات، قيل إنها تعبت وإن أباها حضر وشحنها معه لداره.

في لحظة صفا كانت تحكي لأمي آنها انتظرت منتصف الليل في عز عز الشتاء حيث لا يجرؤ على الخروج سوى العفاريت الحمراء، أو العفريت صاحب الأذن الواحدة، لفعت ابنها النائم على كتفها وهربت لبيت أبيها، كان الطريق طويلًا عليها لكنه أقصر من مأساتها.

تقول أمي إن جدتي تعرف أنها مُراقَبة رقابة المَلكين، مُراقبة من خمسة شياطين من صنف الحريم الواعر الموجوع، هَدْهدت ابنها حتى نام، وضعته في الحلّة، رفعتها على رأسها، أحكمت غطاءها بما يسمح له بالتنفس فقط، تخطو بذعر بين نارين، نار مراقبتهن ونار خوفها من أن يفطس الولد أو يستيقظ أو يعطس فتستيقظ المصائب الخمس على رأسها.

لم يكن جدي مزواجًا، كان وسيمًا بهي الطلعة، نظيف الهدمة، أبو عبده على سِن ورمح، في كل جيل خمسة رجال تطأطئ لهم العين وتخجل من أدبهم، كان على رأسهم، كان ابن غيبة، غاب عن البلد طويلًا، درس في التعليم الأزهري في المدينة البعيدة حتى وصل للسنة الأخيرة من الثانوية، لكنه عاد في اللحظة التي غادر فيها أبوه الدنيا الفانية كما يقولون.

كان متزوجًا من ابنة عمه مفرطة الطيبة التي تساويه في العمر والتي تحمل على رأسها صهبة الشعر الأحمر من النوع الفاخر، لكنها قليلة الحيلة أمام غول مؤدب كجدي، الذي يبحث كغيره عن امرأة أخرى، لا يريد حريم فرشة لكنها الغواية والرياضة الوحيدة التي يفكر الكل فيها، بالقفز على عدة نساء، وربما كان الطبيعي أن يتزوج اثنتين، إذ لا موضوع أمام هؤلاء يسحبهم بالأمل إلى عالم آخر سوى الدعوة إلى الزواج، ليس أمام الكبار سوى النكاح والخلفة وإلا ماذا يفعلون بالوقت.

على حسب الروايات المبتورة فإن زوجته توقفت عن الخلفة، وربما سيق هذا الكلام تبريرًا مقبولًا.

يسهر الكبار في مندرة أحدهم، الشاي على موقد النار، الخشب مشتعل للدفء، أكياس اللب والسوداني من جيب جدي، وجبن قديم مع مخلل نام في فخارة لمدة عام على الأقل، الجو بدأ يصهد، وجاءت

سيرة جدتي بصوت خفيض على استحياء، لم يكن آبوها يعلم آن أبناءه مثل سلسالهم القديم يكرهون زواج البنات حتى لا يعتليهن أحد، ثم إنه صاحب الكلمة النافذة، لديه بنت أرملة في أول صباها معها صبي تحتاج لمن يرعاها ويساعدها في تربيته.

حين ذاق أول رشفة من الشاي، التفت ناحية جدي وقال: يعمر بيتك يا أبو عبده، عروستك عندي.

تزوجها، ستسكن في غرفتين أعلى داره يسمونهما: المقاعد، إلى أن يبني لها دارًا، لكن أخاها الذي يكره أن تقعد أخته تحت رجل، أي رجل، حرق المقاعد بالعفش الجديد.

كان نور النار يلمع على وجهها، جميلة وبنت أكابر، وعروسة مرتين في وقت قليل، اختفى اسمها تحت زواجين قريبين، العروس راحت، العروس جاءت، فصار اسمها عروسة، جدتي عروسة.

فيما بعد ظهر الملعوب، الأخ الذي كان يقف ضد زواجها كان قد وعد بها رجلًا طيبًا يحب النساء، يقدم له كل ليلة دخانه، علبة دخان كاملة في اليوم رشوة طيبة للنسيب القادم، والأخير حين يمسك ورقة الدخان في يده يقول له بقلب ظامئ للسيجارة:

«عروستك عندي».

في الليلة الأولى التي باتت فيها جدتي في بيت جدي الاحتياطي، شيخ المنصر العظيم، شعرت بالنحس يطاردها رغم أن البيوت واحدة، استعاذت من الأذى وربطت على قلبها وقررت أن تعيش سعيدة بضميرها الأبيض رغم السواد الذي حف بها، وحين قام زوجها لصلاة الفجر بعد أن أدى واجبه، قالت: جئت من عند كريم لأكرم الناس، ادع للمرحوم زوجي القديم في صلاتك.

وقف الرجل غير مبهوت، قلبه يسع ذلك، بل أحب منها هذا، رقيق القلب والحاشية، كانت تسمعه وهو يدعو له وفي نهاية السجود قال: اللهم لا تجعل ذريتي لصوصًا مثل أجدادهم.

١٠

ضحكت الدنيا في وجه عروسة، تزوجت كبير عائلة، مؤدب نظيف في مكان قد تصبح فيه زوجة ثانية بسهولة، زواجًا عرفيًّا، الأغلب زوجة في السر، قسط التعليم الذي حصل عليه زوجها جعل تفكيره مختلفًا، كلمته مسموعة يقولها بصوت حاسم خفيض، لكن الأهم أنه كان سعيدًا بها، سعيدًا معها، امرأة رائقة جميلة تحب المواويل وتنصت لتمثيليات الإذاعة، تتحمم كل يوم، جلبابها نظيف، كأنها امرأة بلا هموم ولا أطفال والأهم أنها طباخة ماهرة، تصنع من الأصناف ما لم يعرفوه من قبل.

كانت أمها من بلد بعيد متاخم للبندر، وعندما جاء بها أبوها لم يكن أحد في المنطقة يعرف شيئًا عن الطبخ، طبخ بدائي يشبه الطبخ الذي حصل في أول الخليقة، أي شيء يوضع في ماء، لحمًا كان أم فاصوليا مع بعض الملح وليأكل الطعام بعضه على النار، أكل بسيط ليس خاليًا من المحبة لكنه خالٍ من الشوق والمعرفة، حتى جاءت أمها، علمتهم كيف ينقعون الفاصوليا قبلها بليلة بدل أن يتركوها لتستوي على النار ثلاثة أيام ولا تطيب، لم يطبخ أحد قبلها شيئًا بالطماطم، لم يروه وإن رأوه لم يعرفوه، علمتهم كيف يصنعون الصلصة، صلصة عين الديك، تلك التي ترى فيها عصير الطماطم نائمًا تحت طبقة السمن البلدي، تشبه عين الديك اللامعة، كانوا يطبخون البامية على نفس الطريقة التي ما زالت بها حتى الآن في الصعيد، بامية ويكا بالثوم، علمتهم متى يضعون الثوم، والأهم دلّتهم على قيمة الفخار، يملكون الطين ولا يعرفون سره، سر أمومة وفتنة الأكل فيه، صاروا يعرفون الطواجن لأول مرة في حياتهم، غرام الطواجن بما تضمه، ويعرفون أن هناك شيئًا لذيذًا ممتعًا اسمه: الطعام، وعلمتهم في النهاية اللحظة التي يجب أن يضعوا الملح فيها حتى يصير الطعام طعامًا.

عاشت جدتي سعيدة، فرضت إيقاعها أو قبل به رجل فرحان بها، مبسوط لأنها في حياته، لا تعيش في خدر، لكنها تعيش على مزاجها، تطبخ وتنتظر المواويل والأغاني في الراديو الذي كان أهم قطعة في جهازها، كان كبيرًا بشكل غير متخيل حتى إنها مع تقدم صناعة الراديوهات حولته لترابيزة، قطعة فنية في غرفتها، تحكي

وهي تضحك كيف استغرب الناس هذا الجهاز، ومن أين تصدر الأصوات؟ البعض اعتقد أنها عفاريت، مع الوقت راحوا يتخيلون المذيعين جالسين داخله لدرجة أن إحدى النسوة تساءلت بفم مفتوح عما يأكل هؤلاء الذين يجلسون في الداخل، بل أعدت لهم صينية لغدائهم بعد أن قضوا الوقت من الصباح حتى الظهيرة يتكلمون ويثرثرون دون تناول الإفطار.

تدللت عروسة في زواج جديد ومدت ساقيها، لكنها تكدرت فجأة وانقلب الهناء، لم يتركها أهل زوجها المتوفى في حالها، ابنهم عندها، هو ابن القبيلة لا ابنها، والوريث الموعود الذي قد يقضى على لعنة الموت المبكر، يريدون رؤيته، على الأقل رجل مكان رجل، رائحة المرحوم، ومن العيب بل من المهانة أن يأتوا ليروه في بيتها وهي عروسة بعد أن تزوجت، فضيحة، لم يتخيلوا لحظة بل وقر عندهم من تحصيل الحاصل أنها ستجلس عشرين عامًا على الأقل دون زواج حتى تنقضي فترة الحزن، أو لن تتزوج على الإطلاق، كانت تحت خاقان البراري وزينة الشباب وهذا يكفيها شرفًا من الدنيا التي مالت حوائطها عليهن بالموت المبكر للأب والأخ الذي حل مكانه، والذي لم ينتظر حتى يسخن مقعده في الدنيا، أرسلن واحدة منهن تحبها جدتي، وربما كانت الوحيدة التي تأنس لها، استأذنتها أن تأخذ الولد ليراه أهله على وعد بأن تعيده بعد يومين فقط، رقّ قلبها فأعطته لها لكنه لم يعد، كنبة الوريث باردة تحتاج صبيًّا يلعب حولها حتى يكبر ويمسح المأساة.

السيدة التي كانت تضحك طول النهار والتي كانت أول امرأة تشرب المعسل في جوزة أحضرها جدي خصيصًا لها، انكسف لونها وغاب وجهها بغياب ابنها وأصبحت ضحكاتها ذكرى للجميع، والمصيبة أن صدرها انتفخ بفعل انحباس اللبن داخله حتى كاد أن ينفجر، جلست كصنم، هي والكنبة قطعة واحدة، حولها نسوة يُحَنِّن ثدييها كأنهن يحنِّن ضِرع بقرة لتصفية اللبن أولًا بأول.

لا أحد ينسى ضناه، لكن العرف العام كان ضدها، هو هناك حيث يجب أن يكون، يرعى إرثه وذكرى الغائبين، ويمسح بجسده بينهن آثار أقدام الموت، وجوده ضرورة للحياة، أنجبت بعده أعمامي الآخرين، في كل

سنتين رجلًا، راحت تنسى ثم جلست أمام أصحاب المواويل وأصحاب الربابة العابرين وتمثيليات الإذاعة تكنس لوعة الغياب وتختبئ في كل ذلك.

تخطت الأزمة سريعًا، امرأة تفكر في الحياة أكثر مما تفكر بالموت أو الغياب، لا يستطيع أحد أن ينتزعها من أمام حكاية تروى أمامها ولو اشتعلت النار في الشارع كله.

مرض أحد أطفالها، الأرجح أنه أصيب بالتيفود، لهم جار طويل عريض من بقية العماليق، بجسد كبير عن العامة، لو ضربت على يده ستصرخ أنت من قوة عظامه، كان حكيم زمانه، نصحهم أن يمنعوه عن الأكل، في الأيام الأولى تحسنت صحته بفعل الصيام الذي قاوم التيفود دون أن يعرفوا، لكنهم تمادوا في الأمر، منعوا عنه الزاد تمامًا، فهموا النصيحة على وجه خاطئ وبدأت صحة الطفل تتداعي حتى مات.

لم أرَ أبي يبكي يومًا إلا على مسكين مات دون أن ينجده، لم يبكِ إلا على واحد محترم كان يجعل الدنيا أفضل، لم يبكِ ويُنهنه كالأطفال إلا لحظة موت عبد الناصر، لكن دموعًا صامتة مالحة كانت تجري حين تأتي سيرة هذا الأخ، أبي اسمه النادي على اسم والد أمه، وأخوه يحبه ويستعطفه وهو الميت من الجوع ويقول له: لقمة يا نادي، لقمة واحدة، هموت.

لم يعطه أبي لكنه بكى عليه بما يكفي لزراعة قيراط قمح.

تأكدت جدتي من موت ابنها، أغمضت عينيه، وسكرت عليه باب الغرفة، وراءها ما هو أهم من الموت طالما حدث.

كانت فرقة السماحي الموسيقية تجوب القرية وتستقر في النهاية عند وسعاية قريبة تعزف لما بعد منتصف الليل، خرجت وراءها، استمتعت بالموسيقى والأغاني، بل جلست على كرسي في قلب الوسعاية وأرسلت من أحضر جوزتها ودخنت المعسل، وحين عادت بعد أن امتلأت بالأغاني والسهر غسلت جسد ابنها ثم دفعته مع زوجها وبقية الرجال ليدفنوه في عز الليل، فيما كانت موسيقى خافتة

لفرقة السماحي العائدة لموطنها سيرًا على الأقدام والنغمات تتسرب حتى المقابر.

١ ١

جدتي، المرأة التي تركت ابنها قبل أن تبرد جثته، قبل أن يزحف الأزرق إلى جسده ويستقر في ظهره، وخرجت لتشاهد فرقة الموسيقى وتدخن المعسل ليست بلا قلب، الأرجح أنها تعاملت مع الموت كمزحة عابرة في منطقة تعتبره أمرًا معتادًا أو بسيطًا، كأنها لا تريد أن تصدقه أو تعطيه أذنها أو قلبها، لكن الأهم أنها ربما تتعامل مع الحياة نفسها كنُكتة عابرة يتخللها بعض الغناء.

تغرف بل تعبُّ من الحياة كأنها ستفر منها قبل أن تقبض على كل لحظة فيها، أو ستنتهي سريعًا، منحة تستحق أن تقدرها قدرها.

لم تخطئ مرة وتنادي على ابنها الراحل، رغم أن إخوته يخطئون، تتعامل مع الأمر كأنه في مشوار قريب وسيعود، أو كما قالت لي ذات مرة إنها وضعته في قلبها، أقفلت عليه بالداخل وسكتت.

أحيانًا أتساءل: هل كانت تهرب، هل تضحك على نفسها، هل كانت غير قادرة على مواجهة الموت فهربت للحياة؟

كل ما فعلته أنها انقطعت لفترة عن الطبيخ كأنها تعاقب نفسها بعد أن مات ابنها من الجوع، وربما حتى لا تتذكره بالرائحة.

لم تكن وحدها، هي تعيش في منطقة مسكونة بالعويل كأنه فرض، ولو بالعويل الصامت، القتلى يهبطون في أي وقت، والميتون أكثر من الذين يعيشون، لولا أن كل واحد يتزوج واحدة في العلن وخمسة في السر وينجبون أولادًا يعادلون بهم مخلب عزرائيل.

نسوة تعودن على غياب الرجال في الماضي، وصاحبوا الموت كرفيق أو أنيس حاضر: الله يرحمه، والسلام.

في مرة نادرة أسرَّت لي حين سألتها عن القوة التي واتتها لتحضر فرحًا وأصابع عزرائيل على جسد ابنها قالت: كان فرح ابن صديق حميم لجدك، ولا يمكن أن أكسر فرحة الناس.

كان لا بد من شيء.

كان لا بد من الغناء، الغناء في مواجهة الموت، منطقة بائسة شرقانة للونس ولو بغناء مشحون بالشجن، بالنداء، بصوت قصير في البداية كأنها طبقة خائفة، وطبقة طويلة في الثانية كأنها التحفت بالخوف، لكن جدتي فكرت خارج الصندوق، أول من ابتدعت الحلول خارجه، كأنها تريد الغناء للحياة، تنتظر مغنيًا طريدًا يأتي للمنطقة خوفًا أو طمعًا، تستضيفه لشهر أو اثنين في بيتها ليغني لها في الصباح، ويقص عليها الحكايات في أول الليل، وعندما تنتهي من صلاة الفجر تسألنا عما حكى الراوي، كنا قد تسحّبنا من غرف أهلينا لنلتحق بلحافها وحكيها الدافئ، وأنا صغير، أنا الأصغر، أولاد وبنات عمي الأكبر مني يعيدون ما سمعوه، يكملونه بعضهم لبعض، لا يتبق لي شيء من الحكاية، هنا أروح أحكي ما تخيلت أن الرواي قد نسيه أو ما كان يجب أن يقوله، نسي أو أخذته الحكاية، تصفن جدتي للحظات وتقول لي بحدة: «أنت كذاب».

لا تتعب من الغناء ولا المغنين ولا تمل، ترسلنا واحدًا تلو الآخر عند كوبري القرية حيث يحطون، نعود لها بسرعة بالأخبار، مع الوقت تعودنا أن نسحب واحدهم من ذيله لعندها.

هائمة تبدو، تستمتع بالمغني الضرير، بعصا يتكئ عليها في ثلثها الأعلى، في متناول يده، في وسطها قطعة عريضة من النيكل يدق عليها بسبحته، نغمة خاصة برنة محببة، ثم يسترسل في الغناء والحكايات.

يغيب المغني، فلا تجد أحدًا سواي، استسلمت وهي تخفي ابتسامتها، لم تعد الحكاية الحقيقية تهمها، شيئًا فشيئًا صارت حكايتي هي الحقيقة نفسها.

استسلمت، كان عليّ تأليف الحكايات حتى يمر مغنٍّ آخر، استسلمت ثم غنت معي، صوتي جميل، أقرب للمؤدين من المغنين وذاكرتي حاضرة..

قلت لها ذات مرة إن الناس يتناقلون القصص من فمك، يصدقونها بما

يصنعه لسانك مهما كانت حقيقتها، لماذا لا نجعل آبو زيد الهلالي حنطي البشرة، الناس هنا لا يحترمون السود، قالت وماذا نفعل في الحكاية الأصلية؟ لقد وقع الغراب الأسود في قرعة أمه وهي تتوحم عليه، قلت لنجعل الغراب رماديًّا حتى نخفف لون بشرة أبو زيد، صمتت قليلًا ثم قالت لا بأس هذا كذب جميل أيها الكذاب الكبير، النمش الذي على وجهك علامات الكذب.

فجأة، سقطت مريضة، قطعت الكلام مرة واحدة، بعيون ثابته للأمام، تشير بإصبع واحد لا تعرف لمن ولا إلى أين، لم تنفع معها كل الفتاوى ولا حتى إحضار طبيب من المركز، لم يعرف أحد مرضها، أصيبت بجلطة في الدماغ ولا أحد يدري، وأبي وأعمامي على قدم واحدة، في لحظة يبدو أنهم تعبوا فخرجوا، اللحظة الوحيدة التي راق وجهها فيها، كنا حولها أحفادها الذين يحبون القصص معها، اللحظات الوحيدة التي توقفت فيها عن الإشارة.

اقترح ابن عمي أن تشرب حجرين من المعسل، فلا بد أنها تشعر بالصداع من غيابه، اقترحت أنا أن نحضر لها مغنيًا، أكلنا علقة لم يأكلها حرامي في مولد.

يبدو أننا كنا على حق، توقف المغني تحت شباكها، بدأ في الغناء كعادته حتى تسمعه فتنادي عليه كعادتها، تجمع معه آخرون لم يكونوا قد علموا بمرضها، فتحت عينيها، كأنها ابتسمت، حاولت القيام مرة واحدة، اندفعت كأنها ستطير، طارت وسقطت من سريرها وراحت للأبد.

صلى عليها رئيس البرلمان وقتها بحاشيته، صديق أبي، بل خطب الجمعة تكريمًا له وسط الناس، وانشغل الناس به في الجنازة أكثر من الفقيدة، لكن نعشها كان محاطًا بالربابات وأصحاب الزمامير، كان عددها لافتًا وسط المشيعين.

قالت أمي إنها صحت بعد منتصف الليل ليلة موتها، شاهدت كوكبًا في السماء تركب فوقه جدتي وحولها فرقة موسيقية كاملة تعزف، تدق وتدور حولها.

١٢

غابت عروسة، لكن غائبًا حضر، ابن أختها، أي أخت؟ لا تسأل فالعدد في الليمون، غاب لمدة عشرين عامًا، اختفى قبل اختفاء الملك فاروق بسنوات وعاد في عهد عبد الناصر قبل أن تختفي هي متشائمة من ظهور السادات.

الشيخ أحمد، اسمه منذ نعومته، راح في المدينة البعيدة، يحتاج السفر إليها نصف يوم على الأرجح رغم أن المسافة لا تزيد على ثلاثين كيلو، يحتاج لحمارة تصل به إلى بلدة برية لاصيفر، والتي يقال إن الفرنسيين هم من صكوا اسمها، بلاد الفضة في الترجمة، أرض مطروحة بالماء والعشب تلمع تحت ضوء القمر، ينتظر حتى تمر به عربة كارو يجرها حمار، ولو تحسن حظه يجرها بَغْل، ينتظر أحيانًا بالساعات مع أن المسافة ثلاثة كيلومترات بالكاد، يهبط في سد خميس، بلد بغير سكان، يسكنها العابرون والصنايعية لأن طريق الأسفلت يشقها، بعد ذلك ينتظر لساعات حتى تمر حافلة الحكومة وإن ضحك له الحظ يجد مقعدًا في العربة الوحيدة التي يملكها ويقودها شخص بارع متودك في شرب الحشيش.

كانت العادة أن يقضوا سنين قليلة في المعهد الأزهري حتى الابتدائية، ومن يحصل على الابتدائية القديمة فقد باضت له على الوتد، لا طاقة ولا فلوس لأكثر من ذلك، الأرض كبيرة لا تجد من يزرعها وحتى لا يضطروا لبيعها أو تركها مرتعًا للخريزة والفئران، والميراث يأتي سريعًا من سرعة حضور الموت، عاد مفوهًا مع بداية إنشاء الجوامع، كانوا يخطبون في دوار العائلة قبلها، يقرأ الصحف التي تعود عليها في المدينة، ينتظر أي مسافر يقبل أن يجلبها له ويشدد عليه، والآخر يعتبره مهبولًا وفي الغالب لا يعرف كلمة صحيفة، وهو يصيح فيه: جريدة جريدة، تأتي إليه في الغالب بعد أسبوع، صحف الأسبوع كله أحيانًا، يقرأها متتابعة حتى أسبوع أو مسافر آخر، شغلته السياسة، أرض بكر عدد ناسها في ازدياد من كثرة النزوح، واسعة ومهمشة، آخر الدنيا، وأصواتهم في الانتخابات المزورة وغير المزورة تصنع فارقًا للنجاح، كانت قذائف الحرب العالمية الثانية على مسافة قريبة نسبيًّا في العلمين، لكن الشائعات كانت تسقط في حجره من الصحف ومن

راديو جدتي خالته عروسة.

يقضي الساعات عندها، لا يترك نشرة أو موجزًا، يقص عليها حكايات مختلفة عن الزير سالم وأبو زيد الهلالي والعروس المخطوفة التي حررها أهلها، غيّر لها مزاجها بقصص عن الحاج محمد هتلر الذي سوف يخرج الإنكليز من البلد، لم تكن مع هتلر أو غيره لكنها كانت مع أي شخص يزيح كتائب الهجانة الذين يغيرون بقسوة على المكان كل فترة لحصد الضرائب أو اصطياد الهاربين من التجنيد.

في الليل يعود لقرية الزعالكة مرتع الجن والثعالب، يتسامر مع كبار المنطقة، دوخته الحرب، بل هبلته الأخبار المتتابعة، أصبح مرجعًا في مسائل القتال بل نقلها إلى الناس وهو يخطب الجمعة: الأمر خطير وقد نجد روميل نفسه يحط وسطنا يحضر صلاة الجمعة معنا، ثعلب مختلف عن ثعالب المنطقة.

القنابل تدوي في البعيد لكن كأنها تسقط في حجره هو، في مكانه، اقترح تكوين حكومة ظل كما يحدث في الديمقراطيات العتيقة، طرحها على أناس كل ما يفكرون به اللحم أو البط الذي سوف يفتكون به في الغداء أو العشاء، تجمعت عنده كل المنشورات التي ألقتها طيارات المتحاربين، لعبت به شظايا الأضداد وغواياتهم، أحس أن الأمر على مسافة قدم واحدة فقرر أن يشكل حكومة أزمة في المكان، بلدتهم كبيرة مترامية الأطراف لا يعرف لها أحد آخرًا، فيها من الذئاب والثعالب قدر عدد البشر، اختار لها بعض من رآهم يصلحون لها، في الحقيقة لم يكن فيها أحد ممن حصلوا على قدر تعليمه، يعتقد أنهم بهائم يصلحون بالكاد لتحفيظ القرآن في الكتاتيب، مرة في سهرة تمطى أحدهم للكلام وعمامته على رأسه وقال:

«بريطانيا ضربت إنجلترا علقة كبيرة».

وهو انتفض من فوره خارجًا وهو يقول: «يا أخي، ما تطرشناش».

أخذته أخبار الحرب، يتحدث لغة لا يعرفها أحد، حتى وإن عرفوا يعرفون النزر اليسير، يحتاجون لغة يفهمونها، والموضوع غميق غميق وكبير عليهم، يعتقدون أنها خناقة بالعصي، لكن موضوع حكومتي الظل

والأزمة جعل الناس يعتقدون أنه فقد آخر صامولة في مخه وأنه مجنون وبدأوا يعاملونه على أساس أن قميص مستشفى الأمراض العقلية في انتظاره وأن النمش بدأ يظهر على محياه وتسرب إلى مخه.

ضايقوه، يردون عليه بالهزل في موضع الجد، ويطلبون منه أن يعلم النساء الصلاة.

قرر أن يهاجر، الأنبياء يهاجرون والمضطهدون لهم أن ينتشروا في الأرض، في بداية رحلته مر على جدتي، تقصي عندها آخر الأخبار، ملأ بها دماغه، ودعها وغادر، لا أحد يعرف إلى أين، ولا أحد يتذكره، نقصت الأرض واحدًا ملحوسًا وانتهى.

عشرون عامًا، مر إلى فلسطين، الحدود مفتوحة، لم تكن إسرائيل قد هزمتنا بعد، ولم يكن هيكل قد ظهر خلف جمال عبد الناصر للتبرير، عرج على الأردن فالعراق فتركيا ثم عاد إلى سوريا، أكلت منه الأيام عشرة أعوام، وفي الأخير استقر في لبنان.

وصل هناك إلى الضاحية الجنوبية قبل أن يصل قطار حزب الله، خطب وأكل ولعن الحرب والإنكليز وهتلر ولبس الكاكولة فوق البدلة وأصبح اسمه أحمد الفقيه المصري.

حين عاد كانت جعبته ممتلئة بحكايات غريبة مدهشة، ولسانه قد تعبأ بلهجات أخرى، لكنه يتكلم الفصحى غالبًا، الذين سمعوه بالطبع قالوا ما زال مهبولًا لكنه لم يكن كذلك.

عاش عصاميًّا في كل مكان حط به، لكنه حين عاد أغدق على من حوله هذه المرة، يأخذون النقود ويضحكون من سفهه، تسأله جدتي لماذا ينفق بهذا الإسراف على هؤلاء الجرابيع: يأخذون ولا يعطون ولا يمتنون يا ولدي، يردد عليها بيتًا تذكره لرجل حكيم:

«طلّعْت مالي عاداني لما سألني العباده، في الأخد زي الوصال وفي الدفع زي الولادة».

عاد مرتين أو ثلاثًا، لكنه لم يعط كالمرة الأولى، في الأخيرة كان على

مشارف الخمسين، تذكر فجأة أنه لم يتزوج، في مرة أعجبته ابنة خالته، متردد لكنه لم ينتظر لمرة أخرى، متردد لأنه يعيش بنظام صارم، علمته الأيام الخوف، علمته أن يخشى الجوع، شاغلته بعض الرهبة من الكبر وبعض الحنين فأرسل في طلبها، شحنوها إليه، عاشت معه زمنًا قصيرًا هناك، هو يحتمي بعصاميته وهي تريد أن تطاول أهل البلد، تحكي لهم عن خالها العمدة الذي لن يجد مقعد خفير هناك، أحرجته، بل أرهقته وأغرقته، هو يقابل رشيد كرامي والرئيس أمين الحافظ ثم يحمد الله ويغسل يديه، وهي تريد أن تكون بينهم ومنهم.

اغتاظ من طموحها الغشيم، كسرت له المسافة التي صنعها بكد وألم كبيرين، عاد بها، رجع دون عودة واستقر، يصرف بقدر رغم أنه ينام على آلاف الليرات اللبنانية تقارب المليون، هو أكبر من زوجته بسنين كثيرة، وهي عرفت الفازلين ومستحضرات التجميل والكبة النية والهندباء تريد أن تتمتع بفلوسه الكثيرة فقط.

سألته وأنا الصبي المولع بكل شيء لبناني، الأغاني وفيروز والدبكة وكمال جنبلاط الذي يحبه أبي: «لماذا لم تتزوج لبنانية»؟، رد بسرعة لم أفهمها ساعتها: «خفت أن أموت هناك».

كان مرتابًا من الزمن أيضًا، أن يكبر ولا يجد قوت يومه رغم العز الذي لحقه مؤخرًا.

خرج أثناء حرب، وعاد وقامت حرب، القوات الفلسطينية واللبنانية دكّت بعضها، وقعت القذائف فوق رأسه وحده، تهاوت الليرة اللبنانية، وتهاوى هو على أصوات سقوطها، مليون ليرة أصبحت بملاليم، أصبح فقيرًا مرة واحدة، في يوم وليلة، طلع في الشوارع، هج من المكان، يردد بصوت عالٍ: «كأنك يا أبو زيد ما غزيت».

أصبح على حافة الهبل حرفيًّا، كأنها نبوءة ولو جاءت في غير موعدها، يغيب في المدينة البعيدة هاربًا من أعين الناس كأن الأخبار ستختلف، كأنه سيسمع هناك أن الحرب قد توقفت، يقول بصوت عالٍ: «أعرفهم، سيتصالحون بسرعة، الأخيار هناك كُثُر».

يعود آحيانًا بعد نصف الليل الأكحل، ربما لا يعرف إلى آين لكن آرجل الغريب تعرف مرقده، والدواب تعود وحدها، آحست زوجته أنها حملته فوق طاقته، ربتت عليه وبالمرة تأخذ منه الليرات فقد تنتهي الحرب وتعود قيمتها بعد وفاته، ملامحه تقول إن نهايته تقترب، وهي تقترب منه، تسأله بلطف ليس من لُحمتها وليس من طبعها:

«سامحني يا شيخ أحمد».

«لماذا؟».

«عشان أدخل الجنة».

والرجل الذي تاه عقله من سقوط قيمة الليرة وتحولها إلى رماد في لحظة مجنونة يستيقظ فجأة:

«ليه، هي الجنة هتبقى زريبة!».

١٣

أخطأت شركة كوكاكولا وشركة ليمونادة وأخطأ فرع شركة سيكو بعدهما.

لو أنها رأت ما رأيتُ، لو أنها توقعتْ ما حدث، لو أرسلت عينًا تتابع وتراقب لاختلف الأمر.

اللقطة منقولة على الهواء مباشرة، أرجل تعدو من كل صوب وناس تتقاطر للفرجة على الاختراع الجديد، كأنك في فيلم «ميلينا» حين أخرجت مونيكا بيلوتشي سيجارتها فوجدت عشرات القداحات حول فمها.

حوض مستطيل من حديد بفم مفتوح أقرب إلى البانيو، بقوائم عالية، نصبه عمال على عجل، بالكاد يتحركون من فرط الزحام، ثم جاؤوا بزجاجات الكوكا ورصوها داخله، رأيناها بالفعل، ولأول مرة، كفنوا فوقها لوحًا من الثلج داخل جوال قديم، ارتاحوا وشربوا الشاي والأقدام تضيق عليهم والأعين بالسؤال، بعد نصف ساعة تقريبًا نادوا على الجمع، على المارة المتوجسين المترددين في الشارع، أوقفونا في طابور طويل، كنا نخشى الطوابير من كثرة اللقاحات وشكشكة إبر الحقن، منحوا كل واحد زجاجة، يقف ثلاثة مع كل منهم فتاحة، يفتح ويطرقع، في ذهول شربنا، كانت بقبقات الصودا ومادة الكولا تخرج من نخاشيش الناس، كل واحد يتجرع جرعة ثم ينظر إلى ما تبقى في زجاجته مرة بعد مرة بعيون مرغرغة، يتكرع بصوت عالٍ كأننا في يوم التكريع العالمي حتى انتهى المهرجان:

«مية نار حلوة في حلقي يا وله، أول مرة زوري يتشَعْوَط كده».

لكن لا أحد على استعداد لشراء لوح ثلج كل يوم: يطفحوه، أغرقوا الحوض بالماء ووضعوا الأجولة فوقه وحوله وبلّلوها، كل فترة يرشونها بالماء حتى لا تنشف، حتى تبرد ويبرد ما تحتها.

أول مشروب جاهز للشرب دون تدخّل من أحد، كانت شيئًا مدهشًا،

قبلها لم يكن هناك غير الشربات الأحمر يجاوره بخجل ماء الورد الذي انتهت صلاحيته منذ ثلاثة أعوام.

في الأفراح حلة كبيرة أو طشت كبير غالبًا وواحد نحيل جدًّا ينتظره الجميع، لديه سر باتع في ضبط شربات الأفراح، لا يخلع خاتمه، ينهمك، يُشَمِّر كُمّ جلبابه لينزل المعركة يرمي السكر ويخوض في الماء، ثم واقفًا ينزع فلينة الشربات بصوت يفرقع ويمطره داخل الطشت أو الحلة، يشير للبنات من خلفه يملأن الأكواب والناس تشرب بصوت عالٍ من شربات زمزم.

ولا أحد يشتري، تظهر في الأفراح الكبيرة فقط وللضيوف من بلاد غريبة، والغني فقط من يستطيع أن يشتري درجًا كاملًا يخبئونه للظروف، ينقعون منه واحدة للكبير، يضعونها في الزير، محرمة على أهل البلد، كأنها مشروب الجنة، من يشتريها عيب عليه، يشرب شيئًا مختلفًا عن الجميع أو ليس في قدرتهم وهذا عار كبير، ليست سيارة مثلًا سيتباهى الجميع أن عندهم سيارة في بلدهم أو ماكينة طحين فخر للجميع، من يشتريها يجب أن يترك رهنًا ثمنًا للزجاجة حتى يعيد الفارغة وهذا فوق طاقة الجميع تقريبًا، ومن يقدم على هذه الفعلة فقد خرج على التقاليد واستحق لعنة الآلهة.

فجأة سترى صبية حلوة مطلوبة للزواج تجري في الشارع بضفائر تشرح القلب أو تمشي بعجلة غير معتادة للصبايا، تحمل في يدها زجاجة كوكا ترفعها للأعلى، تبتسم كما يجب على الصبايا وبالمرة تعرض بضاعتها، قلقة أو تظهر القلق، معها ثروة تخشى أن تسقط من يدها وتنكسر فيكسروا رقبتها، ساعتها ستعرف وحدك أن هناك مريضًا في هذا البيت، بل اشتد عليه المرض وحار فيه حكيم القرية فأفتى بدواء الكوكا، تصبح فرض عين حينها، وإن طال المرض وشرب اثنتين وهذا نادر لم يحدث سوى ثلاث مرات تحلف واحدة: «جبنا له قزازتين كاكولا».

في دكان صاحب الكوكا يتجمع الكبار في العصاري حتى المغرب، شيخ ضخم الجثة والمعرفة، حصل على العالمية أيام الملك لكنه لم يستطع أن يجد وظيفة، الوظائف كعادتها بالواسطة مهما كان معك من

شهادات، فتح دكانًا، يقتل به الوقت ويكسب بعض القروش، يقرأ فيه صحيفة الأهرام التي تصل له خصيصًا آخر اليوم أو في اليوم التالي غالبًا، عنده كتب ويعرف الألباني وابن تيمية ويأتي أحيانًا على لسانه اسم محمد عبده والأفغاني، أمُرّ عليه عند خروجي من المدرسة لآخذ نسخة أبي من الأهرام إن حضرت، يجلسني على كرسي بجانب دكته لأقرأ له الصحيفة، هو الذي علمني الأخطاء الشائعة، هو الذي علمني بادئ ذي بدء بفتح الباء وليس بكسرها كما كنا ننطق.

حوله الكبار، يلقي عليهم مما علم وأحيانًا ينزل لمستواهم، لم يتعلم أحد منهم إلا واحد كان يعمل قاضيًا شرعيًّا يجلس بينهم بعمامته كأنه شيخ الأزهر، الآن أحس بمأساته، عالم وسط رهط من كبار بعضهم محترم وأمين وبعضهم شيخ مَنصر عريق مثل جدي الاحتياطي، الذي رفض أن يسلم على الحاج حسن أبو محِمّد الرجل الفخم المهذب كبير عائلته بعد أن مد له يده، استغرب الرجل لكنه لم ينطق، عيناه تفضحان سؤاله، إلى أن تمطى الاحتياطي وقال بعتاب واضح:

«بقى أنا يا راجل كنت بموت، ووشي ناحية القبلة ولا تسألش عليَّ»!

الرجل المدهوش حلف بالطلاق أنه لم يعلم.

كان لا بد أن يعاجله شقيق جدي بالقاضية:

«يا راجل ده أنت كنت قاعد هنا وبنت ابني بتقول للشيخ علي هات قزازة كاكولا لجدي».

كان طعم السينالكو وسيكو مناسبًا للأطفال غالبًا أكثر من الكوكا والليمونادة والاسباتس إن وصلت عندنا، ننتظر الضيوف، يشربونها، لكنهم لا يكملونها، يشربونها ساخنة فيأتي طعمها على غير ما خطط له مخترعها، أن تُشرب باردة.

يشرب الضيوف نزرًا يسيرًا من هذه الهدية الفخيمة، يتركونها ممتلئة ثم يغادرون.

أخطأ أصحاب الكوكاكولا وسينالكو وسيكو، لو رأونا ونحن نتخفى بين

ذيول الجلابيب، بأعين مشتهية، برموش خائفة من الآباء، لو التفتوا خلفهم ثانية وشاهدوا هرولتنا، لو ضبطوا ساعاتهم على ريق حلقنا لرأونا ونحن نعدو لنعبَّ بسعادة ما تبقى من زجاجاتهم، لو رأونا ساعتها، لو أخذوا لنا صورة، لو صورونا بكاميرا ولو قديمة، أبيض وأسود لا بأس، لو ثبتوها فقط على النظرة المشتهية لاستغنوا عن كل الإعلانات وكسبوا أضعاف ما يكسبون.

١٤

وقامت الحرب.

الساعة تقترب من الرابعة، سوف نتسلل إلى دار الحاج حسن أبو مجِمّد، هكذا تنطق مكسورة لنتفرج عنده على مباراة كرة القدم بين فريقي المحلة والطيران، التلفزيون الوحيد في البلدة، يعمل بالبطارية، يحملها أحدهم على حمارة أنثى ولا تعرف لماذا، ربما لأن ذكرًا قد يَحْرُن في الطريق إذا رأى حمارة، يحملها ليشحنها في البندر القريب ويستهلك في ملئها أكثر من نصف يوم، يذهب ونحن بقلوب فارغة ننتظر أن يعود.

وألغيت المباراة، كان وقعها الغائها أكثر من وقع الحرب علينا، البيانات التي تم بثّها في ذاك الوقت متحفظة لم نتبيّن منها شيئًا، كما أن عدد الراديوهات قليل ولا أحد يملك براعة التقاط الأحداث بسرعة ولا أحد يتوقع رغم أن نصف شباب البلد مجندون، لكن حدثًا جللًا لا بد قد وقع، أبي يقطع الطريق هرولة ومعه عمي شيخ الجامع حيث التلفزيون ولم نكن ندري ما حدث بالضبط.

لسنوات تعودنا على بيانات الاشتباكات ولا نهاية، تعودنا على أنها نكسة لا هزيمة نكراء، غزة في الجانب وستمضي، تعودنا على عسكري الشرطة الذي يقف في منتصف كوبري البلد -والبلد بفلاحيها حوله- يضع كفه السمينة أو المبطرخة، لا أتذكر، على طفاية حريق كبيرة يعلمنا كيفية استخدامها إذا وقع حريق من انفجار قنبلة أو أجسام غريبة، وبصوتٍ جهوري يرفرف معه شاربه الكبير في الهواء ينفخ: أنبوب أسطواني الشكل له مقبض دائري، يفتح عن طريق الضغط عليه من أعلى مع لفه إلى جهة اليسار.

ينطلق صوت من وسط الوجوم: «والله العظيم ما احنا فاهمين حاجة».

قامت الحرب لكن حربًا أخرى كانت في قلبي، فاطمة، أكبر مني بسنتين لكننا معًا في نهاية المرحلة الإعدادية، فاطمة -لا أستطيع أن أقول هي بدلًا من اسمها- من آخر قرية في المنطقة، قرية الأعاجيب،

لا يسكنها إلا آهلها تقريبًا، استصلحوا آلف فدان وهبطت عليهم الثروة، القرية الوحيدة التي بها كهرباء في المركز العجيب كله، اشترى أهلها ماكينة توليد كهرباء، زرعوا عواميد وأناروا قريتهم، ويسافرون لمصر، وهم أول من أدخلوا حاجة اسمها الشيكولاتة إلى المنطقة، وأنجبوا فاطمة، رسولة الجمال إلينا، النسخة الأكثر حيوية من نجاة الصغيرة، الوداعة نفسها لكن بابتسامة أكثر حياة، دون حسابات أو هكذا كنت أظن بقلبي الطيب الساذج، كانت تملك نفس الاعوجاج الخفيف في فكها أو أسنانها، هذا الاعوجاج الباهر الذي منحها جمالًا على قدر احتمال قلوبنا، والذي كان من المحتم وجوده وإلا احترق العالم من اكتمالها، ومع ذلك كان قلبي يحترق كل ليلة ولا أستطيع استعمال طفاية الحريق الكبرى التي شرح لنا الرجل طريقة استعمالها ولم يفهمه أحد.

قامت الحرب، وبدأنا نعي، نراها على وجوه الناظر والمدرسين والفراشين بالتبعية، شارك الناظر في حرب فلسطين وعاد مهزومًا، كم من مرة حكى بمرارة لم ندركها ونحن صغار، يحكي بغل المهزوم غِيلة، لذا كانت القذائف تنطلق من خطابه الثوري في طابور المدرسة فترتد من الوجوه والحوائط، كنت أكثر منه ثورية كما اعتقدت رغم أنني لم أشارك في حرب بعد، في الحقيقة ظهرت الحرب على وجهي وعلى لساني، كنت بين حربين، حرب في الظاهر وأخرى في الباطن، أقود طابور المدرسة، أردد القصيدة التي حفظني إياها أبي، كنت أقف وأنا ابن العاشرة أيام حرب الاستنزاف بين الناس، كلهم أكبر مني، أقف على كومة من طين ناشف وسط أعضاء منظمة الشباب أردد بقلب الشاعر قبل صوته: أنا طفل ولكني شباب.

كانوا يسموننا شباب المنظمة التي تحارب إسرائيل بالقصائد هنا، وإخواننا يحاربونها بالمدافع هناك.

أزأر بصوتين، بروحين، أنسج الحكاية كلها على يدي، من إذاعة لندن التي لا تنقطع في الدار، من حوارات أبي مع جمهوره، كان أبي زعيمًا عندنا وعبد الناصر زعيمًا هناك، لم يكن أحد قد اعترف على الإطلاق أن أنور السادات رئيس، بالذات أبي الذي ظل يردد دائمًا جملة ينطقها بازدراء واضح: «عمر ما حد احترمه»، يرددها في كل مناسبة من فرط

عشقه لعبد الناصر.

قامت الحرب وأنا أردد القصائد الحماسية التي أحفظها والمدرسة كلها خلفي وعيني في اتجاه واحد، وفاطمة تصفق لي أكثر من الآخرين.

قامت الحرب وحدتث الثغرة في الدفرسوار وفي البلد، انقطع الشاي والسكر، وفاطمة ضجرة لم تنقصها وداعة نجاة لكن غابت عنها شقاوة سعاد حسني، دماغ فاطمة يؤلمها لا تستطيع العيش دون كوب شاي، كان علي أن أسرق أو قل أختلس الشاي والسكر من خلف أمي، مع أنها ربما كانت ستوافق لو أخبرتها، لكنني خشيت أن ترفض خاصة أن البلد كلها تسهر عندنا تقريبًا.

هل تعرف الحب الأخضر؟

من منا لم يجربه، وضعت الغنيمة تحت فانلتي الداخلية بالقرب من قلبي، علَّ الشاي والسكر يلقطان النبضات على حقيقتها، وكصبي ينبض صدره لأول مرة مددت يدي خفية وأخرجت قلبي وقدمته خفية لها.

لو نسيت كل المناظر في حياتي لن أنسى هذا المنظر، مرّرَت يدًا سريعة برقة على وجهي، بالكاد لامسته وهمست: أحب هذا النمش.

لا تعرف كيف حدث هذا، ربما رأتني كل العيون التي كانت مجتمعة حول راديو كبير يضعه أحدهم كل يوم على الكوبري ويلتف الناس حوله، نعم رأتني ورأت عرق قلبي يتصبب رغم أن الأنوار تقريبًا مطفأة، أو توهمت ذلك، لكن المؤكد أن ناظر المدرسة رآني إذ سمعته يقول لأحد المدرسين: الحب قبل الحرب.

غابت فاطمة بعد الإعدادية، قيل إنها تزوجت بسرعة، لم أنتبه أنها كانت محط أنظار ومطمع الجميع.

بعد سنين سألتني البنت التي أحببتها، كعادة النساء في تقصي خريطة قلب خطيبها والعس في أوردته: من البنت التي أحببتها؟

بسرعة قلت: فاطمة.

لم يبدُ عليها استغراب ولا دهشة، لعلها كانت تعرف بموضوع النمش وتختبرني، المهم أنها لم تُبدِ شعورًا بالغيرة، بل ضحكت وقالت:

«الكل كان يحب فاطمة».

غابت فاطمة في البعيد، تنام سنوات وتصحو دقائق، لكنني أحببت النمش، أحببت وجهي.

ا ه

هل تعرف الهرج بلا صوت؟

أقدام عديدة تمشي كأنها في المنام، كأنها خائفة، بصوت غير معتاد، مرتبك، متردد، خشية ظاهرة في الحركة، كأنها حركة أموات تراها ولا تسمعها.

برد غريب، يأتي برعشة تخطف البدن، ورجفة حتى الأسنان، ليس برد العجوز بل برد بدايات الخريف، برد تتوارى فيه شهوة الحب، نعرفه في أوقات الفرح المنسحبة، في اليوم الأخير من العيد حين تتعب الفرحة وتدخل لتنام.

كأن الكل يتوقع شيئًا مرَّا فوق الاحتمال، كأنهم يعرفون ولا يجرأون أن يسروا لبعضهم.

والوقت مغارب، لا طير يعبر الأفق كعادته، لا حمام يطير فوق الحارات في أمواج كما يفعل كل يوم، أتشاءم من غيابه، العلقة واقعة واقعة.

هذا ما حدث عندنا بالضبط.

وأنا خائف، لا أعرف ماذا يحدث، جئت من الخارج متأخرًا مرعوبًا من علقة بسبب لعب الكرة والحضور وقت هبوط الظلام، أتسحَّب بقلب يرتعش، أمد رأسي من باب الدار، أتلصص بالدعاء.

صوت أجساد تتحرك بالصمت في الصالة.

باب غرفة أبي موارب، باب الدار من يعبره لا يغلقه تمامًا، الباب الداخلي باب وسط الدار مفتوح على مصراعيه.

عمي الشيخ حامد شيخ الجامع والذي لا يجرؤ واحدٌ فينا أن يفتح فمه في حضرته أو يتزحزح في مكانه مرتين يمسك منديلًا ويبكي، وهو الذي لم يبكِ يومًا في حياته حتى إن أمه -جدتي- قالت إنه ولد بلا

دموع.

عمامته لأول مرة على حصيرة في الأرض، لم تحدث مرة في التاريخ، ولم تتحرك قبيلة من الأيدي لرفعها كالعادة.

جارنا الشرير الذي يعارك ذباب وجهه، والذي تقول أمي عنه من خلفه: «أسود الوجه جاء لأول مرة في حياته صامتًا وتأكدت من سواده».

صمت غريب، لم أستطع أن أخمن أي شيء، هل احترق أولاد عمي في الغيط، هل قتلهم أحد جميعًا، هل أطلق أحدهم النار على كلاب العائلة التي استقدمها عمي المستشار من الصعيد البعيد ودفع لها ثمن تذكرة كابينة قطار كاملة؟

الدجاج على مرأى العين في وسط الدار مكوم على بعضه، محشور حشرًا، ربما نهاية سبتمبر ودخل البرد عليه، لم تقاقئ دجاجة واحدة، لم تطلق صوتها المقطوع المبروم، ولم يجرؤ ديك بينها أن يتنحنح.

وأنا خائف، أتسحب، أمرر رأسي، حتى وجدت الجمع.

زال خوفي في البداية، طالما هناك بشر فلن يقدم أحد على ضربي، بل على غير العادة وجدت يدًا تربت عليَّ.

البط يدفس مناقيره، كل واحد أو واحدة تحت جناحه أو جناح الآخر، ولا أثر للمعة عينه في الظلام كالعادة.

لا صوت، سوى صوت وابور صغير عليه حلة مملوءة ماءً بدأ بخارها يصّاعد الآن.

أمي تقترب من غرفة أبي نعتقد أنها ستدخل لتفك لنا هذا اللغز، لكنها على غير عادتها لم تجرؤ.

هل أبي في الغرفة في الداخل؟

هل هو مريض؟ لا بد أن الطبيب عنده والأمر خطير.

صينية من الأكل لم يمسسْها آحد في ركن بالصالة، ودجاجتان متمردتان تمرحان فيها وأمي لا تهشهما بالمقشة أو بصوت بكفيها كالعادة.

أتسلل إلى الشارع، الأخبار في الداخل تعرفها من الخارج، دكان قريب، الباب مغلق، والناس يجلسون أمامه لا يتكلمون.

عماتي يتقاطرن واحدة وراء أخرى، رجال من البلد، لأول مرة ينكسر الصمت ويتحرك باب البيت ويحدث صوتًا من كثرة عدد الداخلين بالوجوم.

دخل عمي حامد عند أبي وخرج باكيًا، عمي الآخر وخرج باكيًا، لم تدخل أمي ربما لأنهما كانا يتشاجران كثيرًا.

عمري عشر سنوات، ورغم أن قصص الموت تحوم حولنا كل يوم إلا أنني لم أتخيله لحظة في حجري.

اندفعت عمتي فريال باكية، كان البكاء بصوت عالٍ علامة شؤم كالعادة، اقتربت من باب الغرفة، تسحبت خلفها، لم يمنعني أحد، دخلتْ فدخلتُ، شاهدت أبي صاحيًا جالسًا دون موت، بعيون حمراء وجفن متدلٍ يكاد يلامس أنفه، بفوطة كاملة في يده، رأيت دموعه في الفوطة المبلولة، ولم أفهم شيئًا.

أزاح أبي وجهه قليلًا كي يتجاوز جرم عمتي ويراني، يرى طفله، وكطفل لم أشاهده من قبل على هذا النحو قال بصوت متهدم:

«جمال عبد الناصر مات يا ولدي».

١٦

والليل طويل.

لا تصدق الكتاب والشعراء حين يقولونها إلا إذا كنت عشت ليلة موت جمال عبد الناصر، ماتت القرى كلها، كابوس حقيقي والناس الذين خافوا من التسليم بالخبر لم يناموا، خرجوا يتطلعون للسماء ربما يمر عزرائيل فيستعطفونه أو يقبضون عليه.

يستعيدون الشريط من أوله، الليلة ليست كالبارحة، يعتقدون أنهم سيعيدونه كما فعلوا ليلة التنحي، كانت بطونهم مملوءة بل منتفخة بأن الجماهير هي صانعة كل شيء حتى القدر.

في ليلة التنحي كان الأمر مختلفًا، اندفعوا حفاة، تجمعوا على كوبري البلد بحناجر غاضبة وهتافات مدوية، لم تبرد حناجرهم بعد منذ لحظة النكسة، لم يتبينوا الهزيمة وقتها على أصولها، لم يسمح لهم حسنين هيكل واتهم أمريكا ومن وراء أمريكا، لم يسمح لهم أحد بالتفكير، الزعيم يفكر نيابة عن الجميع، ولم يسمح لهم أبي فالتسليم بالهزيمة يعني هزيمته هو وهزيمة حلمه وهو حلم البلد.

لم تكن الشعارات الجديدة قد وصلت فاستعادوا الشعار القديم: «يا ابو خالد يا حبيب، بكره تدخل تل أبيب».

الموضوع مباراة كرة قدم، وإذا كانوا قد ربحوا الشوط الأول واحتلوا الملعب والمدرجات فسنستعيد كل شيء في الشوط الثاني.

البلدة كاملة برجالها وشبابها وصبيانها وحتى أطفالها، لم يبقَ سوى النساء في البيوت، ولم يمر وقت طويل حتى خرج بعضهن لاستلام الأطفال الذين غلبهم النوم، في لحظة نادرة تقدمت الحاجة زمزم، امرأة أمية مات عنها زوجها بسرعة، لكنها تحفظ بعض القرآن والأمثال وهي والدة الشيخ محمد أبو الحاج عضو الجمعية الزراعية بنفسه وطلبت من ابنها على رؤوس الناس أن يسافر فورًا مع أبي باعتباره رئيس الجمعية ويعيدا عبد الناصر ولو بالقوة لمقعد الرئاسة بل أطلقت

آول شعار محلي: "ارجع ارجع يا جمال، طز في حنفي وعبد العال».

وحتى لا يفوتني شيء فقد كان حنفي وعبد العال هما كبيرا مقاولي الأنفار لجمع القطن وفرد شتلات الأرز في المنطقة ويتمتعان بسلطة عالية على جميع فلاحي المنطقة، وسطوة مكروهة من الخلق.

الموقف مشتعل والأعصاب منفلتة ودعوات حارة من الشباب بالزحف إلى مصر، أو على أقل تقدير إلى المحافظة للوقوف ضد قرار التنحي ولو حتى بالمبيت أمام بيت المحافظ نفسه، جرى البعض بفورة اللحظة على الطريق إلى المحافظة، حفاة بالطبع، غير أنهم عادوا بعد ساعة وتوارى هذا التفكير برمته إثر حضور الشيخ شهاب مأذون القرية حيث صعد على أكتاف الشباب وهو يمسك بدفتر توثيق الزواج ويرفعه عاليًا، وسط تصاعد الحناجر بصيحة الله أكبر، إلى أن ظهر صوته بعد أن هدأوا فوعد الجميع بأنه سيكتب كتاب جميع العرسان دون مقابل لمدة شهر إذا عاد عبد الناصر عن قرار التنحي.

لكن الأمس ليس اليوم، والتنحي ليس مثل الموت وعائشة ليست أم السعد.

مات عبد الناصر ومضى الليل إن مضى، وطلع صباح غريب، تسلل الجميع من ديارهم سريعًا يلتقطون أي خبر يريح عظامهم المنهكة الهاربة، تجمعوا عند الكوبري كالعادة، وجوم، بملامح متشابهة كأنهم نسخة واحدة، نطق النمش على وجوه الخلق، ولا وقت للعزاء، لا أحد يصدق أن عبد الناصر غاب، المدرسة مغلقة والتلاميذ وأنا بينهم تجمعنا حول الكبار دون خجل، فالمصاب جلل والأب مات، إلى أن انتفض علي أبو حشيش وهو كبير الفراشين في المدرسة، لا يقوم بأعمال الفراش، يترك ذلك للفراشين الجدد، فهو عضو الاتحاد الاشتراكي، ومركزه السياسي ووضعه الجماهيري لا يسمحان له أن يكنس أو ينظف، يجلس على كرسي أمام المدرسة يرد على سلامات العابرين بساق فوق أخرى ويقول كما علمته الثورة: أهلًا بالسيد فلان، يقرأ صحيفة الأهرام ويناقش الناظر كل يوم في الأمور السياسية، يعيد عليه أسطوانة الصحيفة بالحرف، نظر طويلًا في وجه محمد أبو حسن وهو محفِّظ قرآن وعضو أصيل في منظمة الشباب،

وقال برجاء طفل مرعوب من موت الأب: "آه لو يرجعوا يذيعوا في الراديو ويقولوا إنهم غلطوا في الخبر وإن عبد الناصر حي".

لكن صوت أنور السادات كان كالقذيفة في وجوه الجميع، يتردد في الردايو موجهًا جملته الشهيرة التي لاموه عليها بعد أن تولى الرئاسة، لأنه كان ينطقها بسخرية: مات واحد من أشجع الرجال وأغلى الرجال وأغنى الرجال.

عندها حملنا النعش فارغًا وطُفنا به البلد بعد أن استسلمنا للقدر، طُفنا وعدنا إلى الكوبري مرة أخرى وشبه مغيبين أقمنا صلاة الغائب، ورغم كل ذلك لم نصدق أنه غاب، إذ بعد يومين ونحن نقيم تأبينًا له كان أشبه بحفلة لزعيم حاضر وقفتُ على المسرح، مقطورة جرارالجمعية الزراعية وضعوا فوقها بعض الكليم الذي أخذوه من دارنا، وقفت أنشد قصيدة كانت منشورة في جريدة الأهرام:

يا قوم هل مات الذي أحيانا وأشاع نور العدل في دنيانا

هل مات قائدنا ورائد رَكْبنا وزعيم أمتنا ورمز علانا؟

عدنا من جولتنا الحزينة، لا نصدق أنه مات فعلًا، نبحث عن طريقة تعيده كما حدث وقت التنحي، كنت ابن عشرة أعوام يحاول أن يجد طريقة لإعادته من الموت كي لا يحزن أبي وينهنه كالأطفال في الفوطة.

حط الناس يجرون رجولهم في قهوة حسني العبد، قل شبه قهوة، تبدو كخص كبير، تقع داخل حرم الجمعية الزراعية باعتبار أن صاحبها خفير في الجمعية والزيت في الدقيق والثورة للجميع.

يقولون إنه من بقايا العبيد أو الرحالة أو بقايا من عملوا في السخرة في قناة السويس أو في فرق الهجانة الذين قدموا من السودان، وبصوت مسرسع عالي النبرة: «عليَّ الطلاق اللي هيقول الريس مات ما هو قاعد هنا».

لا أحد يطلب مشاريب، لا أحد يملك نقودًا، ليس هناك أصلًا رغبة ولا

تفكير في شيء سوى خلق باب آو معجزة لعودة الزعيم، خاصة آن حسني العبد سمعها في الراديو: الزعيم لا يموت.

نبحث عن أمل كأحلام اليقظة.

لم نجد سوى الشيخ أبو العينين، تحلقنا حوله يتامى، هو الوحيد الذي وضع له صاحب القهوة الشاي أمامه وقال له بصوت خفيض: «عملته لك على ميه بيضا»، يعمل في وظيفة «قباني» يزن الأرز والقطن ولديه أوراق حمراء وزرقاء يسجل عليها بسرعة غريبة ومخه دفتر كبير مليء بالأرقام، تحلقنا حوله وهو يشفط الشاي بصوت عالٍ، نسأله بخشية الأمل: هل صحيح مات عبد الناصر؟

شفط مرة أخرى وهو ينظر لسقف القهوة ويطيل، كنا نثق بحنكته، شاعت عنه حكاية أنه تزوج عمتي سندس في السر بعد أن خرجت هجالة من زواج ببنت كالعادة، تزوجها في بيتها على سنة الله ورسوله بشاهدين يساعدانه في وضع الأجولة على الميزان أثناء عمله، وعلى غير المتوقع جاء من يريد أن يتزوجها، لكن الشيخ أبو العينين رفض أن يتركها ويفض العرفي إلا بعد أن أخذ مبلغًا من المال، كان شرطه الآخر الحراق أن ينام معها أسبوعًا كاملًا حتى يشبع منها وحتى لا يترك للعريس الجديد كل شيء، لذا فهو ضليع في حل العقْد والتفاوض مع العفاريت، لكنه لم يكترث لآمالنا الواهية وحسم الأمر:

«عبد الناصر راح خلاص».

صدمنا صدمة العمر، ران صمت حزين على المكان أخرجنا منه صاحب القهوة المستنكر لفكرة موت الزعيم، رد عليه سريعًا:

«وده هيدفنوه ازاي، هيحطوه في التراب زينا»!

رد أسرع منه:

«لا طبعًا، أكيد هيدفنوه على الطراز الحديث».

١٧

الأحلام بطيئة في هذا المكان، قل في هذا الوكر العجيب، لا توجد أحلام من أصله، صنف لا يعرفه الذين يعيشون هنا، بشر إن شئنا عاشوا طوال حياتهم في كابوس واعتبروه أفضل ما في الدنيا، وإن كان ولا بد فلينتقلوا إلى درجة أخرى داخل الكابوس نفسه، لا أحد يظن أن هناك دنيا أخرى مختلفة عن هذا الكابوس الجميل، لا أحد يعافر، المعافرة ترف، الحصول على علبة دخان في نهاية اليوم هو آخر ما يسعى إليه ليقضي بها الليل، هي الغزوة الحقيقية، أي أكل يكفي، لا أحد يشتهي ما لا يعرفه، الدماغ ليست فصين هنا، الناس ولدوا بفص واحد، محايد، لا يرى أبدًا وجهًا ثانيًا لأي حكاية.

لكن عمتي زهرة حلمت، علم النفس يقول إن الحلم الأول لا بد أن يكون مبهجًا والأسطورة تقول إن الحلم الأول في منطقتنا لا بد أن يكون حبرًا أسودَ، وهو ما حدث على الأرجح، دخلت علينا مبتهجة، قالت لأمي إنها حلمت أنها ستنجب بنتًا بعينين ملونتين، وأكملت وهي تضحك: "ترينا الويل والنجمة أم ذيل".

وقد كان.

كنا ثلاثة أولاد لأب ولد ليكون زعيمًا، وأم بيقين أنها من طينة مختلفة، جاءت من البندر وتستحق أن تكون زعيمة على الأقل على هؤلاء الغجر وأنها خدمتهم وعلمتهم الطبخ وكيفية تحمير الشعرية وسقيها بالشوربة بدل الماء لأول مرة في المنطقة، وعلمتهم كيف يلبسون، لبسوا من يدها ما لم يخطر ببالهم، وقفت خلف أبي لكن عندما جاءته الزعامة جاءت واسعة وكبيرة على حالها، على ما تمتلكه، الموضوع أكبر من نظرتها البسيطة الطيبة، لكنها اعتقدت بما أنها طبخت لرئيس مجلس الشعب فيجب أن تشاركه هو وأبي في قيادة الشعب، بابها قريب لكنها تدخل في الوقت الخطأ وفيما هو أكبر من مداركها ووعيها بتوازنات الناس وطباعهم وضباعهم في المنطقة، تريد أن تحشر نفسها في حوارات لا تعرف أنواع ثعابينها، واعتقد أخواي أنهما منذوران للزعامة كل واحد على طريقته، لكن المهم أن الزعامة في طبق قريب في متناول يديهما، حتى جاءت أختي فوجدت منصب وزير

الإعلام شاغرًا، دلّلها أبي، يحب البنات مثلي ويتقي شرهن، أصبحت خبّاصة لأبي من الطراز الرفيع، نخرج لنلعب الكرة أثناء سفره، وحين يعود ولا يجدنا تصير عيناه أكثر حمرة من عين ذئب، وقبل أن يسألها تكون وشايتها في حجره: "خرجوا للملعب من قبل العصر"، تجعل التوقيت قبله كي يكون العقاب كبيرًا، نأخذ نحن العلقة المتينة وهي فخورة بما فعلت، لا يجرؤ أحد أن يعاتبها، بالطبع لن يستطيع أحدنا أن يفكر مجرد التفكير في ضربها، أنقذتنا من اللعب مع الصيّع كما حفظت من قاموس أبي، عابسة عبوسة، لم نضبطها مرة تضحك كأنها تنفذ مهمة قومية.

في مرة يتيمة وعدناها بالحلوى، اشترطت علينا أن يكون المقابل حلاوة كوكاكولا، تتعامل مع الكوكاكولا على أنها حلوى، وتمنينا عليها بالرجاء أن تخبر أبي أنها لم تجدنا وأننا في الكُتّاب نراجع القرآن، كان قد أرسلها لنا خصيصًا، استحضرت عرق الزعامة ونزلت الملعب أثناء سير المباراة، لم تعبأ بتحذيرات الحكم ولا صراخه، قطعت سير اللعب لتنذرنا، رجوناها مرة أخرى ووعدناها، حين عادت لأبي قالت له بالحرف الواحد: "أخبروني أن أقول لك إنهم غير موجودين في الملعب".

فظيعة، إذا أرادت شيئًا ولم يستجب لها أحد، تبكي من المغرب حتى منتصف الليل أو حتى يأخذها النوم بالبكاء، لكنها للأمانة لم تكن تحمل في قلبها، لا تأتي على سيرة الموضوع في اليوم التالي بعد أن أخذ يومًا بليلة، كما أنها مشغولة بالقضايا الحالة ولا يعنيها أن تنظر للماضي.

إذا كان هناك من يعتقد أن النمش سيأخذ وقته وينتهي فهو واهم، أو أنه مجرد طفح جاء نتيجة ظرف عابر فهو مخطئ، النمش ليس ريح صيف أو حدثًا عابرًا، النمش أقرب إلى القدر الذي صنعه أهله بأيديهم وغواياتهم.

عروق الزعامة عندها لا تنشف، دماؤها تنخفض وتسير ببطء في العروق حتى يأتيها المدد الجديد، تنتظر فرصة لتسقي جذورها وتعيد إشعال شعلتها من جديد، وهو ما كان.

تزوجت من آطيب ضابط في العالم، آمين شرطة درس الحقوق آثناء عمله لتحسين وضعه، وضع الضابط عندنا في المرتبة الثانية بعد النبي، لكن روحه لم يكن بها مكان للكبر والزهو، تزوجها، أحنى جبينه لها كي يعيش، رضخ لزعامتها من أول ليلة وهو المسالم أصلًا، ولولا خوفه منها لوزّع نصف راتبه على العساكر، رفيق طفولتي، أصحو في الصباح أمرّ عليه لنلعب الكرة، حياة أهله بائسة لكن معظهم كان راضيًا إلا من قنعرة كاذبة لأبيه الطيب الفخور بأجداده اللصوص العماليق، أمر كل صباح ونفس الطعام تقريبًا، أرز أبيض مسلوق بالماء من الأمس، تجلّد من برودة الطقس حتى أضحى قطعة من الكاوتش تضربه في الحائط فيرتد عليك، يحلبون البقرة اليتيمة ويغلون لبنها حتى يفرك ليزيل برودة الأرز المتجمد، أحيانًا هناك بعض اللفت وأحيانًا لا، معظم الناس كانوا على نفس المنوال.

أطيب صبي لا يخلو أحيانًا من غشم طفولي جاءه من المناخ الذي يعيش فيه، لا يلعب للأمام، ما من مرة رمى أو قذف كرة تجاه المرمى المنافس، يلعب بالعرض، لا يهاجم أبدًا، وحين تزوجته كانت كريمة معه، تركته في غيّه الوحيد القادر عليه، المشي بالعرض، جاء على مقاس حلمها تمامًا، ليس مطلوبًا منه أن تكون البدلة على مقاس الباترون بالضبط، ربما من حظها أنه كان أفضل من الباترون والحلم، سقط بطيبته بين ساقيها، وبسرعة تتوافق مع النوايا أخذت زمام المبادرة، أمسكت لجامه ونشطت عندها مرة أخرى غُدد الزعامة.

يعود من العمل، يدخل ببدلة الضباط، تلقف الكاب منه، تطوحه على أقرب كنبة أو طاولة، لا تترك له فرصة ليتنفس، بالكاد يخلع حذاءه وأحيانًا لا، يجلس القرفصاء على الأرض لتصعد هي فوق الكنبة وتبدأ خطبتها، زعيم شديد على شعب مستسلم من فرد واحد، تلوح بيدها في الهواء، تغيّر لون عينيها الملونتين، تخطب حتى تتعب، في الحقيقة لا تتعب، كل يوم تعاود الكرة.

لم تكتفِ بهذا التدريب القاسي على أصول الزعامة، أرادات الحصول على نصيب عملي، مرحلة الانتقال من الخطب لمعانقة الجماهير، زوجة الضابط بمقام الضابط.

حين آصبح رئيسًا لنقطة شرطة وخرج لسبب آو لآخر لمعاينة غريق آو للفصل بين متنازعين، قبضت على دفتر الأحوال، تابعت حضور وانصراف الخفراء، من تأخر عن الحضور، ومن تأخر عن الاهتمام بالبط والإوز الذي تربيه فوق سطح النقطة، تشخط وتنطر بل وتعاقب، عقابها سريع للردع العام ووضع أول لبنة في الصيت الجديد، وضع الخفير غذاء الأرانب للبط والإوز، فما كان منها إلا أن طلبت منه الوقوف "كتفًا سلاح"، وأغرقته هو وجلبابه وبندقيته ودهشته بخرطوم المياه.

في سكنها أعلى مبنى النقطة جهاز إرسال واستقبال البلاغات مع المركز، كانت ترد أثناء نومه أو حين خروجه لبلاغ أو مأمورية، مع الوقت احتكرت الجهاز، الزعيم يحتاج ميكروفونًا وإذاعة ليتصل بقوى الشعب العاملة، أصبحت المتحدث الرسمي مع المركز والمديرية، تزغظ البط وتعزم المأمور والضباط، تسأل رئيس المباحث عن الجناة في جريمة قتل وتطرح عليه الحلول، تتابع حركة التنقلات، وتواسي من تم نقله أو تهنئه إذا تحرك لمكان أفضل، تربط الصلات وتعرف مواعيد الترقيات.

لم تكن تحتاج لأن تلتحق بالشرطة النسائية، خلقت شرطة نسائية شعبية، وأصبحت الداخلات لها لمعالجة القضايا أكثر من الذين يدخلون النقطة نفسها، والمأمور يقترح أثناء عزومة فاخرة أن تمنح رتبة شرفية نظير مجهوداتها في ضبط الأمن وإقامة الولائم الفاخرة.

عاشت في الدور،عاشت به، وزوجها كما هو يعيش بالعرض كما كان يلعب بالعرض.

فجأة مات، أوقف سيارة في طريق العودة من مأمورية في القاهرة، كان سائقها بلا رخصة، اعتقد أنه سيقبض عليه فزاد سرعته، وهو أراد أن يعود لابنه الوحيد بسرعة، تحرك بغشم الطفولة لا سلطة البدلة في اتجاه السيارة فرحل في لحظة.

ربما أوجعها الموت، لكن ما أوجعها أكثر غيابه عن مقعده أسفل كنبة الزعامة، غاب شعبها مرة واحدة، ربما أول شعب في التاريخ يرحل ويترك زعيمه، تفيق من النوم لعله كان كابوسًا ومضى، تنسى ما حدث وتصعد فوق الكنبة، لا تسمع هتافات، لا تسمع تصفيقًا ولا ترى

سوى أشباح أحلامها.

تكاد تجن، تستعيد كل اللحظات، تفرد كفها وهي تجلس وحدها أو وهي بين الناس، تجدها فارغة.

غاب الشعب وضاع الميكروفون.

أنظر اليها غير متعاطف معها بالمرة، أضاعت زوجًا من العيار الحنون البديع، تكاد تسبه، أضاع عليها بموته فرصتها، كان يجب ألا يموت الآن، قبل أن يصبح مدير الأمن وهي مديرته، لتصعد على أكتاف أحلامها، أراها بائسة لم تستطع أن تركب شرها الجميل لنهاية الطريق، حرن منها كحمار غبي رمى حمولته في المنتصف، نعم بائسة، لم تستمتع بالعيش تحت جناحه ولا بجناحين يرفرفان معًا، مشت فقط خلف شهوتها، عيونها حاضرة وبكاؤها اختفى، ما غاب يحتاج لآبار من المدامع.

الأحلام بطيئة في هذا الوقت، بل ميتة، ربما لا تبكي عليه بل تبكي على نفسها، لكن أجمل ما فيها أنها الوحيدة التي تحلم، حتى ولو كانت أحلامها على مقاس مخها.

تحاول أن تستعيده، توقن أنه مات هربًا منها وهو الخفيف على الروح والموت، ما من مرة طلب طعامًا معينًا، يأكل ما يقرره القائد، والقائد يطبخ الملوخية بالأرانب والسمك بالأرز الأحمر، وتنتظر، تنظر في الساعة على الحائط، تستحم، اقترب ميعاد عودته، لكنه لا يعود.

أنظر إليها، من يعيد لها الشريط من أوله، في عينيها ظل رجل هارب، ظل كاذب أو مراوغ، استعادت دموعها ونهنهت، المرأة التي تُنهنه بعد وفاة زوجها تعد نفسها لحدث آخر، كأنها تفكر أن تبحث مرة أخرى عن شعب كامل في إهاب رجل جديد يعيد لها المشهد ذاته، وعندما تتيقن أنه كان نسخة وحيدة وفرصة وحيدة ومضت دون رجعة، وأن شهوة الزعامة ما زالت نابضة في عروقها لا تفكر في رجل أو شعب آخر بل تصعد مرات فوق الكنبة ذاتها، تلبس الكاب على رأسها، تضبط مقاسه، تجرب حنجرتها بأصوات متعددة، بطبقات حماسية وأخرى حنون مملوءة بالوعود، تخطب وترى جماهيرها وحدها، تفكر بصوت

عالٍ في الترشح لعضوية البرلمان وخوض الانتخابات التي تتيح لها آن تفرغ شهوتها أمام الجماهير والميكرفونات وأن تنتقم على طريقتها من غيابه.

١٨

العائلات أنواع، عائلة كل ذكورها قادرون على الحسد، من يقع في مرمى أعينهم سيلزم السرير والأطباء والمشايخ، لا أدوية تنفع ولا وصفات تشفع، محصنون، لا يحيق بهم المكر السيئ لشدة سوئهم، لا أحد يحسدهم ولا يجرؤ سوى زوجاتهم، لكنه حسد الغبطة يرتطم بالقوائم والعارضة دون أن يدخل المرمى.

عائلة تعيش بهائمها لسنوات، تلد أسرع من الخيال، في البطن بطنان، دارهم تفوح دائمًا برائحة السمن والمورتا واللبن السَّرْسوب، ذاك الذي ينساب من ضرع البقرة أو الجاموسة بعد الولادة مباشرة، يحوي كل فيتامينات العالم، السر الباتع للعرسان والرجال الذين تعطل محراثهم.

كل عائلة بملمح أو لون، خمري، كالح أو أبيض ولا يعرف أحد سبب هذا البياض الغريب في بقعة كهذي، نطة إنكليز أو فرنسيين حتى وصل الحبل إلى الأتراك.

كل عائلة بعلامة أو ملمح، حتى هذه العائلة، لكن علامتها بها غرابة، تخلو من الذكور، البنات على قفا من يشيل، ما إن تمد رأسك عندهم قاصًدا أو صدفة حتى تقابلك ضفائر وروائح ومؤخرات ونبرات متكسرة ومع ذلك تمتلئ الدار بالذكور، حبل الغسيل مملوء بجلابيب رجالية مدسوسة، من يريد أن يخطب ومن يتسلى أو يتسهوك أو يبحث عن هجالة أو مطلقة، دار تتبعها العيون بل تطارد كل طلة منها كأنها دار المتعة، نساء يدبرن أمور بعضهن ويتواطأن معًا تحت قانون داخلي صنعته دماغ أنثى ومشى كالحرير على رقاب الباقيات.

لا تسمع لهن حسًّا خارج الدار كأنهن يعرفن أن عدم وجود رجل من صلبهن يجعل حائطهن قصيرًا في مكان شرس، من يملك فيه خرطومًا كأنه يملك بندقية، أمورهن تحت السيطرة على السطح، شبابيك مغلقة كأنك في قلعة، إلا واحدة، توارب الشباك وتلاغي طوب الأرض، جميلة وحرون، يريدون أن يتخلصوا منها في أقرب فرصة، هائجة، وهن رغم كل الموسيقى التي تنبعث من دارهن بنات أصول، دمهن خفيف،

رزقهن من الدنيا.

حط عندهن الأستاذ محمد ليتفرج على عروسة: عندنا البيضاء والسمراء والسمينة والرفيعة، ضفائر طويلة وشعر أكرد وغمازات والثعلب فات فات وأنت وما تشتهي.

الأستاذ محمد حاصل على دبلوم تجارة للتو وهي أعلى شهادة دخلت بلدنا في ذلك الوقت، شهادة لها شنة ورنة، شعر لامع مدهون بالفازلين وهو نادر أيضًا وأفضل ما وصلنا من أدوات التجميل، ما إن دخلت العروس حتى دارت ولمت بحساب جلبابها من الخلف، حزته قبل أن تجلس لتظهر مؤخرتها، ما إن فعلت ذلك حتى ظهرت ابتسامة الأستاذ محمد إيذانًا بالموافقة. فسحبت الجلباب وشمرت لأعلى قليلًا.

لم تنطلق زغرودة بعد، لا بد من خال لهم حتى يطلب العريس يدها رغم أنها قدمت أوراق اعتمادها بساق كالبنورة، ما حدث كان غريبًا لكن يبدو أن "التخين كان في القعر"، فعلى غير ما يحدث أو تفعله الفتيات في هذه المواقف، انتفضت العروس المرشحة من مكانها، طارت في الهواء ثم هبطت كمصارعة من وزن خفيف الثقيل فوق الأستاذ محمد، هجمت عليه حرفيًّا، لطعته وقطعته بالقبلات في كل مكان يخطر ببالك أو لا يخطر، وهو فتح عينيه وفمه باستغراب ثم ابتسم بفرح كأنه ديك أحمر على عشرين دجاجة، لم يظهر عليه أي أثر للقلق بل بدا منتشيًا بالقفزة لأنها لم تحدث لعريس من قبل، شافها على حقيقتها، لم تمثل أمامه، وربما أحبها في اللحظة نفسها، كانت الثقة بادية عليه تكاد تخرج من مسام أجنابه، بدا متأكدًا أن كل ذلك حدث بسبب وسامته ودبلومته، وأن فازلينه قد دفعها لحافة الجنون.

فرح أهل الدار جاء مضاعفًا، كسروا وراءها كل القلل، مصيبة وغارت، كالعِرْسة كان من الصعب الإمساك بها أو السيطرة عليها، سمعتُ إحدى عماتي تهمس: بنت عشاقة تحب الرجال، عندها مرض السودة، يصيب النساء الشبقات بشدة، لا تستطيع أن تقضي ليلة دون شيء يهرش لها، وإن لم تجد تحك ظهرها في الحائط، تعشق

ربع رجال البلد الذين يشاغلونها من زمان وآنها ربما ليست بكرًا، على الأقل من الخلف وإن كانت قد نجت من الحبَل.

طالما هناك نساء فهناك نميمة، وطالما هناك همس فهناك أسرار.

جميلة وطويلة، طولًا تكسره منحنيات وتسرقه قباب، وضفائرها خرجت من طرحتها تضرب في كثبان من لحم متماسك، بياض محبب حي، وملامح مثيرة، منحة الحياة لها، تعرف وتضحك بمرقعة ورضا، وتقفز على العريس كلما حضر كأنها تبتكر نوعًا جديدًا من المصارعة.

شيئًا فشيئًا ينكشف المستور، خاصة مع امرأة وفية لنفسها، لم تأت لدار عريسها وحدها، قالوا جاءت بذكورها الذين انتظروا افتتاح الطريق رسميًّا، صاحبوه، عزموه ودللوه واقتسموا دلالها معه، يشربون الحشيش ويشرب، يصعدون ويصعد، احتفظ اثنان منهم بمقاعد دائمة، واحد غني طفس يصرف على الجميع وواحد صايع لزوم المزاج الحراق، يدخل عليهما أحيانًا لاعب جديد لكن سرعان ما تستبدله فجأة بلاعب شاب جديد، الكل يعلم والكل كأنه لا يعلم.

تفعل كل شيء ببساطة، في الشارع حين تقابل من كان في حضنها منذ ساعة تسلم عليه كأنها لم تره منذ عام وتحمد الله على سلامته علنًا.

لديها قدرة غريبة على اختصار الوصول، من يلف ويدور عليها إن أعجبها تقول له مباشرة وهي تغمز: «أنت عاوزني»، ومن لا تريده تخفض حاجبيها وتمضي كأنها عذراء.

ويل للرجال من امرأة داهية تعشق الرجال.

وويل للرجال من امرأة رائقة بثلاث مخدات، تحمل اثنتين في الخلف وتنام سرتها وحدها في وسط الثالثة.

ليس ذنبها أنها تموت فيهم، ليس ذنبها أن مقعدتها ساخنة على الدوام ولو تحممت بالثلج، تحبهم، وجدت نفسها هكذا أو ولدت هكذا، تعشقهم، تعشق المال والأكل، وتحب المنجهة.

تحب الجديد والتجديد، وكلام يتطاير في الهواء، لا تعرف لماذا تغادر عقلها أحيانًا، كأنها تؤكد وفاءها لنفسها، وأنها تفعل ما يرضي شَبقها، أو كأنها تبحث لنفسها عن سبب للخطأ، وربما في النهاية كلام الناس.

اللعبة مكتملة والأشياء معدن، ناس تدخل وناس تخرج بميعاد، كأنك في مرحاض عمومي أنيق، كأنك في قسم للشرطة تبث شكواك، سعيد لأنك أنجزت ولأنك أيضًا متهم ، وأهل زوجها يسمعون وينكرون، نسخة واحدة في الأداء وفي رد الفعل، متشابهون في الملامح بشكل غريب كأنهم توائم، لو دخل شقيق لزوجها ونام في سريرها ربما لن تعرفه لشدة الشبه، كأنهم ديوك دون ريش على الرقبة.

قرروا مراقبتها، تفاجئها أخته أحيانًا في غرفة نومها بأي حجة، تجدها نائمة فوق صدر زوجها لا يستطيع منها فكاكًا فتنطفئ الشائعات.

لا تنسى اللقطة الأولى بل تستعيدها وتكررها، لكنها تنسى من كثرة اللقطات، تقفز عليه وغيره يقفز عليها، لكن ما خرق قانون اللعبة أنها لم تنجب ولدًا واحدًا أو بنتًا تشبههما، من ينظر لأولادها لا يجد عينًا أو أنفًا واحدًا يحلف عليه، كأن كل واحد جاء من ظهر مختلف، كل واحد ملامحه مشتبكة مع ملامح عائلة أخرى، وحماتها تجلس مع عمتي، وبحسرة في العين تنضح في اللسان تهمس لها: "هذا ابن فلان وهذا ابن فلان"، ثم تستدرك: "كأنه أبوه".

لا أحد يعرف، أين تسجل قوائم عشاقها! على الحائط أم على سيقانها!

الستر قانون أعمى، بل سيد القوانين، البعض يؤكد أن حماها أكل حقوق إخوته حتى آخر قيراط ولم يترك لهم شيئًا، جمع كل الفلوس الحرام وحده، أطعم أبناءه سحتًا والدم الذي يجري في عروقهم لن ينتج ولدًا من ذريتهم أبدًا، فكما أكل حقوق الجميع سيظهر له الجميع في أحفاده، حتى زوجها كان مرتشيًا طيبًا، لعل الحياة كافأته بما يلهيه، ويل لمن يعشق امرأة يسمع أنها تخونه!

ضبطها شقيق زوجها مرة، استثار نخوته أحد الذين ذاقوها ولفظته،

استعاد حماها لغة الحق وطلب من زوجها آن يطلقها، كانت الفرصة متاحة لكنس الماضي، لكن زوجها رفض بشدة لأنه يحبها بل قال علنًا إنه يحبها.

لم يكن الحب هو السبب الذي دفعه لقول هذا، بل مد ذراعه كأنه وضع يده على السبب الحقيقي وقال: "إن من ضبطوه معها هو رجل قليل الأدب والحياء وليست هي".

ربما كان قد عرف قبل ذلك أنها تمشي في الشمال، لكنه يصدقها ويصدق قلبه الذي يضحك عليه، حين تجرأ وفاتحها مرة أفحمته وأقنعته أن الناس تظلمها لأنها جميلة ولِوْنَة وهي ست الستات، وإنها ضريبة الجمال والغيرة.

ربما كانت صادقة، وما يقال من خلفها ليس إلا نميمة مجالس لأنها امرأة فاتنة نِغْشة تحب المزاح والحياة، ذهبتُ عندها وأنا طفل ألعب مع أطفالها، أواسيهم بعد أن مات زوجها، غلبني النوم فنمت، وأبي وأعوانه حرثوا الدنيا بحثًا عني، لم يكتشفوا غيابي إلا بعد الفجر، ولولا أن الترعة كانت آسنة لحرث أبي قاعها خوفًا من غرقي، في الصباح بعد أن عدت استجوبتني أمي المرعوبة من أن تكون هذه المرأة قد لعبت بعدَّتي، قلت لها: إنها طيبة وحنونة وإنها تعرف أناسًا كثيرين يحبونها ولا تفتح الباب لأحد رغم أن الدقات على الشباك لم تنقطع طوال الليل وهي ترد على كل واحد باسمه، وإنني أتذكر كل شيء تقريبًا، إذ بين النوم واليقظة قالت لأحدهم: «أنا لسه في العدة يا حاج محمود».

١٩

صص الحب تحدث في كل مكان وكل وقت، مسموح بها عندنا في الخفاء فقط، تعيش مختبئة تحت لافتة العيب، مئة خط كبير تحت شهوة البوح ما بالك بالمجاهرة، الخطوط الحمراء كثيرة لكن هذا أشدها احمرارًا، من ينجب لا يستطيع أن يتحدث عن مولوده في حضرة أبيه أو كبار القوم الذين يصلهم طرف الخبر من أفواه النسوان.

ربما كانت قصة حب محمد نجيب وفوزية أول قصة حب تخرج للعلن في تاريخنا، أول واحد عشق وباح، كان الحبيب قبل غزوة نجيب يخفي غرامه ويعصر قلبه حتى يأذن له أهله فيذهب للسهر عند أهل حبيبته، قد يراها لنصف دقيقة وقد لا يراها، الرؤية مفسدة والشوق عيب، إلا حين تخطر بصينية الشاي، تضعها دون أن ترفع جفنها أو في اللحظة التي تمد رأسها فقط من الباب تنادي على أخيها بصوت طري خجل ليأخذ الصينية من يديها، قد يلقط الحبيب نظرة وقد يستحي، المهم أنه سمع الصوت ووصلته الإشارة، قلبه ينبض وجيبه عامر باللب والسوادني، يجلس صامتًا كتمثال في البداية، الترحاب بحساب بلغة متحفظة كأنه سيخطف ابنتهم، وحين تسخن القعدة وتنفك أسوارها يفرط العريس المتقدم بحركة مفاجئة ووجه مبتسم ما معه على طاولة أو على طبلية ويحلو الكلام.

وحده محمد نجيب الذي سمي على اسم رئيس الدولة آنذاك هو من جاهر بقصة حبه وضرب ضربة البداية، أحب وأعلن وخطب، بدا ذلك غريبًا علينا لكن مع الأيام ربما عرفنا العلة، من يومه مختلف عن أقرانه أو يريد أن يكون مختلفًا، يمشي وسطهم كأنهم يمشون وراءه، تشرشل له عبارة تصدق على نجيب مع أنه لا يعرف تشرشل ولا عائلته: "من يريد أن يحكم الناس عليه أن يعرف تاريخهم".

معجباني مع أنه ابن ناس يقضونها بالستر، كان أول واحد يشتري مكواة حديدًا في البلد، المكواة الثانية التي دخلت البلد مع فارق مهم أن الأولى وهي مكواة أبي تعمل بالكهرباء، أول واحدة تعمل بالكهرباء وإنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، من النوعية التعبانة التي تستلزم أن تذهب إلى البندر كل ثلاثة أو أربعة أشهر لتغيير السلك الداخلي الذي يشبه

تمامًا سلك السخان البدائي رغم آن آبي عاش يعتقد آنه سيدخل موسوعة جينيس بهذه المكواة، وجود السلك داخلها وعدم معرفتنا بتكوينها أضفى عليها غموضًا ومهابة، إلا أن ذلك لم ينقص أبدًا من أهمية المكواة الحديد عند محمد نجيب، إذ ظهرت آثارها واضحة على الجلباب اليتيم الذي لا يملك غيره، إذ ينتظر في الدار نصف النهار حتى ينشف على الحبل ثم يقضي ساعتين في كوائه وحوله أصحابه كأنه مبعوث الحديد الجديد أو الأناقة إلى الأرض، يقول بثقة وهو يمرر المكواة: "لن تنتهي الحياة إلا حين تتعطل آخر قطعة حديد على الأرض".

السبب الأهم في قدرة نجيب وفوزية على مواجهة المجتمع بقصتهما أن نجيب قد تم تعيينه بفضل الله وبفضل مواهبه مخبرًا في المباحث في مركز قريب، ومن ثم فقد اكتسب حصانة ووجاهة وتزلفًا من البعض، كل صباح يأخذ قفة من دعوات النساء أن ينصره الله على الحرامية الذين خربوا البلد، وعليه فقد اكتسب جلبابًا آخر في أول شهر تبعته جلابيب فيما بعد، وطاقية طويلة على رأسه معروفة باسم طاقية المخبرين يتباهى بارتفاعها إذ تدل على علو مقامه، يرجعها قليلًا للخلف كي يظهر بعض شعره الناعم.

معوج الرقبة حين يمشي كأنه صار مدير أمن المحافظة، بملامح كاسحة وعروق رقبة نافرة، شديد الضيق، تمنى لو أن ميلاده تأخر قليلًا فسمي على اسم جمال عبد الناصر المتوهج الكاسر بدلًا من نجيب الآفل.

كان من عائلة معروف عنها أن ذكورها يملكون آلات كبيرة، شاهدها أقرانهم حين أخرجوها في وقت رائق في الحقول أو أثناء هزار وجموح الشباب على الكوبري بعد أن ينام الناس، إذ يطلب منه أصحابه ذلك "ورينا الفيلم يا نجيب"، ولا غضاضة بينهم. توارثوها سمعة وأعضاء، ولم يعدم الأمر أن صاحبات فوزية كن يمازحنها بل يحسدنها على حظها الكبير.

معروف أيضًا عن نجيب أنه يحفظ بعض القصص وأناشيد المطربين الشعبيين، بل ويرددها، حين يحكي يخلط قصة غرامه مع قصة أبو زيد

الهلالي والجازية، بل وصل به الأمر آن آكد آن قصته مع فوزية: نجيب وفوزية سوف تغنى في الليالي الملاح مع الوقت جنبًا إلى جنب مع قصص: سامية وجمال، وقصة سارة وعمارة، بعد أن أصبح عضوًا شرسًا في الحكومة يذود عن الجبهة الداخلية كما يتردد في الإذاعة.

قصة خالدة وعنيفة بلا شك، بها كل عناصر الدراما شغلت الناس وقتًا طويلًا، طالما أنه في المباحث وجهر بحبه لفوزية ومعجباني بمكواة حديد وخرطوم يشرف صاحبه، بل دشن أول قصة حب علنية ويكفيه هذا ليدخل تاريخ المنطقة.

الموضوع صار حكاية تحكى مع أن الحب ليس على صورة واحدة كما يتخيل البعض، هنالك قصص طرية تقع أثناء عملية درس الأرز، المكوم فوق بعضه، نسميها "رمية رز" لعرامتها وتكدسها، يؤمها الشبان والصبايا معًا بغير ترتيب أو تقسيم، شاب وصبية ثم صبية وشاب، ترتبها الفطرة وأحيانًا الغواية، يتلامسون بالخطأ خوفًا من الأعين، يتلامسون قصدًا، يعبطها كأنه يساعدها، وحين ينتهون يعبرون على الأقدام إلى رمية أخرى في حقل آخر، في الطريق بين رميتين في قلب الظلام أو نور خفيف يلوح من بعيد جدًّا تصطدم سيقان وتحتك أفخاذ وتتشابك أصابع وتنفرط وقبلة خاطفة من شفاه متعطشة فوق جباه متعرقة، ماؤها عذب مهما أسِن، لطعم الملح طعم الحب، ولا يخلو الأمر أبدًا من اثنين يدخلان خفية إلى عشة إن كان الطريق طويلًا كأنهما اختفيا لقضاء حاجتيهما وهما في الحقيقة يقضيان حاجتهما.

القصص الأكثر طراوة ووجعًا تقع أثناء تنقية الدودة أو جني القطن، هنا ينمو الحب على أصوله وتحت عين الدولة، الخولي أو رئيس الأنفار ممثلها، والشعب أمامه في حالة انحناء، كله محني بمؤخرات في عين الشمس، في الليلة أو الليالي السابقة هناك اتفاق غير مكتوب، من يعشق واحدة سيسرح معها للحقل ذاته، يتفقان همسًا أو بجملة واحدة أن يجنيا القطن أو ينقيا اللطع من الدودة غدًا في حقل فلان، وحدك ستعرف الموافقة ومن سيسرح مع من حتى لو كنت طفلًا مثلي تجلس على كوبري البلد بعد أن غسلت أقدامك في الترعة وجلست حتى تنشف خائفًا من أبيك، عيون تهمس وأصابع تشير وتتكلم.

لا تعرف من أين تأتي هوجة الحب، كأنه موسم مثل موسم البرتقال واليوسفي، وجوه تزغرد رغم قلة الحال، رغم أن صاحب الأرض فوق رؤوسهم يتحكم في الجميع، ربما يأتي من التشابه في الفقر والانحناء، كلهم فقراء، وكلمة الحب على لسان الفقير ليست كأختها على لسان غني، ربما هي الحاجة، نعم لعلها الحاجة، تجعل الاحتياج للحب أكبر من الاحتياج للأكل نفسه، تحله محله وتصبح الزاد.

وأنا صبي، في أول مرحلة البلوغ، حيث السوائل تَنِز من القلب والجسد، عيني على وردية، اسمها هكذا رغم أننا في آخر بلاد المسلمين، نفدت من أسماء سيدة وصبيحة، عيني عليها وهي الرقيقة كأنها ستطيح مع أول هبة ريح، أجمل البنات في عيني، جميلة وهي تنحني وأنا على حرف الحقل أتمنى أن أمد يدي لأشبك يدها، هي بنت الغلابة وأنا ابن الذوات في عرفهم، لا أنتظر حتى تطلب شربة ماء، أمدّها بوجل لمن يجاورها أولًا حتى لا يلحظ عمي نظرات العيون.

أول صبية نظرت في عينيَّ وأطالت، كانت نظرتها أحن بكثير من فاطمة بنت الذوات، نظرة تدعوك، تقول بخجل وتمنٍّ: أنا في انتظارك.

زميلتي في المدرسة، أذاكر لها، فشلت في الدراسة لسوء الحال، لكن الفشل في الدراسة لا يجب أن يجر خيبته إلى الحب.

وابن عمي الأكبر يردد بلوم وهو يجحظ عينيه في وجهي: «ابن الذوات يتزوج بنت البكوات!».

أفكر في ذلك وأنا شاب أراهم في حقل عمي، ربما هناك سبب آخر لهوجة الحب هذه، لعلهم مكسورون من الدنيا بلا عائل أو مات عائلهم من الفقر والحرب، والمكسور يرفعه الحب كما يرفع الفقير تمامًا.

الجميع بظهور محنية طوال العام بل طوال العمر، يرمون شتلات الأرز أو يجنون القطن أو ينقون الدودة، أجساد منخفضة وعيون في الأرض، ربما لهذا كانوا يحبون بقوة، حبًّا متقدًا كأنهم يواجهون به الفقر والانكسار، تتسلل كلمات الغزل بين خطوط القطن، تحضر الأعين والنظرات كما لا تحدث في الأفلام، لا مانع من قرصة خفيفة في

الفخذ، القرص في الفخذ دليل حب الفقراء، حب المتعبين، والقطن يضحك بين أيديهم، يضعونه في حجر جلبابهم بين أفخاذهم.

كلمات حب بين الخطوط، تتفتح مع لوز القطن وواحد يغني: «كعب البنت ريال مدور، ياما خلق ياما صوّر»، أو جملة هاربة من ديوان الأبنودي، حراجي القط وكلامه وكلام فاطنه له.

وعين وردية تناديني وظهرها متقوس، عيونها تسعة، تفتقدني كلما غبت، كأن انحناء الظهر يزيد الإحساس بالاحتياج، ليست وحدها بل عند الجميع، تنتظر نظرة، لمحة تغسل تعب الأسى والنهار، كأن الحب يمنع كسرة النفس، بل يمنع الانهيار.

وأمي حين رأته في عيني قالت بحزم: «أولادها سيدخلون المدارس قبل أن تتزوج بزمن، وحب القطن ما بيعملش مراتب».

ربما ليس حبًّا كما قال ابن عمي الخبير بالحب، هو احتياج في الحقيقة، وربما بذرة أو مشاعر تكبر بالاحتياج: وسيطير، سيطير.

حتى حب محمد نجيب طار، حكايته تحكى من بعيد كأنها أثر، يبدو أنه تخلى عنها كليًّا إذ لم يعد يأتي على طرف خبر لفوزية، غرز في المباحث وترك حبيبته، لعله لم يعد يشعر بالحاجة لأحد وليس في قلبه مقعد فارغ بعد أن عشق السلطة، لم تهتز طاقيته الطويلة حين تقدم أحدهم لخطبة التي كانت تسمى حبيبته..

السلطة تضعف المشاعر، تزيحها للمرتبة الثالثة.

الحب أحيانًا كذاب ومنافق، يجور على الضعيف والطيب ويخاف من القوي والصايع.

من يفكر في حكايته واللهب الذي أشعله، والشعلة التي كان أول من أوقدها كأنه بطل في أوليمبياد الحب يجدها حدثًا عارضًا، سميّه أيضًا كان عارضًا، حدوتة تذكر ولا تعاد، ولعلها ماتت حين قفز جمال عبد الناصر على السلطة فقفز معه، وبدت حكايته كنتوء وسط أرض بكماء طواها النسيان بل سرحت فيها الفئران حول أرجل فوزية كما سرحت

حول آرجل الرئيس نجيب في القصر الذي سجنوه فيه.

ترك حبيبته وحيدة لمصيرها، وأنقذته المباحث وأخذ بطولته لمكان آخر.

الثابت في قلب الناس حتى ولو لم يقولوه بلسانهم أنه كان يريد أن يكون بطلًا لأي شيء؛ فاخترع قصة الحب واشترى المكواة ليكون رقمًا أو كي يصير في الضوء.

النهايات تكاد تكون متشابهة بين العظيم والغلبان أحيانًا، بين المعجباني والمنحني، عندما تنتهي مقاومة دودة القطن أو موسم الجمع تنتهي معه جُل قصص الحب، لا تكتمل، كأنهم قد تحرروا منه، من الانحناء، أو تحرروا به فصاروا أكثر تمردًا حتى على أحلامهم، اختفى الإحساس بالاحتياج ولم يعد موجودًا، أنظر إليهم بعين الصبي وأفكر الآن، كأنهم عصافير بأجنحة مكسورة عاشوا يحنّون لشجرة تأويهم كأنها الحب، وحين برئوا من كسورهم مثلها طاروا بعيدًا، لم يعودوا في حاجة لها، كأنها تذكرهم بكسرهم ووجعهم، وربما في النهاية يحتاج الفقراء حتى للتمرد.

طاروا جميعًا وتركوا الحب للغريب والوحداني.

كان محمد عطية يحب بقوة لأنه وحيد أبويه، لم أرَ في حياتي بؤسًا كبؤسهما ولم أرَ حبًّا مميتًا مشتعلًا كحب هذا الوحيد.

الوحداني يحب بقوة والضعيف والغريب، قانون الطبيعة عندنا، جاء جميل غريبًا لبلدتنا لا نعرف من أين، من الأعالي حيث المنوفية والغربية، انضم إلى عائلة لكنه ظل بعيدًا، ظل على مسافة من القلب لأنه أعزب، محسوب عليهم في الملمات فقط، في قلب القطن أحب جميلة بعنف وبادلته العنف، في اليوم الأخير لجني القطن كاد يطير من على الأرض لأنها كلمت أمها ووافقت على زواجهما، هو غريب وهي وحيدة، والغربة مع الوحدة ستصنع على الأقل عدسًا دافئًا أيام الشتاء، يمشيان معًا آخر اليوم كعائدين من الحرب للحب، من فرحته قفز في حقل مجاور ليقطف حبة طماطم أو خيارة، لَقط واحدة، أكلها وهو يضحك وهو يعابثها ويراوغها بها، في عز البهجة التي تحيطه صرخ

صرخة آفزعت الجميع، كان الحقل مرشوشًا بالمبيدات وهو لا يعرف.

يتلوى على الأرض وهي تصرخ نيابة عنه، الموت كالعادة يكنس الحب والفرح، أغمض عينيه على وجهها، نام على ركبتها وفارق دنياه قريبًا من صدرها، حين تأكدوا من موته انفضوا من حول جثته حتى تحضر عربة الإسعاف.

تركوه على ركبتها.

وحدها جميلة تضع يدها على وجهه، ثم تمررها بلا خجل على ظهره كأنها تتأكد بنفسها أن الانحناء قد غادره وأن ظهره استقام مرة ولو أمام الموت.

٢٠

لا أعرف من قال إن الحب مرادف للمشي، لا بد أنه واحد من عندنا قضى نصف شبابه على الطرقات الخشنة كي يصل محبوبته، وعندما أوجعته قدماه اللتان تشققتا من المشي حافيًا على الحصى وقلاقيل الطين الناشف، لزم بيته بالوجد والألم لعدم قدرته على معاودة الوصال، ثم أنشد بيت الشعر الذي صار علامة على وجع وولع المحبوب: "آه يا رجلي الوجعاني، حايشاني عن الزين الغالي".

منظر معتاد أن ترى واحدًا يمشي بقدمين متشققتين على أرض متشققة، فهو إما عاشق أو طالب في المدرسة يخشى أن ينقطع نعل حذائه اليتيم فلا يكمل به سنتين من الدارسة.

كان عليّ كي أصل للمدرسة الثانوية أن أمشي أكثر من ثلاثة كيلومترات على الأقل ثم أركب سيارة لقرابة عشرين كيلو، وإذا انقطع الطريق بسبب سيول المطر سنضطر وقتها أن نغيب عن المدرسة أو نسلك طريقًا آخر به معدية أو صندل كما كنا نقول، وحين يتعطل وكثيرًا ما يحدث فعلينا أن نمشي فوق سطح البحيرة، نتبختر على ورد النيل الذي غطى سطح الماء كأننا نمشي على طريق معبد، نمشي كالأولياء، تحول الورد إلى صديق لنا ولم يخنّا إلا مرات قليلة حين كانت وردة تغضب من رفيقها لأنه غازل وردة أخرى، تنسحب بعيدًا عنه، تفك خيوطها من خيوطه فتنزلق قدم الواحد منا داخل الماء ليبتل البنطلون حتى أعلى الساق، نركب الأتوبيسات بالبلل، نتدفأ عند أقرب محل فول على الطريق إلى المدرسة حتى ينشف نصف نشفة، وقد ننتظر حتى يجف فتضيع منا الحصص الثلاث الأولى، أي نصف اليوم الدراسي تقريبًا.

كنا أربعة نقطع الطريق يوميًّا سيرًا على الأقدام، شاويش في نقطة شرطة على مسافة عشرة كيلومترات، وشاب عايق لا حديث له إلا عن الزواج، يكاد يتزوج على نفسه، لديه دكان يأتي ببضاعته من المدينة مع بعض الصحف، وواحدة فارهة الطول بسمرة الريفيات، بتقاسيم مدورة تتلوى تحت جلبابها الطويل، في وسطها من الخلف مُتَّكَأ بارز يصلح لتضع قدمًا وتصعد عليه، صاحبة دكان خضار، لم يكن

عندنا دكان خضار وفاكهة قبلها، لم نكن نعرف الفاكهة كما يعرفها الناس، بلح يأتي من البعيد، أو جوافة لا يدفع الناس ثمنًا لها، بل يقايضونها بصحن من الأرز الشعير، لم نكن نعرف المانجو، والعنب يأتي أحيانًا ولصعوبة اسم الكمثري كانت النساء تطلق عليها مترى، لم نعرف الخوخ ولا المشمش إلا عندما ذهبنا للمدن، ما كان يأتي إلينا لم يكن سوى كناسة الفاكهة، كنا فقط نرتع في البرتقال واليوستفندي بسبب قربنا النسبي من أراضي إدفينا حيث قصر ومزارع الملك فاروق، فقط لم نعدم القصب الأحمر الذي عشنا نعتقد أنه أفضل من القصب الأخضر في الصعيد، والرمان يختبئ تحت ملابس البنات، يظهر في المواويل أكثر مما نراه في الدكاكين، وبدت البائعة لنا على اختلافنا كدكان مكتظ بالفاكهة التي نحلم بها ولا نعرفها.

نمشي، كل يوم نمشي، واحد واقع في غرام البوليس يحكي لنا كل صباح حكايات المجرمين نتدفأ بها من برد نشفت أصابعنا منه حرفيًّا، يحكي لنا نصف حكاية حتى نصل، أحيانًا يقف فجأة وسط الطريق ليمثل لنا كيف قبض على المتهم، أو الشباب الهاربين من التجنيد وسط الغيطان، يفيقون من نومهم على شاربه، يجذبنا من ملابسنا، ينالنا بوكس خفيف في الوجه، أحيانًا يجري لمسافة قصيرة، السعادة تلعب على وجهه، يعرف أننا نصدقه من أفواهنا التي انفتحت من الدهشة بالبخار الكثيف بفعل البرد، كان أكثرنا دفئًا من رجْع حكاياته على محيانا ومن بدلته الميري الصوف والبيريه الذي يعتمره.

صاحب دكان الجرائد يحكي في الوقت المتبقي من الشاويش عن الزواج، يمطر الشاويش بالأسئلة لكنه ينظر ناحية صاحبة الفاكهة ينتظر الجواب، يقول للشاويش: أنت مدرسة وبصوت خفيض يقول للمرأة التي كانت متزوجة ومات عنها زوجها: أنت خبرة، الشاويش يضع أمام سيقاننا عصارة تجربته مع قضايا الزواج التي صادفته في البوليس، والمرأة ترد بجملة واحدة تكنس كل ما قاله، يقول كحكيم وهو يبرم شاربه: "الزواج استقرار"، والمرأة ترد: "الزواج لعب".

شاب أهوج وأرملة منطلقة وشاويش حكيم وأنا بكل هرمونات طالب الثانوية العامة.

وبائع الجرائد لا يكف كل يوم عن السؤال ذاته، يبحث عن الدفء ويبدو أنه وجده، تصطدم ساقه من الأمام بساق بائعة الفاكهة من الخلف، نصف مؤخرتها في نصف حَقَوَيْه، يفعل ذلك طول الطريق ربما ليتأكد من دفء فاكهتها الشتوية وأنا أتحسس قلبي تحت البلوفر الأنيق السميك، أكثر دفئًا منهم جميعًا، حبيبتي لم تقم من نومها بعد لكنها ستلحقنا عند القطار.

يقف الطلبة على محطة القطار لا يصعدون قبل أن تأتي الحبيبات، وحبيباتنا طالبات في أوان فورة الغنج والدلال، يوقنَّ أن القطار لن يتحرك قبل أن يصلن جميعًا، لن يستطيع السائق أن ينطلق ولو ركب مكانه مدير المحطة نفسه.

محطة جميلة كالأحلام من مخلفات الإنكليز الحلوة رغم كرهنا لهم في حصة التاريخ، نعم نكرهم في حصة التاريخ لما فعلوه بنا ونحبهم في حصة الجغرافيا لما فعلوه لنا، قطار وكباري وترع ومصارف، وكلها أماكن للحب.

حين تتأخر حبيبتك ليس عليك سوى شيء واحد سيساعدك فيه واحد ستتأخر حبيبته يومًا، والغرام سلف ودين، ستنزع خرطوم الهواء من العربة الخلفية، ستنزعه بسرعة وحذر، ستنزع السدادة النحاسية أو الحديدية، ثم تسحب الخرطوم ترميه وتجري، سيتلوى على الأرض بفعل اندفاع الهواء، حتى تأتي حبيبتك، والحبيبات يتأخرن، سيتأخرن لأنهن يعرفن أن قلوبًا ستعطل القطارات، وأن نبضاتها هي من ستعمل لا ماكينات البخار.

الولد المندفع ولن أقول الغشيم سحب الخرطوم واحتفظ به في يده لثوانٍ فَتَلَوَّيا معًا على الأرض، البنت المغرم بها كانت طيبة، لم تحبه لكنها صادقته وتركت للأيام أن تسد ثقوب قلبه.

أحببتها، بعيون واسعة كنهر يجري ببطء، بابتسامة تسري من وجهها لوجهي، أحببتها وضبطت كل مواعيد القطارات على صوت حذائها.

لا يجب على بنت أن تتزوج أو تسقط في الحب إلا إذا كان حبيبها يعرف صوت حذائها.

حين يأتي معها ابن خالتها الذي يريد آن يخطبها تركب الميكروباص، في الحقيقة لم تكن عندنا سيارات ميكروباص، كانت عربات إسعاف قد أنهت مهمتها وباعوها بدل أن يكهنوها، اشتراها من اشتراها بهيكلها الصامد الصلب، بحوادثها، بتاريخها المجيد، اشتروا لها مواتير جديدة وأركبونا فيها كي لا نتشاءم منها فيما بعد.

وقعت في غرام البنت التي تبدو رموشها كغطاء بيت أو سيوف جديدة، بخدودها التي تنِزّ رطبًا في الصيف ودفئًا في الشتاء، لم أرَ في حياتي أصابع امرأة أجمل من أصابعها وإذا كانت فاطمة قد مدّت يدًا واحدة في الماضي أيام الإعدادية ومسحت نمشي فإن نجوى قد مدت كفيها الاثنتين أيام الثانوية في وجهي وأطبقت عليه وعرفت مكان كل حبة نمش، كادت تعده بل قالت: «آكله يا ولاد».

يتعطل القطار، نمشي، نمشي للمحطة القادمة حتى يقوم، فرحة كأننا أطفال تحت المطر، الحب آيته المشي، تقف فجأة كعادتها تلمس نمشي، كأنها تعده، تعيد من الأول كأنها تخطئ في العد، توقفني وتختبئ في ظهري، تحتمي بي، تخلع بنطالها، تربط إيشاربًا على وسطها حتى منتصف سيقانها، تضيء في قلب النهار، تهبط لجرفة المصرف، تصنع حفرة كبيرة في قلب طين الحافة، تمد يدها، تصطاد كل سمكة وأختها، لا تترك الشقيقات، ترميها في الحفرة، ثم تغسل نفسها وأنا أداريها، تلقف بنطلونها من حضني دافئًا ونعود بالغنيمة، تنظر في وجهي، تنفرط ضحكة: «لن تتعب في مؤونة البيت»، تسدد سواد عينيها وتهمس: «اصطدتك هكذا».

هو هو المشوار ذاته حين دخلت الكلية، أعود في الإجازة، أمشي نفس الطريق، نفس الفريق تقريبًا، نقص فقط الشاويش لخروجه على المعاش، وبائع الجرائد اقترب أكثر من بائعة الفاكهة، تحتك رجله وتغوص كي تطرد البرد وتوغل في الدفء، سنتان والبراد يغلي ولا كوب واحدًا من الشاي، تعجبه اللعبة، تعجبها، طريق الوصال أمتع ما في الوصال، تسخين الماء أجمل أحيانًا من الاستحمام به، متعة الوعد ألذ من قطف الوعد، تفريط الرمان مع عاشق ألذ من أكل الرمان، يعرفان أنني واقع في الغرام، لا مبرر للمشوار ذاته إلا إذا كنت واقعًا في الحب، فقستني المرأة بالطبع، المرأة المتمنعة، الموغلة فيه، التي

تعرف أنها ليست سوى محطة واحدة سينزل فيها ويمضي لداره، حبة فاكهة سيأكلها ويرمي بذرها، آخرها طقوس عملية الشواء، وبائع الجرائد بروحه المنهكة يبدو أنه تعب من الجري وراء الفاكهة يقول لها: «ما رأيك في هنية؟».

ترد بغير اكتراث: «أنت هتموت وتلعب»، ثم كأنها تستدرك مع أنها قصدت: «أنت هتتجوز على روحك».

يعيد عليها السؤال بطريقة أخرى، طريقة المستسلم الذي يملك عود ثقاب أخير: «طيب إيه رأيك: هي هنية سخنة؟».

ورغم أن وجهي احمر فجأة في عز البرد ترد وهي تنظر ناحيته بطريقة لا تعرف إن كانت باردة أم دافئة لكنها قاطعة:

“لا أعرف إن كانت هنية سخنة أم لا..”.

ثم تعدل وجهها إلى الأمام حيث لا يلتقطه أحد:

“الذي أعرفه جيدًا أنني سخنة”.

٢١

أعرف هل أبدأ بالعُكْش أم القذافي؟

حائر، لكن العُكْش على أي حال صاحب دور مهم، لقب أطلقته عليه النساء في قلب النهار، ينبش عن الخراب وينكُش على العِراك بشومة يجرها ليل نهار حتى تاه اسمه الأصلي، لم يعد أحد يتذكره أو يذكره به إلا أمه وزوجته أحيانًا، وجهه مثل وجه ذئب أغبر بالضبط، أنف كبير أحمر ممطوط للأمام يتحول عند الغضب -وما أطول مدته- إلى الأزرق، شفاهه أيضًا زرقاء دون غضب، هو الأخ الأصغر مباشرة للقذافي، لا يتكلم، يزوم دائمًا بكلام غير مفهوم، بنبرة غليظة كأنه أعجمي، كأنه يتدرب على الشر بالغموض، يحلم أن يتحول إلى سبع الليل في المنطقة كلها ليعيد أمجاد أجدادنا الحرامية الهجامين الكبار، تغيرت الوجوه وتغير الزمن لكن الحياة بالهمجية ظلت كما هي، والنوايا والأهداف.

ذراع القذافي ونبُّوته، يطيعه طاعة عمياء، لا يناقشه في شيء كأنه عبد السلام جلود في الحكاية الحقيقية، القذافي يحلم وهو ينفذ، وإذا كان القذافي قد قام بانقلاب على الحكم المستقر وصار قائدًا لثورة، فإن القذافي نسختنا يحلم أن يقوم بانقلاب مماثل يستولي به على مقعد الحكم المستقر أيضًا في العائلة والقرية، ولديه النبابيت التي سوف تساعده على تنفيذ مخططه وهي تحل محل الدبابات هناك.

يبدو أن الذين يحلمون هم من يصنعون الإبداع، ومن يعيشون في كوابيسهم هم من يصنعون التاريخ، وللأسف يأتي دائمًا مرًّا وقاسيًا، لكنه لا يخلو من إثارة.

الإثارة للأمانة بدأت من عند القذافي، ابن عم من فرع على طرف العائلة، أبوه وأعمامه ورثوا أرضًا كثيرة، لا يطمحون لشيء، في حالهم، فرع ضعيف ليس منبوذًا لكنه ليس في الحساب، يزرعون ويتكاثرون، إلى أن قضت المشيئة أن يتعلم هذا القذافي في البندر، في النهاية سيحصل على دبلوم تجارة وهي شهادة فاخرة، من يحملها الآن تؤهله بالكاد لأن يحمل الكراتين على كتفه في أي شركة

آو مصنع، لكنها في وقتها كانت تؤهل حاملها لأن يعمل أمينًا عظيمًا للمخازن في جمعية زراعية أو سكرتيرًا محترمًا في مدرسة ابتدائية يتيمة.

شعر القذافي وهو يتعلم أنه فرخة بكشك وسط فرع كله من الفلاحين والحرامية، لا، هذا توصيف خاطئ، بل ملأه يقين أنه الديك الذي سوف يؤذن في فرع لم يكن له ديك من قبل، شعر أنه متعلم ومنذور له أن يقود هذا الفرع لا للتعليم بل للسيادة على العائلة، وليشارك مشاركة فعالة في أمور الحكم بل يقتنصه بعد كل السنين التي قضوها في الظل، وعلى هذا الفرع أيضًا أن يعرف قدره من البداية وأن يحول كل فائض الأرض والبهائم لسعادته هو، كانت ورقة التصوير اسمها ورقة كوارتر ربما نسبة للشركة التي تنتجها بقرش صاغ واحد على الأكثر، أرسل لأبيه يطلب سبعة جنيهات ثمنًا لورق الكوارتر، بما يكفي لمدرسته جميعها طول العام، كان الفدان وقتها بسبعة جنيهات أيضًا على الأكثر، لم يبتز المحروس أباه بل أوهمه وغرف من إيراد أسرته ما كان يكفي لسترها لكنه كله يهون في سبيل أنه سيصبح موظفًا يلبس قميصًا وبنطلونًا وسط منطقة تلبس كلها جلابيب وإن وجدتها أصلًا.

ما يأتي من الحرام يذهب أحيانًا للحرام، كانت أرضهم في معظمها نصيب النساء اللواتي لم يحصلن على ميراثهن، لا يعنيه ذلك بل يعنيه في الحقيقة، لا لأنهم يجب أن يحصلوا عليه، بل ليهبُره هو في النهاية باعتباره الابن المتعلم والذي يجب أن يدخل مسلحًا بالمال والجاه في زمرة القواد.

وقد كان، عاد ليعمل كأول سكرتير للمدرسة الإعدادية التي جلبها أبي لأول مرة في المنطقة، لكنه كان يدرك أن هذا ليس مأربه ولا ملعبه، مكانه أن يقود العائلة بالدبلوم، بشهادة أقل من المتوسطة، أعور عظيم في عائلة عميان كما يعتقد، هو يريد مقعد الكبير، خطته من البداية، كبير العائلة كلها، ولا بد من البحث عن عمل يضعه في دائرة الضوء، هنا ظهرت ضرورة الاستعانة بالعُكْش كرئيس لأركان المرحلة القادمة، افتعل المشكلات مع العائلات الأخرى، يطلق العُكْش ليضرب أي رجل من عائلة أخرى تحبنا ونحبها، يفتعل أي سبب تافه، وتقوم

القيامة، تخرج الجاهلية من مكمنها، تتعارك العائلتان ويسقط من يسقط من الضحايا وهو واقف سعيدًا يتفرج لأنه خلط أوراق أبي مع أنصاره، وأوقد معركة بخسارة للجميع، هو وحده الرابح فيها وسط كلام تافه عن عظمة العائلة والانتصار والثأر.

لا تعرف من أي طينة نتنة جاء، المهم أنه جاء كالخراب المستعجل، ولن يمضي قبل أن يخرب الدنيا التي استقرت بصعوبة، معتوه طامح للسلطة، في فمه جملة واحدة يرميها بالتتابع على كل العائلات حسب لحظة جنونه: «العيلة دي لازم تتأدب».

لا يستطيع أحد أن يعرف اتجاه موجته، هو فقط على موجة الشر، يتخيل من أي حوار عابر أنك تفكر فيه كما يفكر فيك، وتقوم الدنيا ولا تقعد قبل أن يسيل الدم.

لا تستطيع لحظتها أن تقول: فرع بعيد من العائلة، حين تقع الكارثة تقع كلها فوق رأس أبي، طالما أخطأ واحد ولو كان قريبنا من أبعد ناحية، من ناحية الظل، فهو يلزمنا.

لا شيء يستعصي على أبي، رغم ثقل الكوارث، يَسوس الناس كأنه فرويد المكان، يعرفهم من أول جلسة، من حدث عابر، من رد فعل، ويعرف بوعي أنه مهما حاول فهناك شباب أهوج أرعن في العائلة، مندفعون، بهم بقية من جهل، في كل لحظة مصيبة متوقعة، كان يعلم ونظرته تحمل الفهم والوعيد.

كان قادرًا على أن يعيد الأمور لنصابها، وأن يقوّم الجميع، لكنه يعرف أيضًا أن هناك ما هو خارج عن إرادته وعصي عَلى التقويم، يعرف أنه القدر بتصاريفه، ومن بين صمته الطويل وهو يفكر في المصائب تخرج منه كلمة فجأة كأنه يحدث نفسه: "هذا قدري".

قدر، خلط الأوراق كلها بيننا وبين العائلات الأخرى، لكن ذلك لم يدفعه لموقع الكبير، بدأ الجميع يشعر أنه مجنون وأن عنده خمسة في دماغه، أطلقوا عليه من خلفه لقب القذافي، لا ينام، لا يتغافل عن كلمة عابرة، تحول إيراد الأسرة لجيبه باعتباره الكبير، هبش ميراث إخوته بحجة وضرورة الوجاهة أمام الناس، لم يترك سهمًا لأحد، وإن

آقنعهم آن كل ذلك موجه للمجهود الحربي والمعركة تستحق، يرسل لهم قدرًا يسيرًا من الإيراد ويرمي الباقي في كرشه، الحرب تحتاج مؤونة واقتصادًا قويًّا وقت الأزمات، معه نبوت أخيه وسكرتير مدرسة، لم يترك أحدًا في حاله حتى الكلاب، الكلب الذي لا يعجبه نباحه يأمر بقتله.

كل ذلك لم يحقق له طموحه، بدأت العائلات تناوئه وتضعه في رأسها بعد أن اكتشفت أنه سبب كل هذا الخراب، بدأ يعي أن الحرب على الجبهة الخارجية وضعت أبي وأعمامي في خانة الخجل من العائلات الأخرى، لكن ذلك لم يكفه ولا روى نزقه وجنونه فاتخذ قرارًا مصيريًّا بتغيير مؤشر الشر إلى الجبهة الداخلية، فاتته هذه فيما مضى وعليه أن يتداركها، طلب البيعة من الشباب الصغار على أن يكون كبيرًا لهم ومن ثم يحصل على السلطة من الداخل، شحنهم ببطولات أجدادهم الوهمية، سمى الإغارة جرأة وجعل السرقة شجاعة، ورغم أن تون اللغة التي دسها بحماسة والموسيقى النحاسية التي عزفها على أوتار استعادة الأمجاد وجدت موضعها في النفوس إلا أن ذلك لم يستمر لساعة حين أخرسه ابن عم عاقل بالقول: «كانوا أحسن حرامية والله».

خرج غاضبًا، ومن ساعتها لا يمر يوم دون أن يفتعل مشكلة مع أحد أبناء عمومته، مشاحنة في دقيقة وجهًا لوجه، يفتعل أي سبب، يمسك بتلابيبه أو يلطمه خلسة على وجهه ثم يأتي العُكْش من الخلف ويضع النبوت في الرأس.

يمشي، وعلى مسافة من خلفه يتبعه العُكْش، موسى وهارون، وينتظر الجبل، الجنون يحتاج إلى عصا غشوم ليخضع الناس، من المؤكد أنه يصدق نفسه وأنه يستحق كرسي الكبير، ولا تستطيع أن تقول إنه يغامر بعصا يا صابت يا خابت، يملك يقينًا صارمًا في أهميته وأحقّيته، ولعله لو أخفض جفنه لحظة واحدة وذهب لطبيب العيون لاكتشف أنه لا يرى حتى موضع قدمه، ولعله يجد أنه مصاب ببعد النظر، أبعد من حافة الخراب ووراءه خواء..

كنت حائرًا أن أبدأ بالعُكْش أم بالقذافي، عماد الدين «أزرط» من أخيه!

أصبح العُكَش قائد ميليشيا وشريكًا أساسيًّا في الجريمة، وترك للقذافي الأمور السياسية.

سمع في الراديو أن الرئيس علي عبد الله صالح أشار إلى خنجر يعلقه في وسطه وقال: "أخذت الحكم بهذا الخنجر ولن أتركه إلا به"، وهو قرر أن يكون نسخة منه وأن يفعل مثله مع استبدال النبوت بالخنجر.

مطيور، معتوه، القذافي الأصلي نسخته الباهتة، ولو امتلك الدبابات لأغار على المحافظ نفسه وجلس مكانه أو طالب بإعلان الوحدة بين القرية والمحافظة.

القرى الصغيرة كالبلاد الكبيرة، من يملك المال والقوة يطمح للسلطة، يتجه إليها بغريزة الديكتاتور مهما حدث من خسائر ومهما وقع من قتلى، وبعد ذلك يبدأ الزحف المقدس على النساء.

كان لا بد أن يكمل نصف دينه، البنت الحلوة التي أرادها كانت معه في الدراسة في المدينة، نصف عيون الشباب عليها، ربما ثاني بنت تتعلم في القرية لكن أباها راوغه، لم يرفضه حتى لا يشتبك معه وترك للبنت أن تتصرف بمفردها، كان مشغولًا بالبحث لنفسه عن عروس جديدة بعد أن طلق أم البنات لكبر سنها.

لم يستطع أن يفعل شيئًا، أنذره أبي من ناحية ومن ناحية أخرى داس البعض على غدة التمرد عنده: "أنت تتمناك ألف بنت، تملك الشباب والفدادين والنبابيت ثم إن هذه عاشت في البندر؛ بنت مدينة وربما صاعت، ثم إنها واقعة في غرام ولد غلبان ولا يليق بك أن تقارعه أو تضع رأسك العظيمة برأسه الواطئة حتى لو وافقت، طالما مال قلبها لحظة لابن الغلابة".

يعرف تاريخ القرية المجيد، يعرف القانون: يمكنك أن تنط على من تشاء من النساء، تتزوج واحدة للبيت، وخمسة في الشوارع المجاورة بعقد عرفي، بشاهدين، زواجًا صوريًّا والسلام، والكل يعرف، والكل لا يقول.

لا تعنيه النساء كثيرًا، لكن يعنيه أن يطلب فيجاب، مصيبة المصائب أن يقع ديكتاتور أو مجنون في الحب.

لم يتجاوز الموضوع بسهولة لكن غروره ساعده آن يدخل في طريق واحدة أخرى، والدراما كعاتها لا تغادر الحياة حتى وإن توارت لفترة، بعد سنوات قليلة وجد حبيبته أو البنت التي أراد أن يتزوجها سكرتيرة معه في المدرسة، في الغرفة ذاتها، ورغم أن كليهما عنده أولاد، إلا أن ثلاثة شياطين على الأقل كانوا يتقاسمون معهما الوقت والمقاعد، ساعده واحد منهم بقلب جامد مع أنه في الحقيقة لا يحتاج له، أكل دماغها، الوقت الطويل ساعده أن يتبول على مهلٍ في أذنيها، والقصص الناقصة لها سحر فتاك، وربما لم تكن راضية في حياتها أو تحب التغيير ولو بالكلام، مع أن الغزل لا ينقصها، زوجها لديه ملكة الكلام واللعب على المتناقضات ويعرف من أين تؤكل الفخذ، تأتي الانتخابات فيرشح نفسه ثم يقبض ثمن الانسحاب ويتحول إلى منظِّر ومدير إعلامي للمرشح الذي قبض منه، لا تعوزه الحيلة ولا النقود، وحبيبها السابق لا يفرق عنه شيئًا سوى أنه من عائلتنا المجيدة الكبيرة.

وهي ليست شهية فحسب، عود سخن، تشعر برعشة لمجرد رؤيتها، أنوثتها حاضرة، برقة تبتسم من بعيد، ابتسامة حنون كأنها تساعد يتامى، جسد متواطئ ومتفق مع بعضه، يعض جلبابه فيعضه، جسد منساب بضراوة، لكنه لا يسلم نفسه لك، فقط لخيالك، كأنه يخفي شيئًا ما.

أمامك واحد قرر أن ينتقم، ليس انتقامًا من أحد، هو انتقام من الدنيا التي لم تطاوعه كما يريد، أي دنيا هذه التي لا تستجيب لرغباته وأحلامه، بل عاندته في صورة امرأة!

لا أعرف إن كان لفظ أحلام هو اللفظ المناسب هنا، هذا واحد لا يحلم، هذا واحد يريد أن يقيم انقلابًا كلما طافت فكرة فاسدة بباله، تساهره في الليل، تضحك معه، تودعه وأنتما أصحاب وعلى وفاق، في الصباح الباكر تجده وقد تحول لعدو، لا يحتاج لأسباب، يتوهمها وحده، يدخل في مخك ويفكر نيابة عنك ويغير موضع كرسيه من الوفاق إلى العدو، لعل الشيء الوحيد المنطقي عنده أنه اتخذ من زوجها عدوًّا بينه وبين نفسه، مع أنه يراه سقط متاع لكنه خطف منه البنت التي أرادها واعتلى المرأة التي أراد أن يعتليها.

يومًا بعد يوم يريد آن يعوض هزيمته والعدو جاهز، صنعه وحده آو صنعته الأقدار ووضعته أمامه وزوجة العدو حبيبة سابقة، هذه مرة لا يجب أن يستعمل فيها نبوتًا من الخارج، بل نبوتًا من الداخل، لعب لها في مخها، أمطرها بالهدايا، كل إيراد الأرض في كرشه، هو الكبير تؤول إليه كل النعم ويضع ربعها تحت ساقيها.

كان عليه أن يكمل خطته، تصادق مع زوجها إلى أن دخل بيته، عزمه وإياها في البداية في كل المناسبات بل اخترع المناسبات، كأنه قفز على الماضي ومسحه، الخطط القوية تنتعش بالشر، فعل مثلما كان القذافي الأصلي يفعل، يزحف إلى الحدود ويطالب بالوحدة الفورية، لم ينجح القذافي في معظم المرات، لكن القذافي نسختنا يبدو أنه حقق الوحدة وشكل الوزارة وتولى مقعد الوزير الأول.

الثعلب يعود لقن الدجاج المغلق الذي لم يستطع أن يلقط فريسة منه، لا أحد يمكر على ماكر، والذئب يعود للمكان نفسه الذي ضاعت فيه فريسته بالأمس، قد ينسى الثعلب أو يغض الطرف لكن الذئب لا ينسى، المسألة مسألة كرامة، الثعلب يخشى المواجهة لكن الذئب يسعى إليها، لا يأخذ فريسته ويجري، عاد، فريسته أمامه بالساعات في المدرسة وبالليل يلعب معهما الورق في البيت حتى اطمأن الجميع وتركوا أبواب الأقفاص مفتوحة.

لا أحد يعرف ما حدث، حتى دخل على ناظر المدرسة وهو ابن عمه وعمي، يداديه كالأطفال حتى لا يفضحه في المدرسة، قال له معي خطاب وأريد أن أرسله لزوج السكرتيرة، والناظر شم الحكاية سريعًا، أغلق الباب حتى لا يسمع أحد، لكنه عاجله بالقاضية: "أنا على علاقة مع السكرتيرة".

الناظر الذي سقط عليه الكلام كقنبلة تمالك نفسه، حاول بكل الطرق أن يثنيه: "عندك بنات، وكما تدين تدان".

يعرف أن عشرة شياطين تسكن جسده، وأن كل الكتب السماوية لن تحيده عن انتقامه، وهو لم يترك فرصة له، أنهى الكلام بلغة قاطعة كأنه يحكم العالم:

“الخطاب لزوجها كي يعرف الموضوع وقد وضعت له في الخطاب العلامات الموجودة في جسدها كي يتأكد بنفسه”.

٢٢

وانقلبت الدنيا.

إذا كنت تتخيل أن النمش مرحلة ومرت فأنت واهم، النمش ليس حينًا ولا قدرًا، النمش ضرورة كي يعيش هذا المكان دومًا على حافة الهاوية، بشر إن لم يجدوا من يتعاركون معه تعاركوا مع بعضهم، كأنها تسلية، لكنها تسلية بالدم، تحتاج لأعصاب من حديد وقلوب ميتة، وربما لا يحتاجون لأعصاب من أصله، بشر جلدهم سميك وقلوبهم شتى.

كل واحد معجب بدماغه فقط، خلطة الهمجي بالجهل، البشر على هيئة الخلق الأولى، وصراع البقاء والسلطة في أسوأ تجلياته.

وانقلبت الدنيا، ليس مهمًّا أن تتسبب في معركة مهما أوقعت من ضحايا ولو بالقتل، أمر أقل من العادي، لكن فضح امرأة متزوجة على الملأ بخطاب وعلامات في الجسد كأنك وضعت الجاز على ظهر قطة وأشعلت فيها النيران فقفزت تجري بين أسطح البيوت المكتنزة بالقش، أن تجاهر بشكل شامة على خصر امرأة أو نائمة بين الشقوق أمر كفيل بأن تتحول القرية إلى حمّام دم حرفيًّا، رغم أنه مكان يعيش بالفضائح لا عليها، لكنه مجبول على الستر حين يقترب الكلام من المخادع والملاءات والمراتب، بعض الهمهمة مسموح بها فقط تحت الأغطية، وغطاء الحلة مصمم ليكتم ما بداخلها من فضائح تزكم الأنوف لكن لا يجرؤ أحد أن يجهر بها.

قانون، حتى في مجتمعات الفضيحة هناك قانون، لكن شخصًا مثل القذافي هو من يقرر القوانين، هو القانون في نظره، في رؤيته لذاته الصفيح، ذاته الممتلئة بالثقوب.

وانقلبت الدنيا.

المصيبة الكبرى أنه تبجح أمام البعض بأن لديه مذكرات يومية دوّن فيها بالساعة والدقيقة تفاصيل غزوته مع حبيبته العدوة زوجة العدو، بالأيام

والساعات والليالي الممطرة والحارة وآنه سيطبع منها نسخًا يوزعها على الجميع كي تتعدى المسألة الكلام وكي تظل حية ترفرف على طول الزمان: "هكتب لكم التاريخ يا أولاد الكلب"، وبدا للحظة أنه يسير على خطى القذافي الأصلي ولو في الاتجاه المعاكس، وإذا كان العقيد عنده الكتاب الأخضر فهو يملك الكتاب الأسود.

سمعة القذافي الأصلي مع النساء طبقت الآفاق، لكنه كان يفعل ذلك من أجل متعته أو بأسبابه، كان إذا تعثر بزوجة سفير أجنبي كما روت الوقائع، فإنه يفعل ذلك من أجل اعتلاء الإمبريالية ورد الصاع صاعين على سنوات الاحتلال ونهب الموارد، لكن دوبليره عندنا عانده ومشى عكس نهجه، بل كان يفعل ذلك لصالح الإمبريالية المحلية المتمثلة في شخصه وليؤكد علو كعبه على الجميع.

قال واحد: لو عرف العقيد القذافي بذلك لترك الحكم للجان الشعبية فعليًّا واعتزل في خيمته.

من المؤكد أنها لم تكن حبيبة، وربما كان واقعًا في غرامها من أيام المدرسة، والأرجح أنه كان في وقت ما يملك قلبًا معطوبًا واتسع العطب، لكن المؤكد أن هذا الفسل الموهوم بنفسه يجب أن يأخذ ما يريد، ومن يقف ضد إرادته يستحق الحرق.

من يرفض خاقان البر والبحر ودبلوم التجارة!

ربما كان يعتقد بمخه الذي يساوي مخ النملة أنه بانتصاره في هذه المعركة سيخشاه الجميع وسيصنع مسافة الخوف بينه وبين أهل المكان كما يفعل كل المستبدين ليقفز بعدها قفزة قصيرة على كرسي الحكم، وربما وهذا هو الأرجح كان يدور داخل حفرة رآها بسيطة ولم يلتفت أو ينتبه أبدًا وربما لم يع أن الناس قد تشاهد الفضيحة بعينيها، لكنها لا تجرؤ علنًا على الحديث عنها.

اشتكته المرأة في المركز، أشاع عنها ما أشاع، وطالبت بالحصول على المذكرات وحرقها.

الأحمق لا يترك لحماقته فرصة للتنفس، في طريق عودتها انتظرها

عند القرية التي تسبق قريتنا، عند نقطة تجمع السيارات، حيث الموقف العمومي، حاول التحرش بها بالكلام لأنها تجرأت واشتكته ثم مد يده عليها وشدها من طرحتها، اجتمع الناس على صراخ امرأة لا يعرفون ما بها، فما كان من القذافي ليجعل الفضيحة فضيحتين وينقل المباراة على الهواء مباشرة إلا أن أمسك بقضيبه في قلب موقف السيارات وراح يطوحه يمينًا ويسارًا ويقول باستنكار واضح أمام الجميع : "أنتِ نسيتي ده يا بت".

مهما كان رأيك فيما حدث فلا بد أن يعترف الجميع أنه أول من اخترع الترينـد وركبه.

مهما كانت ضراوة الصراع في مكان كهذا فالمهم ألا توقعك المصائب فيما يُخْجِل، كاد خجل أبي يفيض عن المكان، حاول لملمة الموضوع بدفع تعويض، لكن أعداءه انتهزوا الموضوع لينتقموا، وطلبوا دية امرأة وزوجها.

أراد أن يمرر الموضوع دون جلسة صلح حفاظًا على الجميع، حاول إخماد النار بكتمها بدل أن يرش عليها الماء أمام الناس، لكن الأشاوس في الناحية الأخرى كان يساورهم الشك في أن ما حدث قد حدث فعلًا، لذا أرادوا انتصارًا على الملأ يمسح الموضوع من أساسه ورمي النار في حجر من أشعلها بل رميه هو فيها، وقبض الدية أمام أعين الناس، وتطايرت ألفاظ من عينة رد الشرف والخوض في الأعراض مع الاستعانة بآيات القرآن، وأهمية القصاص.

شعر القذافي أن كل ذلك قد يطيح بأوهامه في أن يصير كبير المنطقة، ترك الجلسة تمضي على وتيرة الصلح والدية والاعتذار مرغمًا، لكن في اللحظة الأخيرة هاجت عنده سلوك الكهرباء واندفع فيها تيار آخر قلب الحال كعادته، قبل أن تمتد الأيدي بالمصافحة إيذانًا بالتكتم على الفضيحة ومحوها طلع صوته فجأة وقال: "فيه علامة مميزة...".

لم يكمل جملته إلا وقد ارتفعت عصي الطرف الآخر فوق رأسه، لكن أبناء عمه الذين ضربهم من قبل أخذوا المبادرة ورفعوا عصيهم عليه قبل غيرهم، منعوهم وانهالوا عليه ليتخلصوا من عاره، وبيدي لا بيد

عمرو، يقتلونه هم أفضل من أن تقتله الفئة الأخرى، يمسحون عارهم ويرفعون أيديهم فوق أيدي الفئة الأخرى التي وضعتهم بفعلة ابنهم في خانة اليك، خانة لا فكاك منها.

يكرهونه، لكن لا يسمحون لغيرهم أن ينال منه أمام أعينهم، قانون أيضًا.

خمدت النار فوق جمر ملتهب، انغلق الجرح على قيح ما زال حيًّا رغم تقبيل اللحى، كان خروجه من المكان محمولًا يشر الدم منه قد برّد بعض النار، كما قطع الطريق على مشعلي الفتنة الذين يريدون استثمارها حتى آخر رجل في عائلتنا.

خرج بعد أسبوع في حماية العُكْش، وزيره هارون كما يعتقد، ثم حين اطمئن خرج دونه، أخذ العلقة المتينة رغم اعتراض بعض الشباب على ضربه حتى لا تنتقل الحرب للساحة الداخلية مرة أخرى.

كان يستحق القتل، ولولا خوف أبي من دم واحد أحمق على يديه لأمر بقتله، ولو كان في بلد آخر لربما حوكم بتهمة الفساد في الأرض.

تجرأ الجميع عليه ثم ابتعدوا عنه، وهو اشتكى أن الجميع يتعاملون معه كأنه مرض الإيدز، لذا أمعن في المشاكسة والمُجاكرة كي لا يستوطئ أحد حيطته، لكن في الظلام نال منه من نال، ينام نصف شهر في الدار ليتعافى من الضرب ويخرج النصف الآخر، وجدي مسعود يقول له حين يصادفه: «جسمك رخيص عليك».

اعتقد الجميع أن الموضوع انتهى ونام، لكنه لا ينام، لم يستطع أن ينشر مذكراته بعد أن توعده رئيس المباحث، أعطاه العلقة المتينة، علقة من ساقيه بلا لباس داخلي، وحين حطه على الأرض جعله يلف في مكان الحبس بين السجناء ويقول بصوت عالٍ يصل للضابط في الطابق العلوي: «أنا جواهر».

جواهر التي يعشقها.

لا ينام، لم يشبع بعد كل ما فعله، لم يحقق ربع هدفه، كان يتخيل أن

الناس سوف تزف حبيبته وزوجها في الشوارع بالطبل والمزيكا، يتخيل أن الأطفال الصغار سوف يرشقونهما بالهتافات، فوجئ أن الناس بدأت تتجنبه وتبتعد عنه ولا يردون سلامه رغم تخوفهم، قد يتعارك معهم في اللحظة نفسها.

أصبح خائفًا أو متحسّبًا للشر، يخرج حين يخرج وخلفه خمسة من إخوته يمتشقون العصي، الشر والهزيمة يشُرّان من وجهه، والناس قلقة من خطوته القادمة. سواء خطط أم لم يخطط، صحا الناس على صياح إخوته في الصباح، أمام بيت غريمه وزوجها، وأمه تصيح بأعلى ما بها في قلب الشارع، وقبل أن يسأل أحد كانت قد أجابت وحدها، تدق على الباب وتصرخ: «عاوزين عيالنا اللي عندكم».

٢٣

يخاف الناس المجانين، لكنهم لم يتخيلوا أن يخافوا الأحمق لهذا الحد، ورغم أن شوكته انكسرت إلا أن ذلك لم يؤثر عليه وحده، بل أثر في المقام الأول على مكانة العُكْش، فتى النبوت الأول، وظهر ذلك جليًّا في تحركاته، إذ اختفى تمامًا عن الساحة ولم يعد يحضر ليالي المطربين الشعبيين الذين ينتظر الناس حفلاتهم بفروغ الصبر بعد موسم حصاد الأرز وتوفر النقود.

هناك نفر معين متخصصون في الحصول على كيلة أرز عن كل فدان في قلب موسم الحصاد، يبيعون ما جمعوا، ويضعون الإيراد رهن الحفلات الساهرة للمطربين، أسر العُكْش إلى بعض أصحابه بخشيته أن تتحول حكاية أخيه إلى قصة يقصها فنان شعبي، حتى لو لم يرْوِها في القرية، فالقصص تنتقل أسرع من الماء في هذا المكان، وإن كان متأكدًا أنها ستحتفظ له بمقام سبع الليل وتحفظ مغامراته من الضياع.

اختفى القذافي أيضًا، اعتقد الجميع أن الدم ربما جرى في عروقه، خَجِل من مواجهة الناس بعد أن جرح الجميع وتحسس سوءاتهم، لكن البعض كان يعرف أن الحكومة لم تكتشف دواءً للحمق حتى الآن، وأن القذافي في مرحلة كُمون معتكف في الخيمة مثل سميّه يتأمل، القذافي الحقيقي يتأمل النجوم في الصحراء، والقذافي نسختنا يتأمل النجوم فوق سطوح بيتهم.

فجأة ظهرا، القذافي على باب الجامع والعُكْش يخطو لداخله، وتطايرت العبارات الموسمية: الهداية من الله، وإنك لا تهدي من أحببت، والتائب من الذنب حبيب الرحمن، وصوت صراخ من قلب الجامع يقطع هذه التخاريف الطيبة، اتضح فيما بعد أن بائع الفخار قد باع قلة للقذافي الذي لم يستسغ ماءها وأفتى له واحد بفصي مخ شمال كالعادة أن القلة لم تأخذ وقتها في النار أثناء عملية تسويتها، وأنه ربما كان يقصد تسميمه.

ضرب العُكْش بائع الفخار بالعصا الغشيمة على ظهره وهو يقيم الصلاة، وهو يقول: الله أكبر، نويت.. لكن واحدًا آخر كان قد نوى وفعل،

لم يجد الرجل ما يفعل سوى آن رفع يديه وعينيه لأعلى وقال بالدموع: «أنا انضربت في بيتك يا رب».

يضرب الناس بعضهم في كل وقت وفي كل مكان، حتى إنهم ضربوا واحدًا في غرفة نومه أمام عيني زوجته وأطفاله، لكن ضرب واحد في الجامع بدا من الكبائر حتى إن أحد الشيوخ أفتى بأن الكبائر سبعة وضرب واحد في الجامع هي الكبيرة الثامنة.

نعم، لم يحدث ذلك من قبل سوى مرة واحدة، فعلها ثلاثة إخوة كان أحدهم يشبه صدام حسين في الملامح ويعمل شاويشًا في البوليس، له ابتسامة ماكرة حاضرة وقيل لعله يتدرب في أهل قريته على ما يفعله بالمساجين أو العكس، وجه منفوخ بعظمة كاذبة وربما لو وصلت صورته بالخطأ إلى العراق لاتخذوه دوبليرًا لصدام، كان الثلاثة يعاركون ذباب وجههم إن لم يجدوا من يعاركوه.

ضربوا رجلًا فدعا عليهم، ولم تمض الأشهر الحرم حتى غزتهم أمراض لم نكن نعرفها، والذي يشبه صدّامًا خرج الدود من أنحاء جسده قبل أن يرحمه عزرائيل ويقطفه، ربما لحراسة الجالسين في النار كما قال أحدهم، أو لأنهم استعجلوا حضوره لضبط الأمن في العالم الآخر كما قال واحد في سهرة حشيش.

استعاد العُكْش رشاقته، ضرب كعادته من الخلف، بالغدر، دون أن يراه غريمه، ولم تبتعد عصاه الغشوم عن أبناء عمومته، أبناء عمي القريبين، ضرب شابًّا صغيرًا على ظهره وقال له: «اسأل أبوك عني يا ولد».

لم يكن أحد من أشقائي أو أولاد عمومتي موجودًا في القرية، في أشغالهم خارجها، إلا واحدًا لم يكن محسوبًا على الصفوة أو الحرافيش ، كنا نسميه: «أبو عيون ميتة»، قليل الكلام، لم يكن أحد يسمح له بالكلام أو الفتوى، كما أن ترتيبه في السن أو التعليم أقل منهم، كنا نسميه أحيانًا أخرى: الدّغل، ما يخبئه داخله أكثر مما يظهره، ما يخفيه تفضحه عيونه فقط، في ربع ساعة جمع الصبيان، نعم كانوا صبيانًا، أكبرهم لم يصل للثانوية العامة، جمع النبابيت الكبيرة

آو ما نسميه: الشوم البركة، وضع الخطة وشحنهم كما كان الكابتن الجوهري مدرب الفريق الوطني يشحن لاعبيه بتعبيرات من عينة: الهجوم المباغت، التسديد القوي من كل الزوايا، معركة حربية، بعد دقائق شاهد العُكْش سبع الليل خمسة صبيان يتحلقون حوله، سخر بضحكة هازئة منهم، سيقضي عليهم في لحظة واحدة ولن يأخذوا غلوة في يده، ما إن رفع عصاه حتى باغته الصبي الكبير بضربة على ذراعه أطاحتها، وعينك ما تشوف إلا النور، ضربوه حتى خر على ركبتيه بالتصوير البطيء وجرمه يهبط إلى الأسفل، ضربوه بغلٍّ، كان دمه يغطي وجهه وأعلى جلبابه، أخذوا منه حق جميع الناس وتركوه غائبًا عن الوعي.

لأول مرة لم يتدخل أحد للدفاع عن معتدى عليه، وربما أنجز الصبيان المهمة بسرعة، بالشر المضاد أو الشر الطيب الذي كانوا يحملونه في صدورهم.

نام في السرير، بل سكنه، لم يقوَ على الخروج إلا مرة واحدة بعد أسبوعين، كان متعبًا لكنه خرج ليكيد الأعادي، لم يحتمل، نقلوه للمستشفى فمات فيها على السرير، والقذافي الذي ضربته الدهشة يفرك عينيه كل لحظة لا يعرف إن كان حلمًا أم كابوسًا يقول: «خالد ابن الوليد مات على فراشه».

مات سبع الليل، مات مقتولًا، أظهر كرامة لأنه تأخر في الموت أسبوعين بعد ضربه وإلا صارت جريمة قتل، وبموته أيقن القذافي أن دولته لن يحين موعدها إلا في العالم الآخر، سقط جيشه مرة واحدة، لم يعد وراءه ولا أمامه شيء، نفسه اللوامة دفعته لاستئجار دكان في وسط القرية كي لا يظن أحد أنه خائف أو يختبئ، دكان للمبيدات، ما زال هناك من يجب أن يبيدهم، يجلس أمامه لا يبيع ولا يشتري، بيده قلم يؤرجحه بين أصابعه بقلق كأنه سيضع خطة بديلة للحياة، أمامه كراس مفتوح مكتوب عليه: المذكرات السوداء، صامت بعينين من حجر يشاهد بهما أيامه تتدحرج أمامه وتعود، يكاد يكلمها، يحرك أصابعه في الهواء ثم تسقط ملامحه في غيبوبة.

كل من يراه يرى ميتًا على قيد الحياة، أحلامه وكوابيسه تتحنجل

آمامه، قطعة من العذاب تؤم وجهه، قال آحدهم ليته هو من مات، إنه يموت في كل لحظة يعيشها.

يقولون إنه يسعى للمقابر خمس مرات في اليوم يقف أمامها، ينادي عليه ليستيقظ من نومته.

العائلة تصعد للمقابر بالكاد في الأعياد، صاروا يصعدون كثيرًا فرادى وجماعات، كل من يمر منهم أمام مقبرة أهلنا يقف ليقرأ الفاتحة بيدين مرفوعتين، على لسانهم جملة واحدة لم يتفقوا عليها باللسان بل بالقلب:

«الفاتحة للجميع ما عدا العُكْش».

٢٤

مر، وضع يده على بطن أمي الحامل.

مر الرجل الذي كان يحب جدتي، لم يتزوجها ولم يبح، لكن الأمر كان معروفًا، كل ما يُعْرف لا يُجاهر به، والأيام تداوي الحكايات والجروح، طوته في مكان بعيد، ويبدو أن الرجل كان نظيف الشكل والطوية، بمبسم بشوش، يملك كثيرًا من الحكمة والرويَّة في مكان تملؤه زعابيب جهل وغشم، بل وصل الأمر في وصفه إلى أن الكلاب كانت تخاف منه.

قال واحد: "عمر ابن الخطاب تخشاه الشياطين، وحسن أبو حسن تخشاه الكلاب".

وفي كلٍّ خير.

مر عليها أثناء حياة جدي، مر عليها كثيرًا بعد وفاته، وتصاحبا، تكنس الألفة وسؤال المودة ما علق من طين الماضي، تضع الشوق والصد في مكان بعيد، تضعه في جرة النصيب، وحتى لو كان هناك بقية من غرام فغرام السنوات الأخيرة من العمر أو حتى غباره له طعم الحنان، لقمة الألفة، جمال الونس، مرور عذب لماء عذب ولو بقطرات قليلة لكنه يرطب النفس، ويعود الماء طفلًا كأول جريانه، هادئ لكنه مستمر.

مر، وضع يده على بطن أمي الحامل فيَّ، قرأ قليلًا ثم قال كأنه هاتف من خلف جدار أو حجب: "أبشرك بمولود سعيد".

تخشى النساء الولادة الأولى، لكن الفرح بوصول الأنوثة إلى شاطئها يواري كل شيء، مع الولادة تشعر أنها لمست الخط كعداءة فازت بالسباق، وطلعت الأولى.

تعسرت ولادتي، لم تستطع الداية أو القابلة أن تفعل شيئًا، قالت بأسى: «المولود ده عاجباه القعدة جوه».

من بين طيات الألم صرخت آمي تريد آمها، جدتي غنيمة، وجه منحوت من الرضا، ويد تتشبث بها الملائكة، لديها خبرة في توليد النساء، تساعد من حولها، لا تعمل بها إلا حين يستنجد بها أحد، معجون الطيبة، رغيفها، يدها بلسم، كلها بلسم، لكنها كانت نهبًا لاسمها، عاشت غنيمة للموت، خطف منها ثلاثة رجال قبل أن يصلوا الأربعين بكعب واحد، ماتوا في عمر أبيهم، كأنه كان نذرًا معلقًا تحت سحاب وعليهم أن يوفوه، بل أوغلوا في محبته، لم يزد واحد منهم على أبيه يومًا، وجه ليس مستسلمًا بل سلم أوراقه وأمره بالرضا، بوداعة غريبة كأنها ستلقاهم حين تعود لحجرتها، كأنهم سيدقون عليها في أي وقت، تحلم كثيرًا بل تحلم كل يوم تقريبًا، الأحلام تغسل نار غيابهم، وربما هي من تدعوها كي تأتي إليها، يحط الحمام في حجرها، تنادي الحمامة باسم أحد أبنائها، تعرف الحمام من بعضه، كل واحد يشبه ابنًا غائبًا، كل واحد له لغة وجملة، كانت تمرج لبة القلب لكل الشباب والصبايا كي تطرد مرضًا استعصى، يشفون ولا تعرف كيف حدث، يدها مبروكة، ربما الموت يرد لها ما خطف منها، يرد إغارته عليها ثلاث مرات، لم يأخذ أحد عنها شيئًا سواي، ورثت منها الأحلام طيلة صباي، أطارد كل ليلة الكلب الأبيض السمين، أطارده طائرًا في الهواء حتى أطرده فأنام.

وجاءت على عجلٍ، لكنها أخفقت، أول مرة تخفق في ولادة، لا يعنيها المولود الآن الذي ينتظره أبي بقبيلته، تعنيها ابنتها، نادت من لحظتها: "هاتوا الدكتور".

لم يذهب أحد عندنا للدكتور قبل ولادتي إلا بالطبل البلدي، لا نقود ولا وقت للمرض أصلًا، من يوجعه ضرسه يثبت فيه خيطًا سميكًا، يجذبه ويرميه على طول ذراعه، لم يكن طقس رمي الأسنان في عين الشمس قد تم اختراعه بعد، الطين للجروح، لم يدخل البن القرية إلا على يدي، وقشور البصل الأولى ساخنة للدمامل، طب الفطرة، طب المكان يخترعه ويصدقه، مثل الكذب أحيانًا، يصدُق سواء كان من يقترفه يُصدَّق أو لا يُصدَّق، المهم أنه يصدُق في نجاعته، لم يكن الذهاب لمستشفى المركز واردًا عندهم، للبعد من ناحية، ولأنه عار من ناحية أخرى، يتم تهويل الفجيعة على إثره وليشمت الشامتون، يتكفل حلاق الصحة بكل شيء، طبيب الفقراء، لا يداوي فقط بل يملك

في جعبته عشرات الحكايات وبعض الملائكة.

حين يتعبون يلجؤون للكي، أبشع منظر شاهدته حين رأيت البدري الذي كان يعمل فلاحًا عندنا نائمًا على ظهره عاريًا، والرجل الطيب القادم من حواف البرلس البعيدة يضع الأسياخ في النار، وحين تتوهج يكوي بها كبد البدري أمام عينيَّ، يضع السيخ المحمي على بطنه، صرخته قد تسقط الحبالى والرجل يحوقل كأنه يعتذر له.

هرب الجميع من المشهد، وتركوه لي، لابن السابعة، لطفل يدخل الغرفة بالصدفة باحثًا عن أمه.

البدري الذي يحوم الآن حول غرفة أمي، مكسوف، لكن قلبه يأكله عليها، طبطبت على غربته، يأكل عندها حتى لو أكل عند عماتي، تحفظ له مما طبخت، وتلوم نفسها لو نسيته مرة لومًا شديدًا.

جاء صبيًّا عندنا، جاء من البعيد، لا أحد يعرفه له أهل، ولا هو نفسه يعرف، لم يتحدث يومًا، وحداني لا ذكريات له، وحتى لو كان له فقد أخفاها عن نفسه قبل أن يخفيها عن الآخرين.

صار منا، ابننا أمام الناس والمهم أمامنا.

جلبابه حائل دائمًا إلا من طين ناشف أو آثار خضرة، برسيم أو خلافه، حائل حتى وهو جديد، يفعل كل شيء يخطر ببالك، هو الوحيد المسموح له بركوب مهرة العائلة، يذهب بالبهائم ويأتي من الغيط بكل شيء، حبيب النساء، يأتي لكل امرأة بما تتوحم عليه أو تشتاقه: «الحميض، الجلوين، الجُعْضيض، الرِّجْلة، الملوخية والبامية ووو»، حين يرضون عنه يقولون: «تعال يا بدر، روح يا بدر، بدر البدور»، وحين يغضبون: «تعال يا سخام الطين".

يضحك، لا يتبرم ولا يرد، في النهار يأكل أي شيء حتى يعود، يلقي بالهدايا وينتظر من الدنيا عشاءً معقولًا لا عشاء سخيًّا.

عيناه ضيقتان، أنفه كبير، لا تعرف لماذا معظم الفقراء بهذه السحنة، في الحقيقة معظم الشقيانين، تكاد لا تتبين ملامحهم، كأنهم من

دونها، مع ذلك لا تعرف من أين تأتي كل هذه الطمأنينة في وجهه ولماذا تهزم الخوف في طلة ملامحه.

كبده معطوب، لم يُشْفَ رغم الكي، لا أكل يستقر في معدته غالبًا، ولا رفاهية ليصنعوا له طعامًا مخصوصًا ولا يعرفون.

لم تجد عمتي شيئًا فصنعت له المحشي من أوراق اللفت، ولأنه متوفر فهو مكروه، كل الأشياء المتاحة أو المتوفرة بكثرة تفقد معناها، لكنه الحل دائمًا حين تغيب الحلول، طعمه حنظل لمن لا يجد غيره.

لا يستطيع الاعتراض، يأكل دائمًا ما وضع أمامه، لا يفتح فمه ولا عينه، ينتظر دائمًا نفحة أمي، وضعت عمتي أمامه المحشي، وبعض اللفت المخلل.

المرة الوحيدة التي نطق فيها وصارت مثلًا:

"ياه، العشا لفت بلفت".

المرة الأخرى التي حكى فيها، قبل أن يموت بأيام، حكى بلهفة عن أكل أمه، عن اشتياقه لزيارة قبرها بجلباب جديد، كان يحكي من قاع قلبه وعيناه ليستا في الغرفة، كأنهما غادرتا للبعيد، ويداه ممتدان ممسكتان بقوة باللجام:

«شي، شي».

راح يصرخ بصوت مندفع على إيقاع سرعة المهرة، ثم فجأة كأنها توقفت عن السير، كان ذلك واضحًا، أغمض عينيه وأمال رأسه.

يحوم من بعيد، يرفع يديه بالدعاء، ودموعه على أمي كأنها أمه، وعينه على غنيمة:

"هاتوا الدكتور".

قالتها بلوعة، بلا صراخ أو غضب.

نحن في آخر بلاد المسلمين، وطبيب الوحدة الصحية في إجازة، وحتى لو كان موجودًا فلا علاقة له بالتوليد، وما قد يفعله في حالة كهذي أن يطلب الإسعاف أو يذهب مع المريضة في عربة للمركز، كان لا بد أن يذهب الجميع إلى اتجاه لم يتعودوا عليه من قبل، أن يطيروا إلى المدينة على طريق من تراب، طريق عرجاء عوجاء، قرابة ساعة ونصف، لم يكن هناك حل آخر، لكن لأنهم لم يتعودوا عليه بدا مجهولًا ومخيفًا، غير معتاد على الأقل، وقت من ضنك، وربما ما خفف الموضوع أن لا أحد يكترث كثيرًا لموت النساء.

حين وصلوا لم يكن هناك طبيب، ربما لم يفطنوا للذهاب للمستشفى العام، أو لا يعرفون، لم يجربوا من قبل، ومن يذهب للمستشفى العام يموت في الغالب.

أراحوا المرأة ممددة على الأرض في مقهى سمح لهم صاحبها في زمن قديم حتى يحضروا طبيبًا وأرسل في استدعاء زوجته من البيت، النساء بوابة النساء، حين قبضوا عليه ووصل كنت أرفض الخروج، والطبيب المتعرق في عز الصيف لم يجد أمامه سوى أن يجذب رأس الطفل بآلة ما، كانت أمي تقول إنه شدني "بكلبات"، حتى أطللت برأسي وتعاملت غنيمة مع الباقي.

أمازح أمي: "لو أن هذا حدث في الزمن الحاضر لربما حصلت على بطاقة تسمح لي بشرب القهوة والشاي والشيشة مدى الحياة".

تحكي أمي بفرح، الفرحة كنست الآلام، تبدو كذكرى فقط، حكاية كبيرة لكن على بساط من الراحة، انتصرت الطبيعة وتحققت الأنوثة في النهاية، والألم صار كالرماد، لم يعد هناك وجع، ربما حين أستعيد أنا الذكرى أستعيد الوجع، حين طالت مدة تمنعي وعدم خروجي تحت يد الداية الأولى، أكلت جدتي لأبي خيارة تلوك بها الوقت العصيب، تربض قرب أمي، زوجة ابنها وحبيبتها، كانت علاقتهما رائعة إلا حين تتدخل واحدة من عماتي غيرة لتسمم الآبار، أو طبيعة الغشم الذي كان فرض عين، يجري مجرى الدم، طبيعتهن ألا يمر شيء بهدوء، أوجعني أن أمي نهرتها لترمي الخيارة، هذا ليس وقت أكل والألم ينهشها، عاتبتها كثيرًا عندما كبرت، لكن جدتي لم تتذكر هذا يومًا،

قدرت لحظة الوجع، واقترحت اسمي.

خرجت من الولادة بعلامتين على طرفي جبيني، ظلتا لسنوات ظاهرتين حتى داوتهما الأيام، كل من تقبلني أو تحتضنني من النساء تتحسس العلامتين، واحدة تشهق وواحدة تدعو وأخرى تمزح: وقعتك كانت كبيرة، الغريب أنني حين زحف النمش إلى وجهي لم يستطع أبدًا أن يقترب من مجرى العلامتين، لم أفكر في هذا، كنت أفكر في نمش آخر.

أبي وإخوته ثلاثة أشقاء، وأخ من أمهم، وأخ آخر من أبيهم، ستة أشخاص، كل واحد منهم أمامه خمسة أسماء لأشقائه غير اسمه، وكل واحد يطلق على أبنائه أسماء أشقائه، في العائلة الصغيرة خمسة إبراهيم وخمسة لبهي الدين وخمسة لحامد، وأبي اسمه محمد في الحكومة وشهرته النادي، واسم شهرته طغى على كل الأسماء، غير أنه لم يحظ سوى باسم ولد واحد من أسماء أبناء أشقائه، ربما لأنهم كانوا يخشونه، والأرجح لأنهم كانوا يكرهون جدهم صاحب الاسم الأصلي والد أمهم الذي منحه اسمه، كان ولا فخر قد تزوج ثلاثين واحدة في مشواره النبيل، أربع معروفات، والباقيات الصالحات في بيوتهن أو في الغيطان، لعل أحدًا منا ينافح الآن ويسدي للرجل بعض حقه، فهو أول من اختراع زواج المسيار والويك إند وغيرها، لكنه تميز عن الجميع بالزواج داخل الغيطان في أحضان أعواد القمح الطرية وربما في الخص الذي يجاور الساقية.

اقترح أبي أن يكون اسمي محمد على اسم أبيه رغم أن اسمه أيضًا محمد، ليكون اسمي محمد محمد محمد، أنقذتني جدتي العاشقة للحكايات، تستمع كل يوم لتمثيلية الساعة الخامسة والربع في الراديو، وقت مقدس، ولو جاءت في وقت صلاة لأجلتها، كان البطل باسم جديد.

وجارتنا حين عرفت استغربت وقالت: «إشمعنى الاسم ده يا اختي».

أخاف اسمي، أخشى جملة: "مخاوفنا أقدارنا".

هكذا منحتني جدتي لأبي اسمي، أصعب اسم: أخشى أن يبطش

بي في آخر آيامي، ومنحتني جدتي لأمي شيئًا أصعب منه، إذ ورثت عنها أن أحلم بالأموات قبل أن يموتوا بأيام.

بكى أبي بحرقة.

لم أشاهده يبكي في حياتي إلا سرًّا في جنازات الفقراء والمساكين، على من كانوا نبلاء وخطفهم الموت في عزهم، على الكبار الذين يضبطون ميزان الدنيا، يرجحون كفة العدل والرحمة ويمنعون الأذى في منطقة فالتة.

يبكي المساكين بحرقة كأنه يدمع على حظهم القليل في الدنيا، أو لأنه لم يستطع وسط انشغالاته أن يسند ظهرهم كما يتمنى، ربما هذا وذاك، لكنه أيضًا بفقدهم فقد أنصاره، كل الغلابة والمساكين يتلمّسون حائطه ويركنون بقلب جامد عليه.

لم يقف معهم فقط، بل نظر في عيونهم وملأها، لم يسمح لأحد أن يقترب من جدرانهم النيئة الضعيفة، أتذكر الآن حين كنا نأخذ عزاءه، كنت جالسًا في أول الصف، خلفي، خلف حائط السرادق رجلان واحد من شيعته وواحد من عدوه، قال المسكين: "من للغلابة بعدك يا شيخ نادي!".

رد عدوه: "لا يا حمار، حسنته رحمه الله ليست أنه وقف مع الضعفاء، الغلابة لهم الله، لكنه لم يترك قويًّا يستأسد على ضعيف».

ذات يوم أخبرني لحظة سفره للمدينة أن أحضر الكوارع من عند الجزار، الأخير كان بجرم كبير يليق بجزار حقيقي ووجه باسم دائمًا، دائم المزاح واسمه الذي نعرفه «سكرة»، في المساء وبينما تتهيأ أمي لوضع الأطباق الأخيرة للعشاء سألني عما فعلت معه، قلت له إنني في اللحظة التي حملت فيها الكوارع كان قريب لنا يقف هناك، لمحت في عينه نظرة أسيانة، كأنه كان يريدها واستحى مني، أو أنني نطقت قبله.

راح يطيل النظر في وجهي، وأنا مرعوب في انتظار الرد، كأنه سيقول لي: لماذا لم تتركها له؟ يبدو أن النظرة الأسيانة للرجل بانت على

وجهي أو انتقلت له، آمر أمي آن تقسم الكوارع وحملتها بنفسي مطبوخة لدار الرجل.

أدار وجهه للناحية الأخرى وأخفى دمعته.

قلت بكى هذه المرة بحرقة، بكى لأقل من نصف دقيقة، لكنها كانت كافية لاشتعال الموقف في القرية.

استطاع أن ينتزع موافقة على إقامة مدرسة إعدادية في هذا المكان النائي، موافقة من فم غيلان، الحصول على مدرسة كان صعبًا والبلد خارجة من حرب وعلى شفا حرب أخرى، لكن الرجل الذي تبرع بالأرض سحب عرضه في اللحظة الأخيرة كالعادة.

يفعلون هذا دومًا، كأنهم يستكثرون عليه أن يكون في الصف الأول دونهم، وأن ذراعه أطول من مآربهم، يوغر قلوبهم الضعيفة بعض الحقدة وصغار النفوس، ناس قلوبها سوداء، واحد أصابته الغيرة فحرض صاحب الأرض على سحب عرضه، الأخبار ليست بعيدة عنه، اكتشف أن جدي الاحتياطي الذي كان يقود العائلة بعد أبيه خلف هذا الملعوب، كبر ابن أخيه، كبر وفاض عن سيطرته، وانتزع مقعد الكبير دون صراع على أرض أو عائلة، صنع نفسه بنفسه والتف الناس حوله وساعدته التحولات في زمن عبد الناصر.

رحل الشباب للجيش، للحرب القادمة، خلت الغيطان، ونفقت الأبقار مرة واحدة في حدث نادر، جمع الفلاحين، ربت على ضعفهم وشحن عظامهم، أركبهم في مقطورات الجرارات الزراعية بملابس الغيطان، وفيما يشبه موكب العصاة لم يقف به الركب إلا أمام مبنى المحافظة، كان المشهد أقرب ما يكون إلى مظاهرة احتجاج أو إلى مشهد عرابي الشهير مع اختلاف الهدف، وإن كان الموضوع واحدًا، كرامة الناس، وقف أمام المحافظ المستغرب من الموقف وقال: كرامة الفلاح في بقرته، يخاف عليها ويحميها مثل أبنائه.

لم يتحرك من مكانه سوى بقرار شفهي تم تنفيذه أن يأخذ كل فلاح بقرة من مشروع الإصلاح الزراعي على أن يسدد ثمنها بأجل طويل جدًّا.

ذهبوا حزانى دون آمل وعادوا يرقصون في مقطورتهم: الحادي الحادي، البادي البادي، ورئيسك مين، الشيخ النادي.

ويا شيخ نادي يا شيخ نادي، أنت العمدة في الناحية دي.

ويا شيخ نادي كتر خيرك، إحنا غلابة وملناش غيرك.

الشيخ نادي، معتدل القامة، بوجه بشوش صاف كأنه غسله باللبن، تحبه وتخشاه، أنيق، أكثر من لبس الجلباب أناقة في بر مصر، أكتاف عريضة تأسر القماش، حين يسافر للمدينة يتخيلونه أميرًا من بلد آخر، ذكاء حاد وفراسة لم أصادفها في رجل، قادر على قراءة الأشخاص بشكل نادر، كأن معه ميزانًا حساسًا في مخه أو في روحه، لذا استطاع أن ينال محبة الناس وهابه الصنف الشمال، عرف كيف يسوسهم والذين حقدوا عليه بقوة عاشوا يشتكونه وحين مات ذرفوا الدمع عليه، الرجال تعرف أحيانًا بالرجال.

في النهاية، يبدو أن عمه استسلم على مضض، يجلس في بلكونته يدخن وينفخ، ابن أخيه يسحب البساط من تحته أمام عينه، في ظهره الحكومة، موازين القوى اختلفت بفعل عامل من الخارج لم يحسب حسابه ولم يتوقعه لا هو ولا غيره، تصور أن الحياة ستمضي برتابتها بطيئة يملكها بين أصابعه كما ألفها، ولن تطلع عين فوق حاجب، وجدها قفزت مرة واحدة من قمقمها، ظن أن قوانينها التي وضعها قرآن لا يتبدل لكنه لم ينتبه إلى اختلاف التأويل بعد زمن.

خشاه عمه، ثم استسلم أمامه خاصة أنه كان يوده، مركز القوة أصبح في مكان آخر، لم يعد زمن شيوخ المنصر، استسلم وإن أكله قلبه، حين حانت فرصة المدرسة، حرض صاحب الأرض، لأنه ممرور ولأنه بخيل لا يتبرع بنملة لنبي، وساعده قاموسه على زعزعة موقف المتبرع.

لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة.

في الحقيقة حصل على قرار بفصل واحد يكون نواة لمدرسة إعدادية مع شرط لطيف أن يكون عدد الطلاب ثلاثين طالبًا وإلا سحبوا

المدرسة منه، تم حصر أعداد الطلاب فلم يصل إلى ثلثي العدد، كان عليه أن يفاوض اللصوص القدامى والجدد ليتركوا أبناءهم في المدرسة، عانى معهم من قبل لتعليمهم في الابتدائي، تمنعوا، ربما خشي كل حرامي على انقراض مهنته ومهنة أجداده من الضياع، كان إقناعهم صعبًا والمطر يهطل في أحواشهم لأربعة أشهر متوالية وبيوتهم لا تصلها ملائكة، في النهاية فرجت، وصل العدد تسعة وعشرين طالبًا واحتاج الأمر لطالب واحد فقط ليكتمل العدد.

رفض القشلان، اسمه هكذا دون تفتيش في النوايا، معتبرًا أن حصول ابنه البليد على شهادة الابتدائية كافٍ لأن يصبح شاويشًا في المركز يستخرج الفيش والتشبيه للناس ويحصل من كل واحد على جنيه كامل خارج الرسوم المقررة، والناس تعرف مصلحتها، قالها بالحرف الواحد، بيقين غريب كأن ابنه سيوزع الرحمات على الجميع وينقذهم من مأساة ستحيق بهم.

كان لا بد من حيلة، ولو مزيفة، اخترع أبي اسمًا، استخرج له شهادة ميلاد، أوقف صبيًّا في المدينة وعرض عليه أن يصوره ويحتفظ بصورة كبيرة له، للمصادفة الحسنة كان الاسم المدون خيري شلبي عبد الواحد، كان لا بد من احتفال يحضره مدير التعليم في المركز، لم يكن هناك مكان للمدرسة إلى أن يتم البناء، أفرغ حجرة في مبنى الجمعية الزراعية لتكون فصلًا وفرحًا، وانعقدت المراسم، نادوا على أسماء التلاميذ حتى وصلوا للاسم الثلاثين: خيري شلبي، لم يكن هناك خيري شلبي، هناك واحد آخر هو خيري القشلان، وافق أبوه بعد أن برم شاربه عشر مرات لأعلى على حضوره مراسم الافتتاح في مقابل ربع جنيه على ألا يعود الولد للمدرسة ثانية.

كان افتتاحًا في قمة الهرجلة، يشوبه بعض خوف من اكتشاف الأمر لكن زغاريد النساء اللواتي تجمعن حول الفصل الذي سيدخل التاريخ غطت على كل المراسم وتكفلت صواني البط والبرايم المعمرة بالباقي، كان أبي قد طلب من المقتدرين أن يرسل كل منهم صينية أكل وتكفلت أمي بالاحتياطي الإستراتيجي من اللحم المقلي وصواني البطاطس والبقلاوة التي لم تكن تجيد غيرها من أصناف الحلويات الكبيرة.

التآم الفصل بأعمار مختلفة، الطبيعي آن يكون عمر الطالب اثنتي عشرة سنة، لكنه كان يضم الشيخ عبد الحميد، ست عشرة سنة، وقد تزوج بحمد الله قبل دخوله الميمون للفصل بشهر واحد والسبب معروف، إذ إنه دخل للمدرسة في عمر العشر سنوات بشهادة ميلاد مزورة.

جمعهم أبي من القرى والعزب البعيدة المتناثرة، يحضرون على كيفهم، كنا تسعة تلاميذ من القرية وثلاث بنات، نلعب الكرة مع اثنين من المدرسين، واحد يتاجر في الصوف والآخر يتاجر في الأرز وفي الحادية عشرة تقريبًا يهل موكب التلاميذ القادمين من بعيد على الحمير، منظر مريع كأننا في فيلم للمخرج التونسي رضا الباهي، صبيان يلبس كل واحد منهم جوالًا على ملابسه الجربانة أصلًا كي يشرب المطر الغزير المتساقط طوال الطريق، والأبدع منه حين يصفُّون الحمير في حبل حول الفصل اليتيم الذي ندرس فيه، تحوطها أجولة الكيماوي والسوبر المخصصة لسماد الأرض من كل ناحية.

لم نتعلم شيئًا يذكر خاصة في اللغة الأجنبية، لا يوجد مدرس، راح الأولاد يكتبون الكلمات الإنكليزية بالعربية حتى يستطيعوا نطقها، البنات كن أشطر من الجميع لكنهن في ضجر دائم مع أن الغزل في حجرهن يفيض عن الحاجة، عرفنا السبب بعد زمن، يُرِدن أن يتعلمن في المدينة الكبيرة، تعليم ودنيا واسعة ومباهج نسمع عنها ولا نراها.

حتى جاءنا الفرج، جاءتنا مُدرسة من القاهرة، حظها الأسود رمى بها عندنا، أول واحدة تخطو لقريتنا، كانت تلبس جونلة قصيرة في البداية، بعد يومين فقط كانت ساقاها مضرب الحديث في كل أرجاء المنكوبة، اضطرت المسكينة لأن تلبس بنطلونًا قامت بتفصيله على عجل عند خالي، واضطرت أيضًا أن تعاني ليقبل الرجال أن تدرسهم امرأة، لكن أصعب ما واجهته كان فصل الشتاء، صحيح أن مبنى الجمعية الذي يحتض الفصل على الطريق، لكنه ليس طريقًا معبدًا، بل طيني، حين يأتي الشتاء وما أكثر ما يأتي يتحول الى معجنة حقيقة، روبة بالمعنى الحرفي، تزيدها مرور البهائم طينًا على طين، مع مشكلة أخرى خفيفة أنها تبعد عن باب الجمعية نحو خمسين مترًا، والأبلة لا تستطيع أن تمر في الطين مرور الكرام ولا اللئام رغم حذاء كعبها

العالي الذي شاهدناه لأول مرة ومصمصت النساء شفاههن عليه، كان لا بد من حلّ، وحل سريع، تطوع الشيخ حمد فراش المدرسة بعد أن استعاذ وحوقل، راح يحملها بين ذراعيه من الطريق حتى الباب يوميًّا وسط تصفيق الطلاب والعيون الجائعة للمدرسين، ورغم كل المعوقات والتحذيرات من فريق حاضر دائمًا يشتهي ويجهر بالمنع.

وعمي الشيخ حامد شيخ الجامع يهبط من على المنبر يتوسط المصلين ويصرخ، ناقمًا على الأهالي الذين لا يرسلون أبناءهم للتعليم وعلى الوزارة التي لا ترسل مدرسين بالعدد الكافي وبالمهارة المطلوبة لمنطقة نائية مثل منطقتنا، أوقف الخطبة كلها على التعليم، وبعد أن فرغ من الأحاديث: «اطلبوا العلم ولو في الصين يا بهايم»، تأخذه الجلالة فيقول: «إن الأرض لن تنصلح طالما عليها مسلم»، ثم يصمت قليلًا كأنه يفتش عن شيء غاب عنه، يقرأ صحيفة الأهرام كل يوم ويتابع كل نشرات ومعظم برامج الراديو ويشاهد أحيانًا برنامجًا في التلفزيون إن كانت هناك كهرباء، تنقطع دائمًا أيام المطر، فالسلوك عريانة، والمطر فوقها، أو إذا كانت هناك بطارية مشحونة، يتذكر أنه شاهد الأفارقة وكسلهم في برنامج فيقول بصوت جهوري: «أقسم بالله العظيم إن الأرض لن تنصلح طالما عليها مسلم أو إفريقي».

علامات التعجب على وجوه المصلين، فهو يشتم المسلمين في جامعهم، ثم ما علاقة الأفارقة الذين لا يعرفون عنهم شيئًا تقريبًا، تسري همهمات متبرمة، لكنه يرفع عمامته لأعلى، يمسح عرقه بيده ثم يباغتهم:

«حتى المسلمين والأفارقة الموجودين في أمريكا، معفنين».

٦٢

ما إن فتحت الشباك حتى رأيت ما رأيت.

منظر مهول، فوجئت، ارتبكت، لم أعرف ماذا أفعل، هل أقفل الشباك أم أتوارى خلفه، قد يلتفت الرجل الخائف بالطبع أن يراه أحد، المتوجس، فيكتشف وجودي، والشر قادم بلا شك.

اختبأتُ بالغريزة في عز الربكة، أظن أخذت نفسًا واحدًا ثم بدأت في التلصص من بين فروج الشيش.

كنت قد كبرت، بلغت السادسة عشرة أو السابعة، المرحلة بعد الأولى من البلوغ، مرحلة الهيجان والتخيلات، كبرت فصعدت للدور الثاني من منزلنا لأنام في غرفة وحدي بجوار غرفة أبي.

غرفتي تطل على وسط الدار الفسيحة، بيننا وبين جارنا حائط قصير لا يزيد على متر ونصف، من الأعلى أكشف كل شيء، أرى العالم الداخلي للدار، فسحة تضم قاعة الفرن وخوازن الطيور والأرانب وغرفة حفظ العيش واللبن ولوازمه، وفرن تقوم وتقعد من أمامه جارتنا بمؤخرة ضخمة تُملِّس عليها حين القيام وحين القعود، لا تفوت مرة، من الواضح أنها تعتز بها وتعرف قيمتها وخطورتها، تطويها تحت جلباب لا تحتاج أن تطلب شهادته لتشهق في هواء الفرن الساخن، وحين تقوم تقوم بها أولًا، تعرضها من الأسفل للأعلى بتكتيك منظم كأنها تشهد السماء عليها، عظيمة للحق في وجه من يراها.

في العادة أعود مبكرًا عند منتصف الليل حتى لا تحرقني عيون أبي الحمراء لأنني تأخرت، أريد أن أسهر في الإجازة، وهو يريد أن يحميني من الصيَّع على حد قوله، أول الشباب محفوف بالحشيش والمغامرات النسائية، لكن غرضه الحقيقي كما حدست ألا أتقاطع في علاقة مع شباب آخرين قد تجعله يغرز فيما لا يحبه وتخرب له توازناته التي يحسبها ويعرفها جيدًا، يمنع أو يقطع الخطأ قبل الخطر.

كان يستشرف الدراما التي تعبُّ بها الحياة قبل وقوعها، وأتعبه ذلك

كثيرًا، الفراسة عبء على أصحابها، فراسته حاضرة تمنع وتردع حتى لو حرمتنا تجارب الحياة وألفة الصحبة، لا يخاف، يؤمن بالقدر ورغم ذلك لا يستسلم لمكائد الحياة، لم أقابل رجلًا بقلب مثله.

عدت مبكرًا بسبب الخوف، نمت باكرًا، التهمت مجلة ميكي فغلبني النوم، لم يقرأ أحد مجلة ميكي في المنطقة قبلي ولا بعدي، إلا من يدي، وأنا بدوري لم أرَها إلا في الصف الثاني الإعدادي، عرفتها من إعلانات مجلة المصور التي كان أبي يحضرها، وذقت الأمرَّين أيامًا حتى وافق أن يخبر صراف الجمعية الزراعية أن يأتي بها من المدينة البعيدة عنا بأحلام طويلة.

استيقظت في السادسة صباحًا، قلقًا، أصحو عادة في الحادية عشرة، حمأة البلوغ بهرموناته تمردت على سكينة النوم فقمت، فتحت الشباك بهدوء حتى لا أوقظ أبي، كان حما جارنا يمتطي الحمارة، يكمش مؤخرتها، بذراعين متشبثتين، بقوة، يروح ويجيء، يدخل ويطلع، وكل فترة يسحب نايه يمسحه بيده، والحمارة بصوت متقطع بعيد لا يستطيع أحد أن يدرك إن كانت في مواقعة أم أن هذه طبيعتها.

لم أفرك عينيَّ، كل ما فعلته بعد المباغتة أنني اختفيت بسرعة، اصطدم رأسي بحافة الشيش بقوة آلمتني، لكني نسيت الألم في لحظة، عاودت بطرف عيني التلصص، كان العمل على أشده، لاحظت ما غاب عن عيني في اللقطة الأولى، الرجل القصير يقف على كرسي خلف الحمارة ليضبط العملية، ويبدو أن حرارة الموقف والاهتزازت انتقلت إليه فانقلب بالرجل، سقط على ظهره كاملًا ونايه متجه نحو السماء.

لا أعرف إن كان قد لمحني، أو لمح شباكًا مفتوحًا، إن كان سريع البديهة أو الغزيزة التي يتمتع بها اللص الخائف، رغم انهماكه كان يوزع نظره بين فترة قصيرة وأخرى لكنه يعود لعمله الشاق بسرعة.

لم يكن هذا الفعل غريبًا على منطقتنا، لكنها كانت أول مرة على الهواء مباشرة، كنا نسمع من الشباب بصوت خفيض أن شبابًا ينطون

على الحمير، وآن واحدة داعبت واحدًا يبدو أنه مشهور في المجال، "بقى أنت سايب النسوان دي كلها توَحْوَح، ورايح للحمير يا حمار»، كل شباب الفلاحين تقريبًا كانوا رحماء بحمير المنطقة وأطفأوا شهواتهم معًا، يشيعون أن امتطاء الحمير يجعل الخرطوم زلومة، برّوا بالحمير بما يملكون، بالدفقات الأولى للبلوغ، وواحد كأنه مفتي الديار المصرية يقول بثقة: "تمرين واجب إلى أن يحين زواجهم".

أشهر واحد في هذا المضمار الصعب كان البرشومي ابن عمي شقيق القذافي والعُكْش، نذره القذافي للعمل في الحقل ليل نهار، قل رماه للعمل كأنه حمار، هو في نظره على هذه الهيئة، لا يعطيه مصاريف الدخان ولا يعده بزواج قريب، شهيته لجمع الفلوس أولى من شهوة أخيه، وشهوة السلطة التي سيموت عليها أعمته عن شهوات من حوله، لذا انتقم البرشومي من كل حمير العائلة، ولأنه يعرف أن أخاه يعتدي على ناس العائلات دون سبب، فقد قرر هو مجاراة له أو تنغيصًا عليه أن يعتدي على أي حمارة تصادفه، بدا ذلك كأنه خرق للقانون المعتمد في دنيا مضاجعة الحمير، فأن تعتدي على حمير عائلتك فهو أمر جائز وفي باب المباح ويمكن لك أن تستغفر إذا فعلت، أما أن تعتدي على حمير عائلات أخرى فكأنك اعتديت على بناتهم وشرفهم.

كانت أغرب قعدة صلح في اعتداء البرشومي هذا على حمارتين عاليتين يهتم بهما صاحبهما بالحموم اليومي ولهما برادع من أفضل ما صنع للحمير، إذ خصصهما لركوبته فقط ولا يعملان أبدًا في الغيط، طلع عليهما البرشومي مرارًا، ونقل الأولاد عنه أنهما كانتا أفضل ركوبتين ركبهما في حياته ولولا الملامة -كما نقل الأولاد- لاتخذ واحدة منهما خليلة لدرجة أنه فكر أن يسرق جانبًا من الأرز قبل الحصاد ويبيعه شعيرًا ويشتري إحدى الحمارتين، قال أحد الأولاد إنه يهلوس لأن القذافي لا يعطيه ثمن الدخان، فيسرق كيزان الذرة ويبيعها ليشتري ورقة دخان وباكو من ورق البفرة ليلفه فيه، يُلجئه ضيق الحال والحيلة فيضطر إلى تحميص شواشي كيزان الذرة في الشمس ويصنع منها تبغًا محليًّا فيطير رأسه في السماء.

المصيبة أنه قد تم تداول كلام آخر نقل الموضوع لجانب آخر، ودفع به لحافة السخونة والعيب وهو السبب في حدوث أغرب قعدة عرب، إذ

نُقل عن البرشومي قوله إن الرجل صاحب الحمارتين يريد آن يعاشرهما وحده ولا يقبل بدخول قضيب آخر فيهما، شق الرجل جلبابه في القعدة من الأمام من شدة غضبه من الفرية ومن غيرته على حمارتيه، قالها علنًا، كانت هذه الجملة هي التي أشعلت الدنيا كلها، ودفع فيها القذافي حق عرب وصل لثمن حمارة جديدة بعد أن صرح الرجل بأنه سيبيع الحمارة التي وطأها البرشومي.

اسمه هكذا، في الغيط شجرة تين جاءت بالخطأ وسط أشجار الجميز، يشق التينة والجميزة بطرف مِطواته، يشرطها، يجدها تشبه شق حبيباته من الحمير فيهيج أكثر.

مازال شباك غرفتي مواربًا، ووسط دار الجارة مكشوفًا أمامي، ومازال والدها يأتي من المدينة على فترات متقاربة، لا يغيب حتى يعود، يرى ابنته بمؤخرة عالية تزيد بروزًا بسبب الجلباب أبو وسط الذي تلبسه وهو أرمل، وربما يهيج مع تلميحات من زوج ابنته بضرورة تزويجه، زوج ابنته رجل مهزار بطبعه يتحدث كثيرًا في الجنس، وله جملة شهيرة يرددها دومًا لحظة انصرافه من مجلس، يقولها وهو يضحك ويغمز: أحلى حاجة، أكل اللحم وركوب اللحم ودخول اللحم في اللحم.

بل يقولها لحماه وهو يقرصه في لحمه.

ضربني أبي بعنف، يبدو أنه فعل لأنه أكتشف أنني أعرف وهو الذي يراني خجلًا، قطة مغمضة، لكن الأرجح أنه خشي أن أكون قد حكيت الحكاية لأحد.

٢٧

عشت عمرًا طويلًا أحلم بالأموات، أراهم قبل أن يموتوا بأيام، أحيانًا بساعات، الذي يتأخر عن الحضور يمر أمامي كطيف، كأنه يشير عليّ بشيء ما، لم تنتبه أمي في البداية وحين فعلت حوقلت ودعتني ألا أنام في اتجاه القبلة، حتى لا أتخذ وضع الميت، ابتسم أبي: تعال يا شيخ، كان فيضه يكفي ويمسح كل شيء، إذا كنت تصدق أن الأب في عين ابنه على كل شيء قدير فهو أبي، لا تعنيه هذه الأحلام، يتخيلني نابغة المنطقة وسيرسلني يومًا ما لمدرسة المتفوقين.

أحلم فيرحلون، أسأل نفسي بخشية حين سماعي الخبر: ماذا كان يريد الميت مني!

أن أخبر أهله! أن أحاول أن أمنعه عنه!

آه، يريدني أن أزيد له في الدعوات أو أحضر جنازته.

كنت قد وقعت في النوم حرفيًّا قبل العصر كأنني غطست فيما لا قرار له، بعد يوم عمل شاق استيقظت له قبل أن يضع الليل قدمه في حذائه، فجأة أيقظتني واحدة فيه، دخلت لي في قلبه، هزت رأسي بقوة:

"قم وصلِّ عليَّ".

لم تكن قريبة مني، معرفة على مسافة، ود ناشف، سلام بالكاد إن تلاقت عينانا، مضطرَّين، حين تراني كانت تتفحصني عن بعد وعندما أقترب تبتعد.

آخر مرة رأيتها قامت من مكانها وسلمت ببشاشة، بنت غريبة الأطوار، ورغم دهشتي ابتسمت في وجهها بود، قلت لعلها وشاية وقضت عليها الأقدار دون تدخل مني.

منام وأحلام، يبدو أنني غرقت تمامًا في النوم، صوتها كان متعطفًا

هذه المرة: قم وصلِّ عليّ.

زغدتني.

الغريب أنني وصلت قبل إقامة صلاة الجنازة بدقيقة، وأنني حملتها من بين الأكف على يدي ونزلت بها لمخدعها الأخير ثم كنت آخر من خرج من عندها.

في البداية كنت مدهوشًا مع بعض الرعب، أخاف الموت، حياتنا كلها بالعنف والموت، مولود في منطقة اعتادت عليه والموجع على سيرته كأنه هواء، وواحد يصرخ في ابن أخيه المقتول غدرًا، الممدد بشباب يفتح القلب: «اصحى يا بني، الموت مش من عاداتنا»، كأنه يقاوم القهر بالاستسلام، ولا تعرف هل هي صيرورة الموت أم سيرة النَّمش.

رغم ذلك لم أدع الله أن يصرف هذه اللعبة عني، اللعبة الغريبة، الحقيقة التي لا تملك غير وجه واحد، لكنه وجه صارم، تمنيت في لحظة عابرة جدًّا أن تنصرف عني وألا أحلم بهم ثانية، في لحظة أسرع عبورًا أحسست كأني غارق، كأن في عيني أو في قلبي بلورة زائدة، لكن بما أنني لم أتمنَّ زوالها فلا بد في النفس شيء.

فلتذهب كل هواجسي إلى الجحيم، حدث منام عمي الشيخ حامد وانقلبت الدنيا، أكلت عصا حامد كل أحلامي، صحونا على منام يقصه على حلقات، كيف جاءه عزرائيل وتفاصيل الحوار الذي دار بينهما، وتناثرت أسئلة من عينه من الأطول بين ملكي الحساب: ناكر أم نكير، لكن السؤال الأهم: ما هي ملامح عزرائيل؟

تبعت السؤال أسئلة.

تغشى المكان قناعة حاضرة أن كل واحد يرى عزرائيله على هيئة رجل ما قبل أربعين يومًا من موته، بدا منامًا حقيقيًّا وخاف البعض وإن تسربت التفاصيل فيما بعد كمزحة، متسقة مع شخصيته.

إذا كنت لا تعرف عمي الشيخ حامد، فهو شيخ الجامع في قريتنا، إذا أردت أن تقرب الصورة قليلًا لتعرف، فحينما كان صحفي يسأل الكاتب

الشهير محمد حسنين هيكل عن العباقرة في زماننا كان يقول دائمًا: «ونجيب الريحاني».

الشيخ حامد هو النسخة الأوسم من نجيب، وهو النسخة الأعلى في كوميديا الموقف بل يبزّه، حاضر البديهة، سخرية نجيب كوميديا سوداء بعفويتها وسخرية الشيخ حامد سوداء بيضاء بعفويتها وصخبها.

أزهري عصامي، حصل على العالمية بطلوع الروح حرفيًّا، كاد يستنفذ مرات الرسوب، تخرج في العام نفسه الذي تخرج فيه أخوه الأصغر وكيل النيابة الذي رباه بعد وفاة أبيه رغم أن فارق العمر بينهما خمسة عشر عامًا، طبخ له وحممه وهيأ له أسباب النجاح، يضحك حين نعايره ويقول: إنه ابنه وقد حلف ألا يتخرج إلا معه.

بينه وبين العالمية ثلاث مواد رسب فيها جميعها، ارتدى جُبَّته ووضع عمامته وذهب للسينما، وحين سألوه: ساقط وفي السينما؟ أجاب وهو يقهقه: «بقى لا نجاح ولا نزاهة يا حامد».

واضح منذ البداية، يريد أن يعيش في المدينة عكس أقرانه، يتعب من غباء أبناء القرى، من الجهل، من الإصرار عليه، من النعرة الكاذبة والعنف الكامن في العيون والشقوق، والعصي المتربصة برؤوس الأعداء في قلب الظلام، عاش في مدينة «بِيَلا» في الفترة التي وقعت فيها حوادث قتل مريعة تزعمها شخصان بأسماء غريبة: «زعبولا والقطري»، حين استجهن حوادث القتل على المنبر صحا في صباح اليوم التالي فوجد قتيلًا على باب شقته، أغمض له عينيه وهو مرعوب، تركه نائمًا، جمع أولاده وعاد للقرية في اليوم نفسه من سكات.

طلب منه عزرائيل أن يعود معه إلى العالم الآخر، ورغم أنه بهت وغشاه الرعب إلا أنه حين شعر أن هناك فسحة من الوقت سأله عما إذا كان فرغ من مهمته في العراق وأفغانستان وانتهى من كل القتلى هناك حيث المعمعة، أو أنه جاء ليتسلى معه، أو ربما خائف من رصاصة أو قذيفة طائشة فهرب إلى البراري؟

تلقى منه جوابًا واضحًا أنه سيمضي الآن دونه على وعد بلقاء قريب.

عشرون عامًا كاملة يحلم به، والذين حوله ينتظرون الجديد كل يوم، لا يعرفون هل يقوم بتأليف الحكاية أم أنها حدثت فعلًا، الجانب الأول يرجح لأنه مهزار خفيف الدم يحكي عن النار والجنة ببساطة وكيف تمشّى بينهما وكيف تحايل حين رأى طابور الجنة فقرر أن يدخل فيه، لكن خازنها اكتشف أنه لا يحمل تذكرة الدخول فنهره بل ضربه، والجانب الثاني متأكد أنه يقول الحقيقة وإن غلّفها لأنه عايشها ونجا منها وربما لأنه لم يعد خائفًا.

يسألونه في كل مكان عن المنامات، لكنه لا يحكي حين يكتشف أن بين من يسمعونه أناسًا قابل أهلهم في العالم الآخر، يتحرج لكن المصائر تتسرب، كان أخشى ما يخشاه أن يقابله أحد ليسأله غاضبًا عما إذا كان رأى أباه في الجنة أو النار، يضحك وهو يتخيل، يضحك وهو يرد: «بينه وبين بحر كوثر مسافة بسيطة، لكن لا تخبر أحدًا، وتصدق عليه كثيرًا».

أحيانًا كان يخبره رسالة من تأليفه ليفعل هذا الرجل عملًا طيبًا، يزوج إخوته بدل أن يلهف كل إيراد الأرض في بطنه، أو يرد ميراث أخواته البنات، وحين يستغرب الرجل من الرد، يقول له: «يريد أن ينام على البحر ويتمدد ويعوم فيه، لا تحرموه».

لم يغب عزرائيل كثيرًا عنه، يتردد عليه كل فترة، يسأله إن كان قد نوى الرجوع، وهو يتمنع بل راح يلاعبه، مرة يقول له إنه سيسوي المعاش ليتركه من بعده لنميرة زوجته، وحين قبض مكافأة المعاش جاءه في الليل ليعودا معًا، طلب منه أن ينتظر حتى يقوم بِعَدِّ الفلوس والتأكد من قيمتها، وحين انتهى من عدّها وهو واقف علَى رأسه قال له: «روح دلوقت، عاوز أقول لنميرة كلمة».

هزار أقرب إلى المسخرة الجميلة، لكنه حين حلم مرة أخرى أنه واقف على ميزان الحساب، واكتشف أنه يحتاج حسنة ليدخل الجنة قرر ألا يعود معه، راح بقية عمره يبحث عنها، وكلما جاءه قال: «مش لاقي ولا حسنة عند واحد من ولاد الهرمة دول، اصبر شويه».

شيخ عصري، يفتي للناس ببساطة تناسب عقولهم، حضّهم بقوة

على العمل، وقف في جانب قيمة العمل كآسلوب حياة للمسلمين، يترك المنبر، يمشي بين المصلين، ينادي عليهم بأسمائهم، يستخدم أسماء كبارهم لإغوائهم، حول الجامع إلى مسرح، حين ترك الفلاحون حصيدة الأرز واستلفوا النقود ومنهم من باع بقرة أو خروفًا وذهبوا بثمنها لأحد الموالد، صعد المنبر وأقسم إن هذا الولي كما يعتقدون ليس مدفونًا في المقام المزعوم وإنه مدفون في بلد آخر حسب أوثق الروايات، ثم ألقى قنبلته الأخيرة: «أقسم بالله المقام اللي رحتوه مدفون فيه حمار ميت!».

صفعهم، صفع أقنعتهم، هز قناعاتهم رغم أنهم يعيشون مستمتعين باليقين، كادوا يقولون إنه لا يمثل الإسلام، لكنهم تذكروا أنه رد بقوة وصلف على ملك الحساب حين سأله عن دينه وربه، تذكروا جيدًا أنه واجهه بالقول: «ديني وربي! هما البهايم اللي أنا عشت معاهم كانوا هيعرفوه من غيري!».

لم يكن هناك صرف صحي، ناس تعيش في الهيش، حياة شبه بدائية رغم دخول التلفزيون والتوعية، سرب البعض ماء البكابورتات إلى الترعة التي يغسلون فيها طناجرهم وثيابهم، بل ويشرب البعض منها أحيانًا، والإوز والبط، صرخ من على المنبر: «والله العظيم أنتم أفسق أمة على وجه الأرض».

كان صادمًا وجارحًا للبعض، لم يستطع أحد أن يعارضه إلا تحت إبط السر، لم يقدر أحد أن يواجهه وهو أيضًا أكابر ابن أكابر، لديه ملكة الاحتواء، كاريزما الممثل الكوميدي البارع، حين تغص قاعة أبي برئيس مجلس الشعب وبطانته الخمسين يتفرق الحديث، بعد حضور الشيخ حامد بخمس دقائق يكون قد وضع القاعة كلها في جيبه وسيطر عليها، حين سأله رئيس البرلمان عما إذا كانت أمه تدعو له أم هو الذي يدعو لها باعتباره شيخًا، أجاب أنه ينتظر دعوتها كل صباح، فسأله عما دعت به اليوم، أجاب بسرعة: «قالت لي روح، إلهي ربنا ما يحْوِجَك لرئيس مجلس الشعب».

يأكل عند الغلابة أي أكل، بل ينادي: «رغيف عيش ومخلل يا حاجة»، يشعرهم بالقرب منه، صار له جمهور كبير من النساء على غير العادة،

بدا كشخص عادي خارج قفطانه يقول كلامًا بسيطًا، لديه مبلغ بسيط أيضًا، يسلفه لمن يحتاجه في السر، قبل أن يعطيه يمد له يده ليقبلها، وحين يستغرب أحد يكون رده حاضرًا: «عشان أنا هبوس رجلك عشان ترجعهم».

رجل عصري، هو من ربى أطفاله حرفيًّا، يحمل عن زوجته، يكنس وينظف، يتابع المؤونة، هو من يأتي بالتموين، حين يمرض أخوه يذهب بدلًا منه إلى الغيظ، يتابع كل شيء، لا يترك موسمًا للحصاد دون مشاركة ينهمك فيها كأنه أحد العمال، رجله على رجل أخيه الفلاح عمي بهي الدين، يحضر بملابس الشغيلة كأنه ليس هو الرجل الأنيق، العمال القادمون من المحافظات البعيدة لدراس الأرز لا يعرفونه، يعرفون عمي الحاج بهي الدين فقط صاحب الأرض، حين استراح ذات مرة في لحظة تعبئة الأجولة ونقلها من مكان لآخر نهره أحدهم: «أنت قاعد والحاج بهي الدين بيشتغل يا جدع أنت؟»، كان رده في الحال: «أنا أضربك أنت والحاج بهي الدين بالبلغة».

يلعب الطاولة طول الليل، يقرأ الصحف والكتب ويتابع، ينخرط وسط الشباب، يشاهد معهم مباريات الأهلي، وحين تعثرت النتيجة ذات مرة خلع عمامته ووضعها فوق التلفزيون اليتيم في قريتنا ففاز الأهلي، ومن يومها صارت حكايته أيقونة واستخدموه كتعويذة.

صنع صورة أخرى عن الشيوخ حين عاد مفرط الأناقة في رهافة لم تشهد لها البرية مثالًا، شديد الحرص على كل تفصيلة، يلمع أحذيته بنفسه، كان يضعها واقفة أسفل القفاطين، ربما أول واحد لبس حذاءً أبيض في منطقتنا، يأتي له بما يلمعه به من البندر في وقت كان شيئًا مستحيلًا، صارم في تربيتنا إن تجاوز أحدنا في صخب أو ترك أهله وخرج للعب: سأقطع لك إصبعك، له غرفتان متداخلتان، الأخيرة غرفة نومه تسمى الخزنة، لم يجرؤ أحد أن يدخلها سواي من بين أورْطة أولاد إخوته، بيني وبينه محبة الروح، بيني وبينه الحلم بالموت والأموات، في لحظة حين كنت أتمدد بجانبه ونضحك قالت له نميرة: «والنبي يا حامد، الواد ده كأنه ابننا».

كأنه!

يرد باستنكار.

حين رددت بعفوية على شخص ماكر يريد أن يعرف ماذا حدث بين أبي ورئيس البرلمان، صفعني لأول وآخر مرة: «لا تتكلم قبل ثلاثين عامًا».

أحبني، لكنه أحب أبي أكثر من أولاده ومن كل الدنيا، يقول: هو الذي جعل منا آدميين، لولاه لعاشت المنطقة في خراب طويل، جاء بالتعليم والسينما والأبقار، حتى ولو كانت الأفلام تعرض على حائط الجمعية الزراعية، نقل الناس من الجهل والعراك، أمسك عيونهم وفتحها على آخرها.

تأخر عزرائيل، من مدة لم يظهر، يبدو أنه نسيه، كما نسيه الشيخ تمامًا، لكن أحلامي عاودتني بعد أن غابت سنين، ظهر بيننا فجأة واحد عملاق، أطلقوا عليه اسم» كلاي»، لم يكن يشبهه لكنه طويل مثله ويتوعد الجميع، لبسه ودخل في تقليده، كان كلاي الحقيقي محبوبًا عندنا، مسلم يفوز على الكفار وصديق جمال عبد الناصر، يسهرون حتى الفجر في انتظار مبارياته، وآحاد يقسمون أنهم سيوزعون الكوكاكولا عند فوزه الليلة في مباراته الأخيرة مع لاري هولمز، وواحد يقول بثقة: «كلاي بتاعنا ممكن يغلب هولمز».

طاح كلايُنا في البلدة بعضلاته، سيطر على جيل الشباب وأصبح أسطورة، أشاع عن نفسه أنه يشرب الخميرة بعد تخميرها بشدة، في الحقيقة خرج عن عقله وضرب الجميع، لكن هذه ليست المشكلة، المشكلة أنه أثار الرعب وصار اسمه علامة عليه، إلى أن وقع في يد من لا يرحم، وقع في خوة الحب، أحب البنت التي يحبها عطية العناني، لكن ذلك لا يعنيه، لن يأخذ العناني غلوة بين ذراعيه، سيدعسه كنملة، وأصبحت سمعة عطية على المحك تمامًا.

بقلب جسور وعضلات أقل بكثير إختبأ له عطية عند خروجه من عند حبيبته، ومن قلب زقاق ضيق جدًّا فاجأه كسبع الليل، ضربه بمطواة قرن غزال في وجهه، جرح متعامد، تقول العامة: «عمل له ضبة ومفتاح»، وأنهى أسطورته في لحظة بدء المباراة.

لحظة متزامنة لكلاي في قريتنا وكلاي في أمريكا، الأخير ترفق به

لاري هولمز تلميذه ولم يوجعه، لكنه ضربه أمامنا وأسقط أسطورته أمام أعيننا، ونحن في ذهول، كلاي في الحقيقة وكلاي في الحقيقة أيضًا، واحد أمام أعيننا في الشارع وواحد أمام أعيننا على الشاشة، كنا فرحى وحزانى، مهبولين، عين بالملح وعين بالسكر، مات لنا قتيل ونحمل قتيلًا آخر، نبكي على واحد ونضحك على آخر.

انتهت أسطورة كلاي قريتنا في لحظة كما بدأت فجأة، ولم تبدأ أسطورة العناني، تزوج حبيبته وعاش يبحث عن لقمة عيشه، لم يعد في حاجة لبطولة، فعلها، وقف في ظهر الجميع وتركها، لا تعرف ماذا خطر بباله يومًا، كان في السابعة والخمسين، رأى جسده عاريًا في المرآة بعد أن تحمم، فتيًّا كأنه لم يكبر، قال: «كل هذه الصحة، معقول هذا الجسد يموت؟».

لم أعلم بالحكاية، كنت خارج القرية، اتصلت لأسأل أخي عنه، استغرب وقال: «مات منذ دقائق».

والشيخ حامد يقهقه، يضربني على كتفي ويقول: «أوعى تحلم بيا يا ابني».

نسي عزرائيل وعاش وقته دون أن يخشاه، لا يمل اللعب، يلعب مع أبناء من لعب معهم وماتوا، ظهره لسريره، باب غرفته مفتوح على الصالة الواسعة، فرد الطاولة وأمسك بالزهر، وقبل أن يرمي قال جملته الأثيرة: «تعال يا زهر»، لكنه لم يرم، والطبيب الشاب أمامه ينتظر ليبدأ اللعب، يتطلع إليه، يده معلقة في الهواء، فصوص الزهر بين أصابعه، عينه معلقة على الباب المفتوح، نظرة مندهشة.

جاءه عزرائيل بوجهه الذي رآه به منذ أكثر من عشرين عامًا.

٢٨

حين قام بتفصيل أول بيجاما عند دخوله لمدرسة التجارة ظهرت مواهبه، راح يشرح كيف اختار أن يجعلها دون ياقة كأول اختراع يدخل منطقتنا على بيجامة شتوية، مع أن الياقة في الأساس معمولة للدفء، فيما وضع الياقة في البيجاما الصيفية التي تتخلص منها أصلًا طلبًا للبرودة، لو أن الرجل صاحب دكان الحياكة سمعه وهو يستعرض ذلك لاختاره ليعمل معه ويسحب له كل زبائن السوق في صرعة جديدة، ولو أن شركة علمت بما فعل لاختارته مديرًا للدعاية دون مسابقة.

لو رأيته وهو يشرح فوائد الكيلوت الجاهز الذي اشتراه من شركة عمر أفندي وكيف أنه ينام تحت البنطلون دون أن يأخذ حيزًا كأنه قطعة منه أو مجرد بطانة حتى لا يتجعد، لقمت من فورك إلى أهلك وخلعت أمامهم لباسك الفلاحي التفصيل وأنت تبكي أو تصرخ معلنًا انتهاء هذا العصر وضرورة دخول عصر مغازي الجديد.

كأنه حاوٍ، كأنه مندوب شركة إعلانات قبل أن تظهر الإعلانات، كل ما يخصه أو تطاله يده يجب أن يصير الموضة أو النموذج حتى لو كان كيلوتًا جربانَ، قادر على الشيء ونقيضه، قيمة أي شيء لأنه ملتصق به، ليس أنانيًّا، هو في قمة الأنانية، ومهارته الحقيقية في إخفائها أو جعلها نموذجًا حين يريد.

اسمه مغازي، اسم ليس عاطفيًّا صحيح، وإمكانية سحبه لمنطقة الدلع متعبة وبطيئة لا تناسب الدلع، معه دائمًا هناك حل، في الأخير قد تندهه امرأة حلوة بتغنج لتقول: «يا واد يا غازي».

جاء الاسم على مقاسه تمامًا، هو ابن أفقر اثنين تقريبًا في المكان، أمه وأبوه من أقصى المحافظة، وحيد، أب يجري خلفه نصف اليوم وأم تبكي عليه بقيته، العائلات الكبيرة تكاد تفرمه، لا عصا في يده ولا أهل يستند إليهم، لكنه ذكي شرير يعرف كيف يخفي شرّه، لا يغضب، الغضب يكلف الكثير ويحتاج لظهر كبير، جعل بلديات أمه الموجودين في البلد أخواله، لكن العم يحتاج عصبًا وهو بعصب مسلول تطيّره أقل

هبة ريح، مع ذلك هو بصحة جيدة، آكل الحاف يربي الأكتاف.

غازي، لا مكان له عند العراك لا في المعارك الصغيرة ولا الكبيرة، بعيد عن الجميع حتى لا تلطشه عصا، لكنه في المنطقة الدافئة، قريب من أولادهم يحشرهم تحت باطه حتى تكون له عصا، ملعون، يعرف متى يضحك ومتي يكشر، في الغالب لم يضبطه أحد بتكشيرة، تكلفتها كبيرة، كلٌّ له دور عداه، لا بد أن يخلق دورًا ومقعدًا، وهو كأن دوره يناديه، اختار دور المتعاطف المتحسر على الأحداث المزعجة في الخفاء، مكان مضمون بعيدًا عن الصراع وحتى لا يضطهده أحد، وفي العلن اختار دور المذيع، يذيع مباريات كرة القدم من ملعب القشلان على الهواء مباشرة، صوته عبر الميكروفون يصل للبنات على الحنفية العمومية وفي الغيطان ويصل حتى لدكاكين التموين والجامع، يقلد مذيعي الكرة في الراديو، يقلد صوت كل مذيع خمس دقائق ثم يعرج على غيره ليسحب الإعجاب والآهات، في فترة تألق الكابتن لطيف وعلي زيوار وحسين مدكور، رشحته البنات اللواتي يغسلن الأواني في جرفة الترعة للسفر لمصر للعمل في الإذاعة والمجد قريب.

ليئم وضعيف يريد موقعًا، دائمًا يجز على عين بقوة ويفتح الأخرى كأنه يخشى أن يضبطه أحد بموقف، لن تراه بعينين أبدًا إلا حين يضحك أو حين توافقه، صنع طقسًا جديدًا، وراح يذيع مراسم كتب الكتاب في مناسبات الزواج، بل تخطى ذلك إلى تقديم المطربين الشعبيين، هو من اخترع الوصلتين في الأفراح عندنا حتى يتمتع بميزة التقديم مرتين، يريد أن يخطف الضوء مثل المطرب تمامًا، وحين يهبط بين الناس يقود جوقة التشجيع ليظل حاضرًا، قبل أن يطلع المطرب يكون هو قد اختار بعض الأبيات ليقولها قبله ويحظى بالتصفيق.

اللعبة تعجبه، بل هو ابنها وصانعها، بذرتها داخله منذ شاهد وضعه الرعديد بين أمم القرية، عرف كيف يختار موقعه وعينه على الكرسي الذي لا يريده أو يفكر فيه أحد.

بعد معركة البيجاما والكيلوت، كان لا بد من شيء يضمن استمرار وجوده، يحب عبد الحليم حافظ معبود الجماهير ويسرح شعره بفرق على اليمين مثله، وإن كانت مشطة أمه العتيقة بالكاد تضبط شعره

الأكرد، يحب الأينودي ويحاول آن يفعل مثله، يلم الناس آمام الراديو كل يوم بحكاية أبو زيد الهلالي مهما كانت قديمة، وهو ليس أقل منه، حديثه مغوٍ وضحكته طازجة، يعرف كيف يختار لكل واحد مقامه.

كان لا بد من حكاية ليطير مثله في الأعالي، لتطلع سيرته في الراديو، البذرة موجودة والهوس ينطق، يحتاج مكانًا أكبر تحت الأضواء، هدفه الأساسي منذ زمان، حين كان عمره ستة عشر عامًا، لم يكن لدينا سوى تليفون واحد في دكان الشيخ علي الكبير، يأتي بمكالمة وحيدة كل شهر تقريبًا.

وجاءت:

سيارة مسرعة ضربت مغازي في المدينة البعيدة.

اندفع الناس من البيوت كالتائهين، كانت صرخة أمه وهي تطير حافية في الشوارع باتجاه المدينة: ولدي ولدي، تخلع قلوب الملائكة قبل الناس، لا سيارات، جحافل تجري على الطريق، أقرب سيارة على بعد ثلاثة كيلومترات عند الهويس البعيد الذي صنعه الإنكليز وربضت بجانبه السيارات، ومن له قلب؟ في اللحظة نفسها صار ابن كل الناس، لم يعد الحيلة والسبيلة لأمه وأبيه، لم يبق في القرية أحد إلا النساء اللواتي لا يملكن رضعًا، في الحزن المباغت كما في الثورة يتساوى الناس.

لا تعرف من أين تطلع الفتاوى، من طبيعة البشر، من الصدمة، من لطمة القدر أم من عدم إيمانهم بأنه ربما يكون خيرًا، من وطأة الخبر الأول بالحادثة فيتخيل البعض أو يدعي المعرفة، قالت الحاجة روحية وهي صاحبة أصغر دكان تصادفه في الكون وصاحبة جلباب فريد له جيوب من جنبي ثدييها: ضربته العربة والدم نزف من فمه ولن يعود.

وخيمت نذر الموت.

فتشوا عنه المستشفى اليتيم، لم يتركوا عيادة لطبيب، يسألون الناس في المدينة الذين يقابلون السؤال الغريب باستغراب، مغازي قريبنا ألا تعرفون ماذا حدث له؟

ولا من مجيب.

لم تطاوعهم قلوبهم أن يعودوا بسهولة بلا جواب، لكنهم عادوا، بعد أن فتشوا المشرحة عشر مرات، بعد أن سألوا طوب الأرض وحجارته، عادوا، علَّ خبرًا من الطريق، وجدوه بجانب الهويس، بدا مدووشًا ومندهشًا، لكنه لم يكن زائغ العينين، كان يشارك الناس العجب، اندفعت أمه تحسسته بسرعة ثم سقطت مغميًا عليها.

زفهما الناس على عربة كارو: ويا محني ديل العصفورة وبلدنا هي المنصورة، وأهو جالك أهوه.

كان يلوح للجماهير التي تجري تسابق الحمار كأنه عائد بمنصب الخديوي من الأستانة، وأمه مثل خرقة يتيمة نائمة تكاد تسقط على الأرض.

قال واحد بعد أن هدأت الدنيا: كاذب، هو من اتصل بالتليفون وبخَّ الخبر المفجع، مريض لا يستطيع أن ينام دون نار ودون ضوء، ليس له ظهر ويريد أن يكون له وجه.

هو لا يحتاج مكانًا تحت الأضواء فقط، يحتاج أن تستمر الأضواء وأن يكون وحده على القمة، يعرف كيف يتقلب مع الأزمنة، تعرفه جماهير الكرة في المنطقة، يتغير اللاعبون مع الزمن ويخلد المذيع، أخذ عضوية المجلس المحلي بمنتهى السهولة، كل الناخبين يعرفونه من صوته في الملاعب، وعلى الطريق إن شاء الله.

مراوغ عالمي، لا تستطيع أن تعرف بطنه، ولا أين يقف، يضحك مع الجميع ومن الجميع، يضحك لنفسه.

عند أول انتخابات للبرلمان كان أول المتقدمين، لم يرمِ كل كروته، كارت واحد، كأنه يملك سحابة وينتظر غيثها، توالى المرشحون عليه يعقد مع هذا ويفك مع الآخر، الكل يعتقد أنه في جيبه وسيتنازل في اللحظة الحاسمة له.

إذا كنت تظن أنه تراجع فأنت مخطئ، واقف في المنطقة الدافئة

بنفس العينين، واحدة مغلقة وآخرى مفتوحة، المنطقة الدافئة تتيح له الرؤية من أعلى، وسيعرف متى سينزلق.

انتظر المرشح الكبير، كان يعرف أنه قادم، كانت الصفقة مخفية، كل ما تسرب منها تكهنات حول المبلغ الذي أنفقه مع أنه لم ولن ينفق شيئًا، ومبلغ للتنازل، على أن يختفي تمامًا من المشهد، وأن يقف بكل قوته خلف المرشح، كان له شرط غريب أن يتولى هو رئاسة حملة منافسه الذي تنازل له.

الذي يعيش بدودة يموت بها، تولى الحملة، لديه كشوف الناخبين، وغريزة المذيع تنقح عليه والأضواء لا يجب أن تبتعد عن أنفه، سرق الكاميرا من الجميع، يذيع في السرادقات، يقدم المرشح، يخطب قبله وبعده، يركب فوق سطح سيارته قابضًا على الميكروفون ليراه الجميع، يجمع له كل الأوصاف، ينادي: زكي شرف الدين نصير الإسلام، زكي شرف الدين نصير الاشتراكية، نصير الديكتاتورية، يغمزه من معه، اسكت: الديكتاتورية حلوة جدًّا، نصير الفلاح والموظف والضباط، زكي شرف الدين نصير الشيوعية.

الذين أخرجوه من قلب الترعة العميقة حين سقطت بهم السيارة سمعوه يقول وهو يرفع يديه عاليًا: زكي شرف الدين نصير العلمانية.

٢٩

لا أعرف بالضبط أين ولدت، الأرجح أنني ولدت في الوهم، منطقة بلا تاريخ سوى تاريخ الذئاب والأفاعي، قبل أن يأتي الإنكليز ويقيموا الكباري والجسور الصغيرة، منطقة مغطاة كلها بالماء تقريبًا، تحدها البحيرة من ناحية والسماء من ناحية أخرى، تفيض الأولى بل تغير عليهم وتهطل الثانية، بقعة ملائمة جدًّا للصوص أفاضل ولهاربين عظام، على مقاسهم بالضبط، الله فوقهم والبوليس بعيد عنهم، سماء غامضة وطير غريب مثلهم يعبر من فوقهم للجنوب طلبًا للدفء، يتوقف عندهم ليستريح، يسدد ضريبة المرور، يقصفون منه ما استطاعوا ثم يتركونه لبقية رحلته.

ماء فوق طاقة العيش، ماء فوق الماء وتحته، يحوطهم من كل ناحية، بعدما ناموا فوقه بنوا عششًا على القباب العالية التي صنعها انحساره عامًا بعد آخر، كل حرامي أو هارب بنى عشته فوق «علواية»، يقال إن أصحاب المقام العالي في الجريمة اتخذوا أعلى القمم ليطلوا منها على من هم أدنى منهم، أشعلوا نارهم كأنهم يعيشون في صحراء العرب، كان التنقل صعبًا بل مستحيلًا أحيانًا، صنعوا من الأشجار مراكب بائسة يتنقلون بها للوصول لبعضهم أو للهويس الكبير على مسافة أربعة كيلومترات، حوله ما يحتاجونه، هم لا يحتاجون كثيرًا، المهم أنهم بعيدون عن يد الحكومة، لا تستطيع أن تطالهم وهم في قبضة النسيان، وستطوي حكاياتهم الأيام، لكنهم بعد أن اطمأنوا شعروا بالملل كطبيعة البشر، وربما اشتعلت داخلهم غريزة المغامرة، في الحقيقة كلهم مغامرون، حتى لو كانوا مغامرين من النوع الشمال، قتلوا أو سرقوا، هاربون من ثأر والكل في النهاية هارب من السلطة.

وحتى بعد زمن بعد أن عَمُر المكان قليلًا وانسحبت المياه إلى البحيرة، ظل المكان قفرًا وظهر اخضرار الزرع على استحياء، أرض مالحة ورجال أشقياء لا ينبت بين أيديهم سوى الدم، لم يكن أحد يعرف اسمًا للمنطقة، يقولون البراري وكفى، رغم أن البراري تشغل نصف مديرية قبل أن تصبح محافظة، إجابة عامة لا تشفي غليل السؤال، لكن الأمر لا يسلم من إجابات مستسلمة لواقع الحال تفوح

منها رائحة السخرية، حين يسأل أحد واحدًا من عندنا: من أين؟ تكون الإجابة إياها حاضرة: نحن من منطقة على شمال السماء مباشرة، عند آخر حافة، ويرد آخر وهو يقهقه: «حتة ولزقوها في الأرض بعد ما كملت».

في الجانب البعيد من قريتنا استقر نفر منهم، جدهم اسمه زعلوك، مع الوقت صار اسمهم الزعالكة، انتحوا جانبًا، صنعوا قرية كبيرة واستصلحوا نحو ألفي فدان بعد أن كثرت ذريتهم، إخوة هبطوا للمنطقة معًا، عمروها واستعمروها، ملامحهم مختلفة قليلًا عن باقي البشر، أجسام منبسطة عريضة، جزء منهم بطول غريب، والباقون بعرض أغرب، وجوه حمراء كأنهم من نسل أوروبي أو طال صهد النار نطفتهم، بياض لم تألفه العيون هنا، يقال إنهم هربوا بألوانهم من المنصورة حيث حملة لويس، أو من سلالة إنكليزية حيث فر جنود فريزر إلى دمنهور القريبة نسبيًّا، أو جاءوا من رشيد حيث قبع الجنرال مينو وربما من سلالة أتراك.

أجساد ضخمة كأنهم خلق البشرية الأول، يقال أحيانًا إنهم من سلالة رجل هبط من سفينة نوح، لذا يكثر بينهم اسم نوح، لكنهم أصروا على الاحتفاظ بلقب زعلوك وتفاخروا به، وتركوا اسم نوح لغيرهم وأصبح هناك فريق يسمى النوايحة.

استولوا على ثلاثة أرباع المنطقة، عددهم كبير، وصنعوا قوانين خاصة بهم، أهمها أنهم يأكلون عندك ولا تأكل عندهم، يأكل عندك وتشعر أنه يمن عليك لأنه تفضل بشرف استضافته، أو كأنه أتى بالأكل معه إلى دارك، وعليك أن تمتن للحياة وله بهذا الشرف والمهم في النهاية أنه تفضل عليك كأنه أعطاك نيشانًا.

لا قيراط عندهم يذهب في الميراث لبنت أو امرأة، كان القمل في البداية يزحف على أقفية الناس وأقفيتهم كالحبال، لكن بعدما استصلحوا الأرض وطرحت راحوا يلبسون ويأكلون، بل يتبارون في ذلك، لم يكن أحد يلبس جلباب صوف في المنطقة ففعلوها، راحوا يسافرون إلى البندر في القطار البسيط الذي جلبته الحكومة واختلفت الأحوال، يصرفون إيراد الأرض كلها في المدينة على ما

تشتهي نفوسهم، على بطونهم ومظهرهم، ليس آبهة ولا فخامة، على الأرجح كبر وغرور وكثير من التباهي وكأنهم خلقوا من طينة أخرى، كلهم بأنوف معقوفة بحجم وافر كأن الصلف اختص بهم واختصوا به، يمشون معوجي الرؤوس كأنهم هبطوا من كوكب آخر، طرد أحدهم ابن أخته من أمام مركز البوليس وكاد يضربه حين علم أنه حضر ليستخرج بطاقته الشخصية وقال قولة صارت مثلًا:

كيف تستخرج بطاقة ونحن أخوالك!

لم يكتف بذلك بل جذبه من جلبابه ليشرح له أن البطاقات فقط لمن لا ينتسبون لعائلة زعلوك: ستفضحنا بين الأمم.

الأرجح أنهم هم سبب وجود النمش في المنطقة، البذرة الأولى، وهم الذين حولوه من بقع على الوجه إلى بقع في الروح وفي إحدى الروايات إنه ليس مرضًا يأتي من الطبيعة أو من الجينات أو الوراثة، بل يعتقد أنهم زرعوه في بداية هبوطهم للمنطقة وانتشر كوباء في الفعل لا كبقع خجلى على الوجه.

في الفترة الأولى لم يكن هناك جوامع ولا أحد يركعها، اللصوص والهاربون من الحكومة والثأر وغيره أسقطوا عن أنفسهم فريضة الصلاة، لم تكن هناك امرأة تصلي في المنطقة كلها، ولم يكن لهن أي وضع، زوجات خادمات يتبعن الرجل ويصلين خلفه على أي وجهة يختارها، عاشت النسوة في منطقتنا يأكلن بواقي الرجال، ولم يكن يتبقى شيء على الإطلاق من موائد هؤلاء الغجر العماليق، وأمي ترفع عينيها للسماء في أول الشتاء ترى قوافل الطير العابر وتقول:

«الطير الحر وصل».

ينتظرونه ليصطادوه ويأكلوا على حساب الله دون تعب إلا من نصب الشباك وإشعال النار، لحم فاخر دون تكلفة، حين سألت أمي واحدة من عائلتهم بصوت خفيض: ماذا تأكلون حين تذبحون أو تصطادون؟ أجابت: «اللي حاطط واللي طاير».

يأكلن فقط أرجل وأجنحة الدجاج والإوز والبط لسنوات، بل لثلاثة أجيال

على الأقل، يأكلن مصارين الإوز والبط أيضًا.

في فترة لاحظ الناس اختفاء أبوقردان من الغيطان، شاع أنه يعالج أمراض الكبد، وقيل أن نساءهم يأكلنه حتى يحبلن، يقول ناس إنهم من يأكلونه لكنهم من اللطف والحكمة، بحيث يأكلون الصدور فقط ويتركون الأوراك لهن، وربما يتركونها لزفارتها.

جزء من هذه العائلة تسلل لقريتنا وصنعوا عزوة بأعدادهم، في الغالب نزحوا للزواج أو خلف الأرض، أشهرهم وكبيرهم هو جدي مسعود، خال أبي، كان الأخ الأصغر لإخوته الأربعة عشر الذين نجوا من الأمراض ولم يطَلْهم الموت، السيجارة الفرط بجانب صندوق سجائر مكتمل، حين ولد كان أصغر من كل أولاد إخوته، ومع الموت والزمن صار هو الكبير لهؤلاء الغجر في سلوكهم، لم يفلت من نسل أبيه رجل محترم سواه وواحد آخر، وعلى غير العادة لم يتزوج سوى مرتين معروفتين، مهيب الطلعة، صاحب كلمة، صاحب قدر، يعرف أقدار الناس ويقضي بينهم، يمنع الشر بالردع العام، وراءه رهط كبير من أفضل المارقين، وضعهم جميعًا تحت إبطه قل خنقهم ولولاه لخربوا المنطقة كلها، لم يرث من أهله سوى حب الأكل، بل تفوق عليهم، أنفق حياته كلها في مصالحة الناس وأكل البط، عاش يأكل بمزاج وافر، اليوم الضعيف يأكل فيه نصف بطة، يوم بائس له ولمن حوله، لا يأكل بشراهة لكنه يطيل ويقلب ذكر البط بأصابع موسيقار، يقضي عليه بمحبة واضحة، ثم يترك العظم على هيئة شكل فني أقرب للنحت، ولولا أن موسوعة جينيس لا تهتم بمنطقتنا ولا بموضوع ذكور البط لدخلها من أوسع أبوابها، حاول أحد أحفاده ذات يوم أن يفعلها فأرسل لهم مناقبه لكن الموسوعة لم ترد عليه للأسف.

الذين يغرقون في اللحم ويعبدونه لا يقتربون من السمك، من يدعو أحدهم على سمك فكأنه أهانه، لا بد من المرق، لكنه عاشق من طراز فريد، الأكل عنده هواية على الأرجح، والسمك عنده وجبة للتغيير، مسح زور، حتى يعود إلى معشوقاته، كان عليه أن يركب مركبًا صغيرًا لعزومة على حافة البحيرة، هبد فيها أصناف البوري والطواجن التي نامت وشبعت في فرن الطين والسمك المدفون داخل الأرز، في طريق العودة حين وضع قدمه في المركب نامت على جنبها

وكادت آن تنقلب به، بعد آن لحقته رعاية الله وتلقفته الأيادي من حوله جلس مضطجعًا، تكرع أول مرة كسبع ثم وضع يده على بطونه السبعة وراح يطبل، قال بصوت مخنوق: «أنا حاسس إن السمك بيتلعبط في بطني».

أسطون، تراه قادمًا من بعيد يدب على الأرض بأربعة أقدام، في طقوس الزواج يأخذ والد العريس وكالة ابنه وقد يمررها لشقيق له، إلا عرائس المنطقة كلها، ذهبت وكالتهن كلهن لجدي مسعود على طول امتداد حياته، ما دخلت عروس إلا بتوقيعه، ولعل موسوعة جينيس تندم على أنها لم تسجله بعد أن ضرب الرقم القياسي، أغلب الظن أن كل ذلك لا يعنيه، فقبل أن يذهب لعقد الزواج وأحيانًا قبل أن يعود تكون ذكور البط والإوز قد سبقته لتستقبله وهي تقاقئ في صحن داره.

حين مرض اكتشفوا زيادة رهيبة في الكوليسترول والدهون الثلاثية في دمه، كان ذلك طبيعيًّا، لسنوات يزيحون له النصف الأعلى من طاجن الأرز المعمر ويتركون الجزء الأسفل، مكتظًّا باللحم، بأرز ساحت عليه دهونه وذاب فيها، صعب أن يقاومه أحد، لا يكتفي بذلك بل يضع فوقه صحن قشدة، خبط في حياته ما لا يقل عن سبعة آلاف طاجن وربما تجاوز ودخل سباق العشرة الآف، المؤكد أنه مات بسببها، حين شيعوه رفض بعض أهله أن يدخل إلى القبر، وتمنوا لو عاش وقضى على كل بط وإوز المنطقة، دفنوه قريبًا من بيته على حافة حقل له، شاعت عنه أساطير بأن البط والإوز الذي يأكل في الحقل وفي الجدول الصغير المجاور يطير أحيانًا ويحوم فوق قبره.

وأمي ما زالت تقول كل يوم: الطير الحر وصل، ربما كانت تتوحم.

لكن بما أن لكل قاعدة طيرًا يفلت من أسرها، كانت هناك نساء لها حظ تحول بشكل غريب إلى حظوة، واحدة لم تتزوج لأي سبب، يسمونها من خلفها كوم الدار، تصبح كبيرة إخوتها ونسائهم، لديها المفاتيح، مفاتيح كل شيء من النقود إن وجدت إلى خزائن اللبن والخبز والسمن، وهي من تقرر بعد تفكير عميق ومشاورات لأيام ماذا ستذبح في العيد وفي يوم عاشوراء وإخوته، بطة أم بطتين أم ذكر

الإوز الموجود من العام الماضي، وواحدة بشآن كبير لم تتزوج آيضًا لأنها ابنة العمدة ولا يوجد من يكافئها في المقام من الرجال أو هذا ما يشيعونه حين يسرع القطار ولا يتوقف في محطتها، مسعودة كانت واحدة حقيقية منهن، أبوها العمدة وإخوتها هم العُمَد من بعده بعد عمر طويل، تعرف ملابس أبيها وجزمته وقفطانه وحزام القفطان وجوربه إن كان عنده جورب، تمشي في الدار مثقلة بالمفاتيح، سر أبيها ولو كان متزوجًا أربع زوجات، كلمتها تمشي على الجميع بعده وأحيانًا قبله: «يعني لا عَدل ولا منظرة».

أبوها أول عمدة في المنطقة، عمدة البرين كما يقولون، وكما يحدث دائمًا مات فجأة بعد أن أكل ثلاثة كيلو من اللحم جاءته هدية من خطيب حفيدته يوم شراء الذهب، جاء اللحم في المساء، لحم ملبس مكتنز بالدهون، يصلح فقط لأن يطبخ في الطواجن لا في الطناجر حتى تذوب دهونه، العمدة الطيب جاءت نفسه على اللحم رغم تأخر الوقت، طبخوا فأتى على الثلاثة كيلو كانه يتسلى وحمد الله، لم تكن هناك عظام في اللحم، وفي اللحظة التي مد ساقه ليركب حمارته النزيهة ببردعتها الأنيقة ليقضي سهرته عند ابنه البكر سقط ميتًا على الأرض بين أرجل حمارته.

ورغم أن الفأل سيئ والنهاية سيذكرها الناس لزمن، فقد تدخلت بنته العزباء في الوقت المناسب، أمرت أن يحفروا له قبره في الليل ليدفنوه ظهيرة اليوم التالي، وأصرت بما أنه العمدة الكبير وحتى لا يتذكر الناس موضوع الحمارة ألا يدفن مثل عامة الناس، حلفت وقالت: «عليّ الطلاق من دراعي»، أصدرت أمرًا قاطعًا للجميع بألا يدفن كما يدفن الرعاع وألا ينام على التراب كسائر رعيته، كان أمرها وقسمها حازمًا وصوتها صارمًا حادًّا أن ينام على مرتبة جديدة ومخدة عريضة داخل القبر وأن يوضع فوق كفنه لحاف يدفئه وقت الشتاء حيث كان يكره البرد أثناء حياته بشدة.

٣٠

هربتُ من البيت.

بسبب لعب الكرة بالطبع مع أن المباريات لا تتم إلا بعد العصاري، هناك حجة قاطعة بأن الشمس ما زالت، وبما أن الست شمس لم تعد لبيتها بعد فلا بد أن النمش سيزيد في وجهي، هناك سبب آخر لا يباح به مثل أسرار الست شهرزاد: اللاعبون كلهم صيَّع تقريبًا والعرق دساس، أفضل واحد فيهم دخل بالكاد مدرسة الصنائع، ولد مطيور ودماغه نافخة، يريد أن يكوّن فريقًا يلعب به في الدوري ثم في كأس العالم، كما كوَّن فرقة من المشجعين اشترى لهم طبلتين على حسابنا، ليس هناك في هذه القرية من ينظر إليه كصبي حالم، بل يطلبون ممن هو قريب منه أن يأخذه لأقرب حداد ليركب له مسامير جديدة في مخه أو على الأقل يقوم بتغيير القديمة، وهو للأمانة ساهم في صنع هذه الصورة، أطال شعره مثل اللاعبين الأجانب الذين رأينا صورهم في الجرائد ومرة نادرة في التلفزيون، تشبَّه بهم حتى يهفهف شعره وهو يعدو أثناء اللعب، وهذه لعمري كانت نقيصة ما بعدها نقيصة في بلدنا، ولولا خوف شيخ الجامع منه للعنه علنًا على المنبر، وإن لم يسلم الأمر من جملة خائفة عن الذين يطيلون شعورهم كالنساء.

لم يكن هناك واحد بشعر طويل أبدًا، والذي سولت له نفسه وفعلها كان لا بد أن يكون شعره ناعمًا جدًّا ويخبئه تحت الطاقية.

فعلها، بل أطاح بكل القيم مرة واحدة، وفي لفتة نادرة أيضًا صبغ شعره بالأكسيجين فأصبح حديث الجميع لولا أنهم يخشونه، غشيم ولا يقبل أن يجادله أحد في شيء طلع في رأسه، عضلاته كانت كفيلة بإيقاف أي نقاش بل عدم الدخول فيه من أصله، طيب في الحقيقة لكنه ينطح بغير ميعاد، ربما لأن سمعه ثقيل رغم أنه في عنفوانه، كان ذلك يحدث لبسًا فيما يسمعه أو يفهمه، وتقوم الدنيا إلى أن نصرخ في أذنيه، ساعتها يفهم ويضحك كالأطفال، كأنه ليس هو، كأنه على حقيقته فعلًا.

آقاربه البخلاء في الكويت جاؤوا له بكرة قدم هدية بعد آن طلبها بنفسه في خطاب مسجل حتى يكون حجة عليهم إن نسوا وحتى لا يتحججوا بأن الخطابات العادية تضيع غالبًا، نفش ريشه وتحول من مجرد لاعب أجنبي إلى لاعب ومدرب، " بفلوسه"، أصبحنا نحتاجه أكثر مما يحتاجنا، ننتظره على باب دارهم لساعة حتى يتفضل علينا ويخرج بها، يحملها ويلفها بين يديه حتى الملعب، ما من مرة تكرم وأعطاها لأحد ليحملها ولو على سبيل التعفف أو المجاملة، يختفي يومًا لا نعرف له قرارًا وحين يعود يعتذر بأن الكرة تعبت من اللعب وتحتاج للراحة، يعود في اليوم التالي، يحب الأضواء وتحبه، أوقف المباراة فجأة وأرغمنا أن نخرج معه لخارج البلد لنستقبل الرجل الذي يجلب الجرائد من المدينة قبل المغرب، والذي كلفه أن يذهب لمدرسته ويسأل هل تم قبوله في قسم الخراطة أم البرادة في مدرسة الصنائع.

دخنا خلف بائع الجرائد الملعون الذي ربما ذهب مرة واحدة وجعلنا نتقلب على النار بإجاباته: حتى الآن لم يتم تقسيم الطلاب، غدًا ربما يعلنون.

استمر الغد فوق الشهر تقريبًا، نترك اللعب في عزه وأنا هارب من خلف أبي طمعًا في مباراة كاملة لنتمشى على الطريق، نقابل البائع في المنتصف بدل أن ننتظر عند كوبري البلد.

في يوم غابت فيه العصاري دعانا بخشونة أن نخرج معه على الطريق دون لعب، أوقفنا صفوفًا وألقى علينا خطبة عصماء مفادها أن تكون عندنا حماسة وتقدير لمستقبله مثلما لديه قلب واسع لنلعب بكرته، يومها جاءنا الخبر الأليم أنه تم قبوله في قسم الخراطة التي يمقتها مع أنه كان مفتول العضلات ويصلح لها، عدنا دون خف ولا حُنيْن، وعليه امتنع عن الخروج من البيت أسبوعًا ولم يقبل أن يعطينا الكرة لنلعب نحن، اعتبرها مأساة وقلة أدب منا بل منع من لم يزُره ومن لم يظهر المواساة من اللعب بها لمدة أسبوع آخر.

كان طيبًا وحمارًا، يغضب لأتفه سبب، كنا نسميه الغوريلا، هو الأخ الأصغر لكلاي الذي اعتلى عرش القوة في بلدنا قبل أن ينزل عنها إثر

ضربتين بالسكين في وجهه، من عائلة عظامها غريبة، لو ضربته آنت وهو ساكن ستوجعك أنت يدك.

عنده عادة غريبة، يقضي وقتًا كبيرًا فوق السطوح، يكتب خطابات لكل العساكر المجندين من قريتنا، يخبرهم فيها أحوال البلد برمتها، المشاكل، أخبار الزواج والطلاق والزراعة وتوقعه لنتاج المحصول هذا العام والبطولات التي سيشارك فيها فريق كرة القدم، يدعوهم لبذل كل الجهد على خط الجبهة لنصرة البلد وكي توضع أسماؤهم في صفحات المجد والفخار، يقول كلامًا كبيرًا لا تتخيل أنه يصدر عن شخص صبغ شعره وأطاله ليطير مع الهواء والكرات العالية داخل الملعب.

مواطن أممي، يقود فريقًا من الأشبال يذهب بهم إلى قرية أبوغنيمة البعيدة ليلعب مباراة في عز الحر، يتلقى هزيمة ثقيلة، لكن قلبه واسع، يكتب على حيطان البيوت بلون أسود وبنط كبير: فازت أبو غنيمة على البرية بثلاثة وثلاثين هدفًا لثلاثة، أحرز الغوريلا الأهداف الثلاثة.

لم يكن أحد يتخيل أنه سيقع في الغرام ويحب يومًا، قطار مندفع على أرض بلا قضبان، ثم مَن هذه التي ستقبل بهذا الحائط، لو رزعها كفًّا واحدة لسقطت تحت الأرض لا فوقها، لكن للغرام أفاعيل وللنسوة أحابيل، أسقطته من علوه واحدة في ثلثي جسمه لكنها تملك الحيلة، عرفت كيف تصطاده وتحوله من ثور لخروف صغير أمامها، عندما تغضب منه تلعب بأعصابه، قمحية بتقاطيع لذيذة مغوية، تقسو عليه، كأنها تدربه على مكانه بعد الزواج، كأنها تقصقص له أجنحته منذ البداية، "ربي قطك قبل عرسك»، يغضب منها لأنها تضع بعض الحمرة الرخيصة خلسة حين تقابله، يقول إن ذلك سيعطله عن البوس على لحم شفاهها، كأنه يتخيل أنها ستسمح له أو سيأخذها عنوة، يعود خالي الوفاض، تشده وترخيه، يبكي عندي، يقول لي أنت تقرأ كتبًا كثيرة ودماغك كبيرة ومن الممكن أن تجد لي حلًّا، لعله كان يفكر أنني من كثرة قراءة القصص الرومانسية أصبحت مفتيًا في الحب أو سأجد له حلًّا في أحد كتب السحر، وأنا بالكاد من فريق الحب القح، من الذين يغوصون فيه عميقًا، بل يغرقون فيه، أحمل قلبي على

كفي، أنا الذي آحببت فاطمة ونجوى ولم آجد حلّا لروحي، بريء براءة وافرة، لا أحتاج غلوة من واحدتهن، أنا مغلي وحدي.

هربت من البيت، بعد أن أخذت علقة متينة، لا بسبب النمش ولا بسبب الجرابيع الذين ألعب معهم، ربما كان أبي مستاءً لأنني لم أذهب إلى مدرسة المتفوقين كما حلم ولعله كان يعاقبني دون أن يدري مع أنه يعرف أنني أتعلم في مدرسة مؤخرة الجحش بنفس طاقم معلمي المدرسة الابتدائية الذين صرنا نعرف أكثر منهم، لكن حبسي في البيت بحجة النمش كان بالطبع نوعًا من العقاب يفرض عليَّ أن أقوم من جديد بكيّ كومة الجلابيب والطواقي التي تحتاج لمحل كوّاء بمعلمه وصبيانه.

هربت إلى خالي، في القرية المتمدنة عنا بكثير، بها هويس الإنكليز، تمر عبرها السيارات في طريقها للمدن، بلد حية بها محلات الكهرباء والحلوى والمهلبية الحمراء التي تبدو كأحد الأحلام، يضعون عليها أسانس أو أي لون أحمر فتبدو مغرية للناس والصبية، محلات لعصير القصب وتصليح الأحذية، ودنيا.

لم أستطع النوم ولا كتب لأقرأ، سألت خالي عن كتاب، ما الذي دهاني! هو صاحب مخرطة لكنني تذكرت أنني وجدت عنده مرة ديوان "الحاج مبروك وزوجته الحاجة مقبولة"، زجل تافه لا يغني، لكن أي حاجة والسلام قبل أن يقتلني الأرق والخوف من عواقب هروبي، دخل بهدوء وألقى بين يديَّ وهو في غاية الانشكاح بكتاب عظيم: مذكرات إيفا.

كنت قد اعتقدت أنه نام، ما حدث أنه تعاطف معي، وخرج ليحضر المذكرات التي كان قد سلفها لصديق له كان في مشوار فانتظره حتى عاد إلى البيت.

وانفتح أمامي باب جديد، أنا الذي قرأت رواية "لقيطة" لمحمد عبد الحليم عبد الله، والتي شاعت سمعتها إذ إنها تعادل القصص الشعبية التي يقبل عليها الناس بسبب وجود طفلة لقيطة وحكايات حول الرجل الذي رباها، وعندما كبرت وأحبت اكتشفت أن من أحبته هو

شقيقها وهي لا تعرف، وروايات آمين يوسف غراب ورومانسية يوسف السباعي في روايته «نادية».

“مذكرات إيفا”، انفتح أمامي باب لا أعرفه، انفتحت إيفا نفسها أمامي، عاهرة تحكي مغامراتها الجنسية بسعادة، بلغة رخيصة ومفردات هائجة، لم أنم ليلتها قبل أن أمارس العادة السرية ثلاث مرات والمصيبة أن بعضها طرطش على الغلاف، هناك عالم آخر ومفردات أخرى، دنيا ساخنة، خنت نجوى ليلتها ونامت إيفا في حضني للمرة الأولى، بل كانت كريمة معي، نامت في حضني أربعة أيام، وضعها بين ساقيَّ خالي الرجل الطيب.

رجل طيب فعلًا، أخوه يدورعلى فتاة أعجبته، يسهر معها عند أهلها وينوي الزواج بها، كان أول خياط أفرنجي في المنطقة، عايق والفلوس تجري بين يديه، لكنه كان مغرمًا بالفن والنسوان، بإنفاق دخله الكبير كله عليهما، يشتري الأسطوانات في أول نزولها من طنطا البعيدة، جرفه الفن وعرف أنها لا تناسبه، راح يسهر في المدينة كل ليلة مع الفنانين والحشيش ونساها مؤقتًا، أصبح في موقف حرج، فالناس تعرف أنه سهر عندها وأصبحت محجوزة باسمه، كان لا بد من حيلة وهو فنان أبو الحيل كلها، أول من قام بتفصيل بنطلون في منطقتنا وإن جاء حِجر البنطلون واسعًا بعض الشيء لكنها أول تجربة ولا يفرق معنا هذا من أساسه، سحب خالي الطيب معه مرتين أو ثلاثًا عندها ثم ألقى قنبلته بأن الطيب معجب بها ولا يمكن أن يتزوجها وهي في عين أخيه وأسرَّ لأخيه أن البنت عينها منه وعروسة محترمة، تخلص منهما بجملة واحدة، خطبها له وأهداه كتاب مذكرات إيفا ليعرف كيف يتعامل مع مستقبله، وقد كان.

لبسها الطيب وعاشا هانئين، وهي تعاملت بواقعية لا يدري أحد إن كانت تعاني من قَرصة في قلبها أم لا، لكنها بررت ذلك بأنها لا تحب أن تتزوج مغنيًا أو من يجري خلف النسوان والغناء، في القرى يهزم الواقع الأحلام بل يمحوها، وكل ما فكرتُ به هل استمتع الطيب بإيفا مثلي قبل الزواج أم أنه لم يلحق لأن الفنان زوجه بسرعة كي يتخلص تمامًا من لغط الحكاية وبقيت إيفا جاهزة لتسخين المسائل حين تبرد.

لم يزُرني آحد في هروبي سوى الغوريلا، اطمآن علي وطلب مني آن أعود للتدريبات حيث كانت تنتظرنا مسابقة المركز على كأس السيد المحافظ، راح يفرجني على الخطط التي وضعها للفوز، كنت لاعبًا ماهرًا، الأمهر في فريقي، وبعد أن ضمن الكأس بخططه على الورق تخيل لحظة أنه يحملها ويقف بها أمام باب حبيبته، خرج من عندي وعرج عليها، لم تنجح خطته معها، أذاقته المر كما حكى بأسى، اكتأب لفترة وبدل أن يستمر في إرسال الخطابات للجنود حولته قسوتها وتمنعها إلى شاعر ومطرب في وقت واحد، يغني أغاني يكتبها بنفسه: وسأسحق زنديقًا يتملق، أغانٍ يصنعها على يده، صوته قبيح لكنه كان مخلصًا في الأداء، طلبت حبيبته منه أن يمتنع عن الغناء فغنى: وسأسحق امرأة تتملّق.

اشتد العوار بينهما، يحب الشهرة، يحب أن يكون رقمًا في أي شيء بعد أن دخل قسم الخراطة وهي تعايره بأن آخره أن يكون أسطى في ورشة.

يمشي على الأرض كأنه كتلة من غيظ، في حفل القرية السنوي صعد إلى المسرح، لا يستطيع أحد أن يمنعه، من الممكن أن يضرب الفرقة كلها في دقيقة ويحطم آلاتها، تركوه، قبض على الميكروفون وغنى:

اسمعي يا اللي هتبقي مراتي هتبقي مراتي

شوفي طلباتي واشتراطاتي:

أحمر وأبيض ما تحطيش، أوعي تحطي كمان ورنيش

من شباكك ما تطلّيش حتى ولو مقفول بالشيش.

تصفيق حاد وضحك أغراه بأن يعرج إلى أغنية أخرى، الشاب الذي يريد أي بقعة ضوء فوق رأسه:

ومرة الست حماتي قالت لي يا حلو يا نور العين.

آنا عاوزه جزمة حلوة بس موديل سنة آلفين

قلت لها منين يا حماتي

وأهو أنت عارفه حالاتي

هات يا ضرب وهات يا خبط بالشباشب والقباقيب.

أقسمت حماته في المستقبل أن تسحب موافقتها إلا إذا غير الأغنية بعد أن فضحها، وانسحبت حبيبته من المشهد وتركته يعوي، ولم تعد تضع الحمرة على شفتيها حين تصادفه.

أخذني معه لخالي الطيب، استعار منه مذكرات إيفا.

أقسم لي وعيونه حمراء إنه كان يستمني على إيفا ويبكي من كل مكان.

٣١

حدث ما لم يكن في الحسبان.

كنت وأبي على الطريق، لا أتذكر إلى أين، لا، لا، تذكرت الآن، كنا في نهاية فقرة من فقرات الشتاء المتقطعة، يغزونا المطر ثم يتوقف ليومين، وتبدأ الطرق الطينية في الجفاف، لكن الأمر لا يسلم، كان عليّ أن أمضي معه حيث تنتظره سيارة على أول الطريق إلى المدينة بالقرب من المدرسة اليتيمة، يدلدل رجليه خارج السيارة بعد أن اتخذ مقعده، يعطيني الحذاء الذي أصابه الطين ثم يأخذ مني الحذاء الذي أحمله ليلبسه ويسافر نظيفًا.

هل تعرف عاصمة السودان؟

فاجأنا عباس الخولي ناظر المدرسة، أجبت بسرعة دون تردد أو لجلجة وإلا لطشني أبي كفًّا على وجهي، لم أكن أخشى الخطأ، أخشى أبي أكثر، مرعوب رعب السنين من الخطأ أمامه أكثر من السؤال، وهو لا يتخيل أن هناك شيئًا لا أعرفه.

سألني عن عاصمة العراق ثم كرَّت العواصم.

كم عمره؟

أربع سنوات.

خسارة، أصغر من المسموح بالدخول للمدرسة، لكن لا بأس، أرسله كمستمع، شكله ذكي.

اكتشف بعد يومين أنني الوحيد الذي يستطيع كتابة جملة كاملة في الفصل، أكتب على السبورة لكنني قصير وأصابعي بالكاد تصل لحافة السبورة السفلى، والغريب أنه سمح لي بالكتابة على الحائط.

أصغر واحد في الفصل وأقصر، معي أطفال بين سبع وثماني سنوات

في الصف الأول، معي شحوط دخلوا المدرسة في سن التاسعة، أبناء غلابة وشقيانين وأحفاد لصوص، معظهم من البعيد، بالكاد نتعرف على بعضنا، يحضرون غذاءهم معهم في الغالب في مناديل من قماش فقير، يضعونها على مُتْكَأ الشبابيك العريضة، وحين تحين فسحة الأكل يكتشفون أنه قد سرق وغاب في بطون عميقة خاصة لو كانت فطيرة أو ما شابه، جردوقة، أرغفة مقمرة بالحليب والسمن البلدي، جبن قديم ليس متوفرًا عندنا بسهولة، وتقوم القيامة، قيامة الأطفال وقيامة الناظر، يمر الموضوع بالتوبيخ، وأنتم أولاد ناس كرماء، وعيب.

حدث ما لم يكن في الحسبان.

وكما يحدث في الحياة وفي الأفلام القديمة أيضًا، نتجاوز دموع الفطير ونضحك، وطفل من الذين يأتون من البعيد يكسر شاشة الطفولة دون مقدمات، يرفع ذيل جلبابه خلسة ويقول لمن يجاوره: «شايف حمامتي؟”.

مرت كغراب أبيض.

بعد أسبوع كانت المدرسة كلها تردد الجملة نفسها.

وقفنا نصف يوم كاملًا تحت المطر عقابًا، ولولا خشية الناظر من أهالينا لأوقفنا لأسبوع.

رفضت مديرية التعليم دخولي المرحلة الإعدادية، إذ إن سني القانوني لا يسمح، أصغر طفل يحمل شهادة الابتدائية في الجمهورية، عشر سنوات، وعليه اضطر أبي والناظر إلى تزوير شهادة ميلاد لي بسن أكبر، كانت شهادات التسنين شغالة على آخرها ويمكن تزوير واقتراح أي شيء، حتى شهادة ميلاد لعزرائيل نفسه، شهادات يتم استغلالها في الحقيقة لتزويج العرائس قبل السن القانونية وللالتفاف على الالتحاق بالجيش.

عمي شقيق أبي من الأم كان حريفًا في هذه المدرسة، سمي ولدًا محمدًا في دفاتر الحكومة ثم ناداه بين الناس باسم سعد، وحين

أنجب ولدًا جديدًا فعل العكس، والناس تتوه والحكومة خلفها فينجو الأولاد من دخول الجيش، عم بارع قارئ للمستقبل وبطون الحوامل، كان لا بد من تسجيل المواليد في بداية ديسمبر حتى تخصص لهم حصة التموين من السكر والزيت في السنة الجديدة، زوجته ستلد بعد يناير، وهو يحتاج للزيت، وضع يده على بطن زوجته وقرر بعين نصف مفتوحة أن المولود القادم أنثى، سجلها قبل أن تولد حتى لا تضيع عليه الحصة سنة كاملة بل كان موقنًا بفراسته وبشارته فأطلق عليها اسم انتصار، كان ينصح الناس بالأسماء التي تصلح للإناث والذكور معًا: رضا، عصمت، نجاح وغيرها.

والناظر يطلب مني أن أقوم بتحفيظ الأولاد أسماء العواصم.

كان رجلًا من دنيا أخرى، يبدو ككائن أسطوري، زادته دكنة ملابسه غموضًا، من قرية في طريق المدينة مهدت له الحصول على ابتدائية قديمة وأتاحت له بجودة التعليم في المدن معارف غير متوفرة عندنا بسهولة أو صعوبة، كما أن جدته أو أمها حصلت في الماضي على وقف من الوالدة باشا أم الخديوي إسماعيل كفلت له عيشًا ميسورًا ومظهرًا أنيقًا مهيبًا، يمشي كديناصور وحيد، مستغنيًا عن لقمة عيش الحكومة، طويل عريض الكتفين، بجرم ملاكم لم يتعب بعد، أصابته شظية في رأسه في حرب فلسطين جعلته كثير النشاط والحركة كأنه يقول إنه صنديد، كما ساهمت على ما يبدو في تعليمه الجيد للغة الإنكليزية، رجل حالم أو مجنون يتخيل دائمًا أنه سيصنع منا شيئًا مفيدًا، انتقل معنا ناظرًا للفصل الإعدادي، يأتي أول واحد للمدرسة سيرًا على الأقدام لأربعة كيلومترات، عرقه يتصبب كأنه كان يلعب معنا الكرة منذ التباشير الأولى، مغرم بما يعرفه، يستعرضه بأناقة وأحيانًا بأسى، يشرح الدروس عند غياب المدرسين، يشرح جملتين ثم يعرج على دروس الحرب مع إسرائيل، ويحكي لنا عن الفراعنة وأجدادنا القدماء وبجملته الشهيرة يبدأ وينهي اليوم: أجدادكم القدماء يا أولاد كانوا على درجة كبيرة من العلم.

كبر معنا الأولاد الذين كانوا أكبر مني، كبروا بسرعة، هناك ثلاث بنات في الفصل يجلس بجانبهن الشيخ عبد الحميد، طالب في الثالثة الإعدادية، رسب مرتين فيها ومتزوج، دخل المدرسة في سن

التاسعة، هو الوحيد المسموح له بالجلوس بجوار البنات، تخلص من هرموناته مبكرًا، وأنا ما زلت قصيرًا بوجه يكسوه النمش.

كان علينا أن نكون في غاية الأدب والطاعة، وألا نفكر أن نجرب أو نختبر رجولتنا التي بدأت تنقح علينا، لم يكن المناخ يسمح بذلك أصلًا، ورثنا الخجل والخوف من أهلنا، وواقعة الحمامة كانت دخيلة حتى لو كانت مؤامرة بالبراءة وبفعل قوى خارجية عن قريتنا، كنت صبيًّا خجلًا جدًّا إلا في المعرفة وأظنني ما زلت، الخجل ليس شيئًا يمكن محوه من التركيبة بسهولة، خجل ربما أفقدني مغامرات كثيرة، واكتشفت في النهاية رغم كل الكلام عن الأدب أن المرأة لا تحب الرجل الخجول، وأن الوقح هو من يربح في النهاية.

لم يكن منصور الخضراوي وقحًا أبدًا، كان في غاية الأدب بل أكثرنا خجلًا، في الفسحة حيث كنا نجلس في الحقل المجاور للمدرسة رأيته وقد تجمعوا حوله، ضحكات غريبة مكتومة منخفضة وهمهمات وضرب بالأكف على الأكف، حين اقتربت يبدو أن اللقطة الأولى المثيرة من المشهد قد انتهت وأتت مفعولها، ومنصور تحول اسمه الأخضر إلى وجه أحمر مضرّج بالخجل، ببعض النشوة وبعض الانتصار، ناشده الصبيان أن يفعلها ثانية وهو يتمنَّع ويحفر بكعبي حذائه القديم في الأرض لكنه في النهاية رضخ، كنا قد وصلنا للمرحلة التي لبسنا فيها بنطلونات في المدرسة لأول مرة، كان منصور نحيلًا يبدو ممصوصًا على الدوام ربما بسبب سوء التغذية، إخوته كثيرون، يلبس بنطلون أخيه الأكبر، واسع عليه لكن الحالة لم تكن تسمح بشراء أكثر من بنطلون واحد للولدين، يلبسه واحد منهما في الفترة الصباحية ثم يقابل أخاه قبل الفترة المسائية يعطيه البنطلون ويأخذ منه جلبابه ليعود به، والجميع ينتظر وينادي بصوت خفيض متعطش: يا منصور.

أثمرت المناشدات وأخرج منصور خرطومه ثم سحبه مرة واحدة، رجْل كنبة على أقل تقدير، بدا أعرض بكثير من ساقه، ساعده البنطلون الواسع على إخفائه، بدا مثل رجل أكبر منا بسنوات طويلة، وعلتنا الحسرة رغم الدهشة، إذ لو أن عشرة منا لَضَمُوا أشياءهم في بعضها لن يصلوا إلى شيء منصور.

شاهدنا الفيلم على الهواء مباشرة لكن كان علينا من لحظتها آن نختبر رجولتنا، حتى الشيخ عبد الحميد الذي اعتقدنا أنه تزوج وهدأ يقول لزميل لنا إنه يريد أن يترك مقعده بجوار البنات، وحين يسأله الآخر عن سبب جحوده للنعمة يقول له: «الفار بيلعب».

خلا لنا الجو ونقحت علينا بدايات البلوغ والولوج فيه، نسينا الخجل والكسوف، في التجمعات التي لها علاقة بالجسد غالبًا تندمغ الحدود مثلما يتغاضى الناس عن أشياء كثيرة في المظاهرات بل يذوبون فيها، اقترح أحدنا أن يمسك كل واحد بالمسطرة ويقيس بها عضوه وحده، رغم التلصُّص فعلناها، توافقت معظم القياسات تقريبًا إلا من بالغ قليلًا، إلا الخضراوي الذي فاق ربع الفصل وحده طولًا وعرضًا، رغم أننا علمنا في اليوم ذاته أنه مصاب بالبلهارسيا.

ضبطنا الناظر تحت صخب ضحكاتنا لكنه بمعلمة الخبير الكبير أخفى وجهه كأن شيئًا لم يكن، وإن لم يمنع الأمر أن يسألني عابرًا وأنا أمر أمام مكتبه، بوجه متوعد لأول مرة:

“ما هي عاصمة السودان يا غلام؟”.

يبدو أننا كنا صغارًا أو لم ننتبه، تذكرت جدتي وهي تنصح إحدى قريباتها بالزواج من رجل نحيل أكله الشقاء، همست في أذنها وأنا سمعت: “ما خرطوم إلا على معدوم».

لم ننتبه فعلًا، الفلاحون يعملون في المصارف وفي الترع بقميص يغطي صدورهم غالبًا، كلهم دون لباس يسترهم، أعضاؤهم تسبح للأمام ولأسفل، لعل ذلك سبب كبر هذه الأعضاء كما أفتى أحدهم، أشياؤهم تعوم داخل الماء بحرية بجوار القراميط، أحيانًا لا يعرف أحدهم ماذا يمسك بالضبط، ولا يعدم الأمر أن تقول عابرة لواحد يصطاد: “عندك قرموط يا فلان”، ويرد ضاحكًا دون تفكير: “عندي زفلوط”.

لا تعرف هل هي عادة أم قلة حياء، أم في وقت عمل لا تظهر النساء فيه غالبًا، أم هي ضرورة النمش.

نكبر ونضحك من آنفسنا على الحكايات، ونخجل آكثر كلما كبرنا، ربما يقطع الخجل ما تقوله النساء اللاتي تزوجن الخضراوي وأشقاءه، تقول النميمة إن النساء يتجمعن حول والدتهم يشتكين، كل واحدة تشتكي أنها تعبت من الحموم يوميًّا لمرات وأن شعرها لا ينشف مرة واحدة في الأسبوع.

٣٢

كرهت أبي وأمي.

في لحظة واحدة فعلتها.

أبي يصارع طموحات عائلة زعلوك، استولوا على الجزء الكبير من المنطقة وصنعوا قرية كبيرة بحجم خمس قرى، يصارع أوهامهم التي تحولت بفعل الزمن إلى يقين بأنهم أصحاب المكان وسادته، صحيح أنهم لا يفكرون خارج بطونهم كثيرًا، لكنهم حين اكتشفوا أنه أصبح يملك قمرًا في السماء وكلمته نافذة وصوته حاضر تعدى المحافظة إلى العاصمة، قرروا أن يحاصروه ولو بنجومهم، ولو بمحبة كاذبة.

لا يفكرون أبعد من أقدامهم، وحين يجدون قدمه في موضع يحاولون أن يستولوا عليه ويزيحوه، كأنك في بداية الإسلام، الفارق أن سادة قريش عندنا لم يعرضوا عليه ملكًا، بل أرادوه لأنفسهم.

لكن لا بأس من جملة: نحن أخواله والخال أقرب.

أجلاف في الغالب إلا من آحاد يضيع صوتهم أو يتأخر تحت وطأة الكثرة والنعرة الكاذبة.

بدا أبي كزعيم أو صاحب رسالة في منطقة أقرب إلى الأسطورة من الواقع، امتلك قلبًا كبيرًا لكنه احتاج إلى أعصاب من فولاذ حتى يضع قدمه ويسوس هؤلاء الهمج، اتسعت الصورة وأحبت أمي أن تأخذ مكانًا فيها وفي المقدمة، ساعدته ووقفت وراءه، ساعدتها يداها وشطارتها التي جاءت لهم على الوجيعة، مطبخها يكفي خمسين بطنًا من هذا النوع الذي لا يشبع، لكنها لم تستطِع أن تفهم في الحقيقة طبيعة هؤلاء ولا ما يطمحون إليه، استغلوا كرمها والتقطوا منها أسرارًا لا يجب أن تقال، البيوت مفتوحة على بعضها كأنها بيت واحد وإخفاء سر شخصي يجعلك عدوًّا أو ماكرًا، بالطبع كان حسن نية، الأصح غفلة، هي ليست بنت المنطقة وطباعهم مختلفة تمامًا.

كنت مغلوبًا على أمري رغم التدليل، خائفًا تمامًا من العقاب، من ارتكاب الخطأ، يثور أبي فأميل بقلبي إلى الكفة الأضعف، عشت بقية عمري أميل إلى الأضعف، وأظنني وقفت دائمًا ضد الأقوى، وكل فعل وحرف قلته كان ضد القهر وضد الاستبداد، لم يفوت أبي الفرصة وأطلق عليَّ: «حبيبة أمها»، من أغنية صباح الشهيرة.

يغمز حين يروق.

كرهتهما في لحظة، أعرف أنني لا أقوى على الكره ولم أفعله للأسف طيلة حياتي حتى لو كان أحدهم حقيرًا أو نذلًا.

يقول أحدهم: الكره يحتاج صحة.

تعاركا، أعطتني أمي صُرّة كبيرة سربْتُها إلى إحدى صديقاتها في البلد قبل أن تعود إلى بيت أهلها في اتجاه البندر، كنت أخشى أن أزورها لكنني أفعل خلسة، في يوم شديد الحرارة طلبت مني أن أحضر الصُرّة، حملتها على كتفي ثلاثة كيلومترات في عز الظهر، اختارت التوقيت الذي يهجع فيه الناس من الحر حتى لا يراني أحد، ولا سيارات ولا عربة كارو، لقطني صديق أبي ابن العمدة وهو على حمارته رغم أنني أخفيت وجهي، طالت غيبة أمي، ولحظّي الأسود جاء ابن العمدة عندنا بعد يومين وحين رآني سألني: أين كنت في عز الحر، تحمل صُرّة أكبر منك.

كرهت أبي بعد العلقة الكبيرة، كان يضربني مغلولًا منها.

كرهت أمي بعد أن طلبت مني أن أعود لأبي، طردتني بغلٍّ وعسفٍ بعد أن ذهبت أستنجد بها..

صرت حائرًا، لا أجد مكانًا، الهمُ ينتظرني في الجانبين.

فكرت أن أذهب لعمي بهي الدين، الفلاح الذي يزرع الأرض، لديه بعض الحكمة لكنه لن يتعاطف معي بمليم وقد يضربني أيضًا، لسانه سم ولا يعترف بالنساء ولا برأي واحد لهن، تذكرت الحكاية التي عاشت أمي تحكيها حين مات ابن عمها، كبيرها وكبير إخوتها وأعز ناسها،

رغم أنها عاشت غاضبة منه طول عمرها لأنه كان سببًا رئيسًا في زواجها، جهزت نفسها بسرعة وهي حزينة تولول، جدتي لأبي الجميلة لم تترك زوجة ابنها تمضي وحدها بحزنها، رجلها على رجلها رغم أنها تتوقع التوبيخ من أحد أعمامي بالخروج دون إذن، مضيا وأديا واجبهما وحين عادا، وقفت جدتي تصلي العشاء في أمان، كانت تصلي بلغة بطيئة مسموعة دائمًا، وصلت في الفاتحة إلى: غير المغضوب عليهم، في اللحظة التي فاجأها عمي بهي الدين، وهي تضم يديها على قلبها، بكف ساخنة على خدها وهو يسب بما أوتي، أكملت السيدة بصوت أعلى: "ولا الضالين".

كرهت الجميع.

٣٣

قررت أن أغني.. البداية لم تكن مبشرة، المحاذير أكبر من الحوافز، أنا ابن كبير القرية الذي انتزع مكانه بالمنطق في مكان لا يعترف بغير القوة، قوة العضلات، والعضلات هنا تعني «النبّوت»، والحصول على القوة عبره، لكنها لم تكن قوة فردية لشخص، كانت قوة اجتماعية للعائلات وسطوة بعدد الرجال والأراضي، قلب أبي معايير القوة حين وضع القرية على خريطة الدنيا، وأصبح لدينا مدرسة وجمعية زراعية للفلاحين ووحدة صحية للعلاج من البلهارسيا التي فتكت بأكباد نصف القرية، صحيح أن هذه الأشياء كانت ستأتي ضمن خطة الدولة، لكن علاقات أبي وسياحته في البلاد البعيدة عجَّلت بوضع قريتنا البعيدة على طريق التحديث ومن ثم الغناء باعتباره أهم تجلياته في منطقتنا.

ثم دخلت الكهرباء، كان حدثًا يساوي وقوع الحرب العالمية الثانية كما ورد على لسان الحاج عبد الله أبو زيد كبير عائلة أبو زيد، الذي يمقُت الغناء مَقْت أبي جهل للنبي، ويعاني من وعكة عائلية خاصة إذ إن أهم شباب عائلته ترك النبّوت والزراعة وصار مغنيًا يغني في الأفراح التي راحت تنصب وتزدهر بفعل الكهرباء الخبيثة التي جعلت لعلعة الميكروفونات مسألة بسيطة بعد أن كان يؤرخ للقرية وأحداثها بيوم وصولها في مأتم غضنفر من العائلات المتصدرة لمشهد القيادة، كان يغيظه أن المغني أيضًا اسمه عبد الله، تمت تسميته على اسمه لنيل الشرف، لكن عبد الله الصغير فيه من العياقة والبشاشة والدلع ما يجعل رأس العائلة في الطين إلى حين يرث الله الأرض ومن عليها، مغنٍ وسيم بسمرة حية وسحنة مبتهجة مبهجة يلبس خاتمًا بفص عقيق بلمعة، ويطوح ملفحته على كتفه كما يليق بفنان، بعيون تقول إنه سوف يموت وحيدًا ومبتسمًا، هو حسن المغنواتي الحقيقي في الحكاية المصرية أو هكذا رأيته، وبدا مطاردًا لا يعود إلى مضارب العائلة إلا خفية لرؤية أمه تحت سواد الليل، ولم يستطع أحد من إخوته الاعتراض على مصيره لكنهم تجنبوا تمامًا الخوض في مسألته وانكست وجوههم بقشرة صلبة منعت الجمع من الخوض في سيرته أمامهم.

المصائب تأتي في قافلة كعادتها، لا تأتي وحدها، نبت فجأة في العائلة وعلى غير المتوقع مغنّ آخر كان لا بد أن تبعث حكايته على الفخر، إذ إن رجلًا من العائلة كان يمشي على عكّازين ويبتسم، ومن ثم استدعت حالته أن يعمل في التجارة، رجل لعيب يمسك التراب فيتحول إلى ذهب بين يديه، أصبح يملك سيارة نصف نقل ونصف عمر، رأى الإسكندرية رؤي العين ونقل أولاده للتعلم فيها إلى أن جاءنا الخبر الميمون الذي كان خبرًا مشؤومًا على كبير العائلة بأن ابنه ستذاع له أول أغنية لحّنها في إذاعة الإسكندرية وبينما كنا نلتف جماعات حول أجهزة الراديو القليلة لدى الكبار في القرية، كان والد الملحن على عكّازيه يزفّ البشرى لكبير العائلة الذي عاجله بنظرة قاسية ووجه مشمئز:

“نعم، نعم: علشان يعرف يزمر مع عبد الله ابننا”.

الزمّارون كانوا غالبًا من بقايا الغجر يمرون بزماراتهم على قرانا يغنون غناءً غريبًا عن مواويلنا بقربة تصدر أصواتًا جديدة وتصنع لحنًا مغايرًا، بملابس غلب عليها الفرح وإن لم تخلُ وجوههم من الحذر خشية أن يهزأ بهم الكبار وإن لم تنقصهم المكافأة الواضحة في عيون الصغار، وقد يرقصون خفيفًا طلبًا لحفنة أرز، لرغيف، أو بعض كيزان الذرة وما شابهها، ومن يطلق عليه زمارًا يا ويله يا سواد ليله.

كل البدايات غير مبشرة إلى أن وقعت الواقعة وظهر على الشاشة فجأة أيضًا ودون سابق إنذار خالي السعيد، السعيد اسمه وصفته معرفًا معروفًا بالألف واللام بجهاز أسطوانات، أول جهاز ينزل بقدمه وموسيقاه وأسطواناته إلى بلدتنا، خالي من قرية على طريق أسفلت المدينة، ابن حظ، بل هو الابن البكري للحظ، من يومه ملك الفرفشة والنعنشة، أول من أدخل وبكل فخر التعديلات على الجلباب البلدي التقليدي، صنع الجلباب الإفرنجي أو ما أطلق عليه لسنوات جلباب الأستاذ سعيد، ضاعت منه الألف واللام أو على الأرجح لم يعد يحتاجهما بعد أن ضرب صيته الآفاق في النجوع والدساكر المجاورة، وعلى يديه والحمد لله عرف الناس للصدمة الأولى المطربة ليلى نظمي وزميلتها عايدة الشاعر، وتطايرت في الهواء أغاني: ”الطشت قاللي وكايده العزال أنا من يومي“، ولم يكتف خالي بتأسيسه للنقلة

الغنائية الجديدة، بل راح يؤجر الجهاز والأسطوانات وصارت الجنيهات تشخلل في جيبه، لكن الأمر الأهم أنه أضاع على المغنين الشعبيين جزءًا من شهرتهم وإن لم يختفوا تمامًا، وجعل كبير عائلة أبو زيد يرقد في سلام بعد أن كف المغني العايق عن الغناء في منطقتنا وراح ينتقل لأماكن بعيدة عن مضاربنا.

صعدت على خشبة المسرح، ألبس بيجاما جديدة أحضرتها من سفرتي اليتيمة مع أبي إلى المدينة البعيدة، بيجاما لم تنزل أختها لمنطقتنا من قبل، ظهرت بها في صورة مع رئيس البرلمان، كان الفرح لإحدى العائلات التي استقدمت فرقة جربانة من المدينة البعيدة لكنها بدت لنا كأنها أوركسترا عبد الوهاب وسيصعد هو المسرح بعد قليل.

بالطبع كانت ليلة أم كلثوم من ليالي التقويم يتم فيها الاجتماع حول الراديو في أي جرن، إلى جانب خطب عبد الناصر وتُنصب القعدات والموائد الخفيفة التي تليق بالليلة، لكن محمد عبد الوهاب كان هو المصنف رقم واحد باعتباره ذكرًا يغني برجولة ولا يغني أغاني الوجد والسهاد التي يغنيها المايص عبد الحليم حافظ، مطرب الحبّيبة، رغم أن جعبته مكتظة بالأغاني الوطنية عن الثورة وقائدها الذي كاد يُعبد في منطقتنا.

أبي يحب عبد الوهاب ويكره الإخوان المسلمين ويضحك من صوت فريد الأطرش، كلما جاء صوته في الراديو يقول: هات يا بكاء، تندرًا على الشحنة الحزينة داخل طبقات صوت فريد الغنائية.

المهم، رغم سطوة عبد الوهاب إلا أنني غنيت أغنية «أهواك» لعبد الحليم، ويبدو أن غنائي كان مفاجأة الحفل فطالب جمهور الفلاحين بأن أغني أغنية أخرى وطالب البعض الآخر بإعادة الأغنية نفسها، ورغم أنني كدت أموت من الخوف لو علم أبي بالأمر إلا أنني نسيته حين أمسكت الميكروفون بين يدي تحت تصفيق وهياج الفلاحين ومدير الجمعية الزراعية الذي كان يتمتع بمكانة ولا مكانة وزير الزراعة، وبينما كنت أختم الوصلة لمحت مرسالًا من أبي يلوّح بذراعيه بدل يديه كعلامة على خطورة الموقف أن أختم الكوبليه وأن أنزل من على

الخشبة فورًا.

كان كبير عائلة أبو زيد يتصدر المشهد مرغمًا لمجاملة عائلة العريس، وربما كان شغوفًا أن يرى فرقة البندر بما تحمله معها من نساء البندر، راح ينظر لي وأنا أغني بوجه مستهزئ، فكرت أن أسحبه لملعبي رغم صغر سني، ربما فكرت أن أغيظه وانتهزت الفرصة عند طلب إعادة الأغنية من الجمهور الغفير الغفور فأرسلت التحية للمقاتلين على خط الجبهة كما كان يفعل المغنون الذين سبقوني في «الكار»، جاءت تحيتي مقبولة إذ كنا خارجين للتو من حرب ١٩٧٣، بينما عانى سابقيّ إذ كانوا يهدرون بالتحايا في السنوات التي سبقتني في حرب الاستنزاف والتي كانت مملوءة بالغصة والرهبة جرّاء عودة بعض الجنود شهداء من خط النار، لم نكن قادرين على الحزن جراء استشهادهم لأننا كنا نحارب معركة الشرف، لكن ذلك جعل الفرح بالتحايا عاليًا بعد أن أصبحنا في زمن النصر وعدم الخوف، المهم أنني عند إعادة الأغنية دخلت بالموال الشهير لعبد الله المغني العايق والذي حفظته البرية عن آخرها:

الأولة ورقة بدمع العين ناديته.

والتانية ورقة جريح القلب مين غيره.

والتالتة ورقة لا بعت لي سمنته ولا جاء أخد زيته.

والرابعة ورقة حبيب الكبد لا بعت لي أملي العين من حسنه ولا أدوق ريقه..

وعيد الثورة يا أجمل عيد.

ما لقيته من حفاوة وتقدير سوف يُقابل بالتكدير والعلقة المتينة حين أعود للبيت هذا إن جرؤت مفاصلي أن تجد طريقها للبيت أصلًا، لكن زوجة عمي التي تعيش في البندر وتفهم في الأغاني أخذتني من يدي وأدخلتني لغرفتي وعادت لتناقش أبي وتستعطفه وما وصلني منها عبر أزيز الرعب الذي كاد يأكلني: «ثم إن صوته جميل أجمل من فريد الأطرش، وبدلته (تقصد بيجامتي) كانت نظيفة وجديدة».

لم أعرف حتى حينه من الذي أنقذني: فريد الأطرش، أم بيجامتي.

جملة أبي الوحيدة كانت: «اقرأ لك كتاب أحسن لك.. الغناء يحتاج للإلهام».

كنت أسمع عبد الوهاب يتحدث عن الإلهام الموسيقي الذي يأتي للفنان، للملحن لكي يجد جملته التي يبني عليها لحنه مثل الروائي الذي يعثر على الخيط الوهمي لروايته، كان يقول: «إن الإلهام الموسيقى لم يأتِ لأحد مثلما أتى لبليغ حمدي، أتذكر هذا الكلام وأنا أستمع لأغنية «مر بي» التي لحنها لفيروز وعندما أصل للمقطع الذي تغني فيه: واعدي لا كنت من غضب، أعرف الحب سني وهدى، الهوى الهوى، وفيروز تعيدها، أتخيل الرزق الذي رزقه الله به لحظتها وأتخيل تعب عبد الوهاب في انتظار هذا الإلهام وأحيانًا مطاردته، وحقده وربما غيرته من بليغ الذي دفعه ذات مرة ليقول عنه: «موهبة ألماظ لكن تحتها صفيح».

كنت أقول دائمًا: عندما أكبر سأصير مغنيًا.

يبدو أنني بعد كل هذه السنوات لم أكبر في السن كفاية، لكن جوهر أمنيتي هو أن أغنّي، ولا يُشترَط لهذا أن أكون مغنيًّا بالفعل، أنا أغنّي رغم أي شيء، وهو المهمّ .

في رحلة مع طفلتيَّ إلى معبد «كوم امبو» بصعيد مصر، حين خرجنا من المعبد لاح مقهى فاتن على مدى البصر، أنشئ حديثًا ليستريح فيه السواح، وعندما اقتربنا لاحت فرقة صعيدية من خمسة أفراد باللباس التقليدي: جلابيب وعمامات وزمامير ونايات، يغنون أغاني أعرفها وأحفظها، حذرتني ابنتي الكبيرة كعادتها من الغناء لأنني قد أسبب لها الإحراج بين السواح، لكن القلوب تعرف مكانها وغيّها رغم كل التحذيرات، تهفهف مع أول نغمة، والمغنون عائلة مهما تفرقوا، يعرفون بعضهم بعضًا.. بعد دقائق كنت أقودهم بين الممرات في المقهى الفسيح جدًّا، وأغني أفضل منهم، بالروح التي لم تزل عاشقة هاوية، زال خجل ابنتي بعدما سمعت استحسان المستمعين خاصة المستمعات، زالت عن روحي آخر بقعة نمش،

كنت كالبجعة إياها التي تعرف آنها تغرد تغريدتها الأخيرة، مال رئيس الفرقة على أذني بين الفقرات:

أنت بتشتغل مع مين؟

مع الريس فاروق.

اخترعت له اسمًا دون تردد.

رد برجاء وغمزة:

طيب ما تيجي تشتغل معانا.

الفهرس

1. تمهيد
2. مقدمة
3. ١
4. ٢
5. ٣
6. ٤
7. ٥
8. ٦
9. ٧
10. ٨
11. ٩
12. ١٠
13. ١١
14. ١٢
15. ١٣
16. ١٤
17. ١٥
18. ١٦
19. ١٧
20. ١٨
21. ١٩
22. ٢٠
23. ٢١
24. ٢٢
25. ٢٣
26. ٢٤
27. ٢٥
28. ٢٦

29. ٢٧
30. ٢٨
31. ٢٩
32. ٣٠
33. ٣١
34. ٣٢
35. ٣٣

سنوات النَّمش

تأكَّدَت جدتي من موت ابنها، أغمضت عينيه، وسكَّرت عليه باب الغرفة، وراءها ما هو أهم من الموت طالما حدث.
كانت فرقة السماحي الموسيقية تجوب القرية، وتستقر في النهاية عند وسعاية قريبة، تعزف لما بعد منتصف الليل، خرجت وراءها، استمتعت بالموسيقى والأغاني، بل جلست على كرسي في قلب الوسعاية وأرسلت من أحضر جوزتها ودخَّنَت المعسل، وحين عادت بعد أن امتلأت بالأغاني والسهر، غسَّلَت جسد ابنها، ثم دفَعَته مع زوجها وبقية الرجال ليدفنوه في وسط الليل، فيما النغمات تتسرَّب خافتة حتى المقابر.
بفَضْل جدَّتي، نجوت باسمي من أسماء الأعمام والأقارب، بل أنقذتني من أسماء لصوص العائلة رغم الفخر المجيد بها، وكأنه كان وعدًا أن تختار اسمي وأقُصّ عليها الحكايات.

تصميم الغلاف: إسلام أحمد

ISBN 978-977-96420-3-6
9 789778 842036

المُحرّر